السلسلة الفلسفية والاجتماعية
- ٢ -

علم الغيب في العالم القديم

وضعه
شيشرون
فيلسوف الرومان وخطيبهم

ترجمه وشرحه وعلق عليه
الدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

Bibliotheca Alexandrina
0169768

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

مطبعة الاعتماد بمصر

السلسلة الفلسفية والاجتماعية

— ٢ —

علم الغيب في العالم القديم

وضعه

شيشرون

فيلسوف الرومان وخطيبهم

ترجمه وشرحه وعلق عليه

الدكتور توفيق الطويل

مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز ت ٤٢٧٧٧

مطبعة الاعتماد بمصر

فهـــرس الكتاب

مقدمة الترجمة العربية

ص ٥ تعريف بالكتاب — ٦ شيء من سيرة المؤلف — ٧ شيء عن حياته العلمية والفلسفية — ٩ مكان شيشرون في مجال الفكر — ١٠ منهجه في البحث — ١١ أخوه كونتوس — ١٢ منطق البحث في هذا الكتاب — ٩ المصادفة عند كونتوس — ١٤ موقف شيشرون من تأييد المصادفة — ١٨ هذا الكتاب ورسالة الدكتوراه — ١٨ تاريخ الكتاب وأصوله — ١٩ أهم طبعاته — ٢٠ كلمة في ترجمته .

٢٢ تقدمة للأستاذ الجليل محمد شفيق غربال بك المستشار الفني لوزارة المعارف العمومية .

الكتاب الأول

أدلة كونتوس في تأييد التكهن بالغيب

٣٥ قدم الاعتقاد في التنبؤ — شيوع التنبؤ في العالم القديم — ٣٧ أساليب الرومان في التنبؤ بالغيب — صنعية وطبيعية — ٤٠ موقف الفلاسفة من التكهن — ٤٤ تردد شيشرون في التسليم بالتكهن — بدء المناقشة بين شيشرون وأخيه في موضوع التكهن — ٤٧ ضرورة الاقتناع بالتنبؤ رغم غموض أسبابه — ٥١ دحض الاحتجاج بالمصادفة في تفسير التنبؤ — ٥٢ مناقشة الاحتجاج بكذب النبوءات أحيانا — ٥٤ التكهن قبل شيشرون وفي أيامه — ٥٧ في تاريخ الكهانة — ٦٠ تأييد التكهن بنوعيه : الطبيعي والصنعي — ٦٣ تأييد التنبؤ الطبيعي — (١) التنبؤ عن طريق الوحي (في دلفي) — ٦٤ تأييد التنبؤ عن طريق الرؤيا — ٦٦ الأحلام عند غير الرومان — ٧٠ أحلام الفلاسفة — ٧٢ الأحلام في المصادر الرومانية — ٧٦ نشأة الرؤيا الصادقة وحالات المس في رأى الفلاسفة — ٧٦ رأى أفلاطون — ٧٨ رأى الفيثاغوريين — ٧٩ الموتى وإدراك الغيب — الطبيعة البشرية والهجس — ٨٢ صدق التنبؤ رغم أخطائه — ٨٣ تأييد التنبؤ الصنعي : منهجه وأساليبه — ٨٦ مغبة الاستخفاف بنذر الزجر — ٨٩ في تأييد التنبؤ الطبيعي والصنعي : إلهام الشعراء والخطباء عند ديمقريطس وأفلاطون — ٩١ تنبؤ المرضى عند أرسطو — أدلة الرواقية على قيام التكهن بالغيب — ٩٢ مبررات الاعتقاد في التكهن مع غموض أسبابه — ٩٨ البيئة تحدد نوع التكهن — ٩٩ أثر التكهن في توجيه الحكومات والشعوب قديما — ١٠٤ الفأل والطيرة عند الفيثاغوريين وغيرهم — ١٠٥ تأييد فن العيافة مع غموض أسبابه — تأييد التنبؤ الطبيعي — استبعاد التدليل العقلي من مجال التكهن — ١١٠ — التفسير العقلي للتنبؤ بالمس (الجنة) — ١١١ التفسير العقلي للتنبؤ عن طريق الرؤيا — ١١٢ نظرية أنتيفون في تفسير الرؤيا — مبررات تعبير الرؤيا : غموضها — ١١٣ العناية الإلهية بأفراد الشعب — ١١٤ موقف الآلهة من التكهن الصنعي — ١١٦ الوحي الالهي عند سقراط يؤيد التكهن الطبيعي — ١١٨ مصادر التكهن — القضاء والقدر في مجال التكهن — ١٢٠ طبيعة النفس الانسانية كمصدر للتكهن — ١٢٢ مهاجمة الدجالين والمرتزقة من مدعى الكهانة .

الكتاب الثانى

رد شيشرون على أدلة كونتوس
فى تفنيد الاعتقاد بفنون التكهن

١٢٧ مؤلفات شيشرون الفلسفية — ١٢٨ مكانة الفلسفة عند شيشرون : اتصالها بتهذيب النفوس — ١٢٩ أسباب اشتغاله بالفلسفة — ١٣٠ منهج شيشرون — أى الأكاديمية الجديدة — فى مباحثه — ١٣١ التكهن لا يستقيم فى مجال العلم والفن والفلسفة — ١٣٥ تفنيد معنى المصادفة فى التعريف : مناقشة تعريف التكهن عند كونتوس — ١٣٧ افتراض المصادفة يمنع من تعقل الأدراك الغيبى — ١٣٩ افتراض القدر يمنع من الانتفاع بالتكهن — ١٤٠ مضار العلم بالغيب — ١٤٣ مهاجمة أساليب التنبؤ : صنعية وطبيعية — ١٤٤ مناقشة أساليب التنبؤ الصنعى : أسباب العرافة — ١٤٥ (ا) مناقشة التكهن بالنظر فى الأحشاء — موقف ديمقريطس من النظر فى الأحشاء — ١٤٧ هذا التكهن لا يستند إلى قوانين طبيعية — ١٤٨ دحض الاحتجاج بالارادة الالهية — ١٤٩ السخرية من استشهادات الرواقيين — ١٥١ إيثار رأى الأبيقوريين على رأى الرواقيين — ١٥٢ (ب) مهاجمة التنبؤ عن طريق البرق — ١٥٤ وصف الصواعق المنذرة عند الرواقية ومناقشته — مناقشة استشهادات الرواقية والأصرار على تعليلها — ١٥٧ إقرار المصادفة فى مجال التكهن ١٥٨ (ح) مهاجمة التكهن بنذر الزجر . الجهل بالعلة مثار الاعتقاد بالغيب — ١٥٩ نشأة علم العرافة ومناقشتها — ١٦١ الاعتقاد فى النذر لا يستقيم مع المنطق — ١٦٣ التفسير المنطقى لاستشهادات الرواقيه كفيل بدحضها — ١٦٥ دحض الندرة كنذير زاجر — ١٧٠ (د) مهاجمة التكهن باستنباء الطيور . استخفاف شيشرون بالعيافه مع إقرارها — ١٧١ اجراءات الحكام فى معرفه الطالع — ١٧٢ اضمحلال العيافه — ١٧٤ مهاجمة العيافه عند غير الرومان — ١٧٥ التكهن بأدوات القتال — ١٧٦ مناقشة استشهادات الرواقيه — ١٨٠ مهاجمه التكهن بالأنصبه — ١٨١ نشأة الاعتقاد بالأنصبه — ١٨٢ (هـ) مهاجمة علم أحكام النجوم : موقف خصومه من الفلاسفه — ١٨٣ أصل التنجيم ومناقشته — ١٨٩ مهاجمة التكهن الطبيعى — مذهب الرواقيه فى صلة التنبو بالآلهه — ١٩١ مناقشة المذهب الرواق — ١٩٦ (ا) مهاجمة التنبو فى حالة الجذب : مناقشة نبوءات سيبايل المجذوبة — ١٩٨ مناقشة شاهد رواق — ١٩٩ غموض النبوءات وكثرة الاحتمالات فى تفسيرها — ٢٠١ مناقشة نبوءات دلفى — ٢٠٢ (ب) مهاجمة الرؤيا الصادقه : مناقشة آراء الفلاسفه — ٢٠٣ الرؤيا الصادقه واتفاق المصادفات ٢٠٤ الشك فى منفعه الاحلام — ٢٠٥ استبعاد الوحى الإلهى من مجال الرؤيا — ٢٠٨ إرجاع الأحلام إلى طبيعه النفس — ٢٠٩ مناقشة قيام فن التعبير — ٢١١ مناقشة استشهادات الرواقية — ٢١٢ إرجاع الأحلام إلى مكنونات النفس — ٢١٦ الشك فى قيام علاقة علاقة طبيعيه بين نبوءات الرؤيا وحقائق الأشياء — ٢١٩ الشك فى قيام التعبير على المشاهدة العملية — ٢٢٠ قيام التعبير على الحدس يبرر الشك فى نتائجه — ٢٢١ دحض التسليم بأساليب التكهن باعتبارها خرافة — ٢٢٤ كتب المترجم .

مقدمة الترجمة العربية

تعريف بالكتاب :

هذا كتاب وضعه « شيشرون » فيلسوف الرومان وخطيبهم منذ عشرين قرنا من الزمان ، وقد فصل فيه أساليب التنبؤ بالغيب فى مختلف فنونه ، وتحرى فى علاجه — تمشيا مع منهج الأكادنية الجديدة التى كان يتزعمها — أن يحشد أدلة الذين تشيعوا لهذه الفنون وذادوا عنها، وحجج خصومها الذين ضاقوا بها وهاجموا أهلها .. !! وبهذا عمد المؤلف — وهو خصيم عنيد للتنبؤ فى مختلف فنونه — الى أن يعرض فى نزاهة تدعو إلى الإعجاب مذاهب الذين انتصروا للتنبؤ من فلاسفة اليونان والرومان ، من رواقيين — على وجه أخص — وفيثاغوريين وسقراطيين وأفلاطونيين ومشائين وغير هؤلاء من دعاة هذه الفنون ، منذ فجر الفلسفة فى القرن السادس ، حتى عصر المؤلف — فى القرن الأول قبل الميلاد — بل تضمن استشهادات استقاها المؤلف عن عقائد دان بها القدامى من شعوب الأرض، من أشوريين وكلدانيين ومصريين ويونانيين ورومانيين وغيرهم ، مع فيض من الأمثلة تحدر عن تاريخ الأمم القديمة ، وتجارب الكثيرين من أهلها .

بهذه النزاهة العلمية أرخ شيشرون فى النصف الأول من كتابه مذاهب المؤيدين لفنون التنبؤ ، توطئة للتعقيب عليها فى النصف الثانى من كتابه ، بتفنيدها ومعالجة دحضها والكشف عن وجوه الضعف والمغالطة فى تأييدها ، مستعينا بمذاهب الأبيقوريين وغيرهم من الفلاسفة الذين اضطلعوا بمقاومة التكهن بالغيب فى شتى فنونه ، مستندين فى موقفهم إلى منطق العقل فى تحليله للآراء التى حشدت لتأييد هذه الفنون ، وتفهم قوانين الطبيعة وسنن الكون ، والتعرف الى طبيعة الظواهر والكشف عن عللها وأسرارها ، دون الالتجاء إلى العقائد الدينية والزج بالآلهة فى مواطن الدفاع عن هذه القضية — كما كان يفعل دعاة التنبؤ فى تلك العصور .

شىء من سيرة المؤلف :

أما عن صاحب هذا الكتاب « ماركوس شيشرون » فحسبنا أن نقول عنه — بالاضافة إلى البيانات الطيبة التى وردت عنه فى التقدمة القيمة التالية : أنه ولد فى مستهل العام السادس بعد المائة قبل ميلاد المسيح ، فنشأ فى جو يضطرم اضطرابا وفتنا وحروبا حتى سماه المؤرخون : عصر الثورات ، وكان يُعدّ منذ صغره للحياة فى هذا الجو ، فقضى المرحلة الأولى من حياته فى مدارس روما ، ثم رحل فى طلب العلم خارج وطنه ، جرياً على سنة أبناء أرقى الطبقات فى روما ، وأصاب حظا وافرا من ثقافة اليونان والرومان معا ، وحذق اليونانية حتى كان يخطب بها فيثير كوامن الإعجاب فى سامعيه ، وتكفل لسانه باذاعة اسمه طولا وعرضا ، حتى طمست شهرته فى الخطابة اسمه فى مجال الفلسفة ، واشتغل بالمحاماة فتولى الذود عن المتهمين من أشراف البلاد وأهل المناصب الكبرى فيها ، وكان دفاعه فى الكثير منها روائع أدبية خالدة ، كما كان كفاحه فى مجال السياسة سببا فى مصادرة أملاكه وإحراق بعضها ونفيه ، والانتهاء بقتله . . ! وقد ارتفع فى مجال المناصب حتى شغل القنصلية وهى أكبر مناصب الدولة كلها يومذاك .

وكان للتيارات السياسية وانشغاله بمقاومتها أو توجيهها أثر بيّن فى قلة إنتاجه ، ذلك أنه قضى فى حكم سيليسيا عام خمسين قبل الميلاد ، انصرف فيه إلى شئون السياسة ، فلما عاد عقب ذلك إلى إيطاليا كانت نيران الحرب الأهلية توشك أن تندلع ، فحاول إخمادها فلم يوفق ، وكره أن ينتصر لقيصر وهو فى رأيه زعيم عصابة من الثوار ، وأغراه نبل خصمه (بومبى) بالانضمام إليه ، فآزره آخر الأمر رغم ضعفه وجشعه ، ولكنه بعد معركة فارسالوس Pharsallus التى وقعت فى أغسطس من عام ٤٨ ق . م وانهزم فيها بومبى ، رأى أن من العبث الاستمرار فى مقاومة قيصر ، فضى فى أكتوبر إلى

برنديزيوم Brundisium ولبث فيها سجينا حتى شهر سبتمبر من العام السابع والأربعين ، واعتزل أثناء هذه الفترة الشئون السياسيـــة ، ورغم ما لقيه شيشرون من حسن معاملة قيصر وصحبه ، فانه قد قرر فى كبرياء وأنفة أن يظل فى عزلته ، وألا يساهم فى حكومة يعتبرها رمز الطغيان والعدوان حتى أعلن قيصر العفو عنه بغير شرط ولا قيد .

ولما قتل قيصر وتعقب صديقه أنتونى قاتليه ، وهمّ بتخليد ذكرى صديقه فى جو تسوده الفوضى والفساد ، وقف شيشرون يندد بأعمال أنتونى ، ويحقر من شأن السياسة التى اختطها ، ويتكهن بأنها منتهية بالبلاد إلى الدمار ، ويتعرض للحديث عن شرف زوجته ، فقضى أنتونى بإعدامه ، وتمكن عيونه من اللحاق به والإجهاز عليه ، ثم حملوا إلى الطاغية رأسه ويديه ، فأخذت زوجته الرأس ووضعته فى حجرها ، وصبت عليه جام غضبها ، ثم انتزعت من فمه لسانه الذى عرّض بها ، وراحت توخزه بدبوس كان فى شعرها ، حتى إذا شفت غليلها ، ألقته بعيدا عنها ، وعندئذ حملوا الرأس واليدين وسمروهما فى نفس المكان الذى كان يلقى فيه أروع خطبه . . . ! وهكذا كان مصرع رجل أخلص لوطنه وضميره وعقله ، فى عصر كاد يختفى فيه الإخلاص للمبدأ .

شىء عن حياته العلمية والفلسفية :

كان كلفا بالعلم والفلسفة ، فلما بلغ السادسة عشرة من عمره عام تسعين قبل الميلاد ، قدمه والده إلى سكايفولا Quintus Mucius Scaevola أحد المشتغلين بفن العيافة ليتلقى على يده القانون الرومانى ، ويفيد من ثقافته الغزيرة (١) وولع بدراسة الفلسفة منذ صغره فتلقاها على يد أساتذة من الأبيقوريين والرواقيين وأتباع الأكاديمية الجديدة ، وأحبها ووقف عليها

(١) ص ١٠٣ ، ١٠٤ من مقدمه الصداقة (طبعة لويب)

حياته حتى تفوق فيها ، وكان إذا شغلته الشئون العامة وضرب فى زحمة السياسة أخذ يختلس من وقته لحظات يتفرغ فيها للقراءة والاجتماع باهل العلم والفلسفة من معاصريه ، فاذا قذفت به تيارات السياسة بعيدا عن محيطها ، ألقى بنفسه فى أحضان الكتب والتمس منها السلوى والعزاء ، واعتبر التبشير بالفلسفة أجل خدمة يؤديها لوطنه(١) لأنها تثقف العقل وتهذب النفس ، وتغرى بالتزام الفضيلة ، وتقى المرء شر الغى والضلال(٢) وبهذا تمكن فى عام ٥٥ ق . م من أن يضع : De Oratore وفى العام التـــالى نشر : De Republica وأذاع بعد ذلك بعامين : De Legibus ، واشتغاله بالآداب كان مرده إلى أسباب سياسية(٣) .

ولما مكّن قصر لسيادته على مجلس الشيوخ فى روما ، استبعد شيشرون من مجال الأعمال التى قضى فيها ثلاثين عاما حافلة بالمجد والجد معا ، ولكن نشاط عقله وجسمه كان لا يكل أبدا ، فكان لابد من أن يجد مخرجا ينصرف إليه ، ولاسيما وقد أمضّه الألم لسقوط الجمهورية وأضناه القلق من جراء ديونه ، وأحرجت صدره تلك المتاعب العائلية التى كان يرزح تحت نيرها ، فانطلق إلى الفلسفة وألقى فى عبابها همومه ، فهى عنده خير ملاذ يتقى به الضيق من متاعبـــه ، وأعظم أداة لخدمة الوطن . فترك روما ليبتعد عن جلبتها وضوضائها عام ٤٦ ق . م وتمكن فى هذا العام من أن ينشر Paradoxa و Partitiones Oratoriae و Orator و De Claris oratoribus ، ومن المحتمل أن يكون قد وضع فى نفس العام Hortensius .

وفى فبراير من العام التالى (٤٥ ق . م) اختطفت المنية أخته الوحيدة وكانت معقد حبه ومثار عطفه ، فأنقضت الأحزان ظهره ، وأدركه جنون

---

(١) الفقرة الأولى والثانية من الـكتاب الثانى

(٢) الفقرة الثانية من الكتاب الثانى .

(٣) ص ٢ مقدمة الشيخوخة (طبعة لويب)

الـكتابة عسى أن تصرفه عن التفكير فى آلامه ، فأخرج فى وقت قصير جداً (فى عامى ٤٥ ، ٤٤ ق . م) هذه الـكتب كلها Tusculanae Disputationes و de Finibus و Consolatio و Cato Maior و De Divinatione (الذى بين يدى القـــارىء) De Fato و De Gloria و De Amicitia[1] و Topica و De Officiis ، وقد فرغ من هذا الـكتاب الأخير فى نوفبر ، واختتم به حياته العلمية[2] .

وإذا عرضنا إلى مؤلفاته الفلسفية كما عرضها هو نفسه فى الفقرة الثانية من الجزء الثانى فى هذا الـكتاب ، لاحظنا أثر حالته النفسية فى بعض مؤلفاته فى هذا العهد ، ولا سيما ما تحدث فيه عن الاستخفاف بالموت واحتمال الألم وتخفيف الأحزان وسائر الاضطرابات النفسية ، وهكذا تبدو آثار حياته الخاصة فى فلسفته واتجاهات فكره .

ذلك إنتاج شيشرون فى أوقات الفراغ التى ابتعد فيها عن مجال السياسة ، أما الفترات التى كانت السياسة تغمره فيها بفيضها ، فكانت أقل مراحل حياته إنتاجا .

مكانة شيشرون فى مجال الفكر :

ولـكن من الإنصاف أن نقول إن مؤرخى الفكر الرومانى يرون فى شيشرون مفكراً واسع الاطلاع غزير المادة متزن العقل نفاذ النظر ، يحسن عرض الآراء ويجيد تصنيفها ويستطيع فى براعة نادرة المثال مناقشتها والتغلغل بفكره النفاذ إلى أنوارها والكشف عن مبلغ صدقها أو بطلانها ، ولـكنه مع هذا كله لا يعتبر عبقرى الإنتاج ، وإن كان هذا لا يقلل من قيمة مؤلفاته

---

(١) لم يشر شيشرون إلى هذا الكتاب حين أخذ يعدد كتبه الفلسفية فى مستهل كتابه الثانى كما يقول Fàlconer. فى مقدمة الصداقة ص ١٠٣ . ويلوح لنا أن السبب فى هذا أن كتاب الصداقة قد صدر بعد كتاب علم الغيب .

(٢) ص ٣ من مقدمة الشيخوخة .

من حيث وجه النفع لقرائها ، بما تحمل فى ثناياها من سعة العلم وعبقرى الإنتاج ، وما تثير فى أذهانهم من وجوه النظر ، وذلك بالإضافة إلى قدمها واشتمالها فى الكثير من الحالات على مذاهب وآراء لايعرف لها تاريخ الفكر سجلا باقياً إلى يومنا الحاضر ، إلا كتب شيشرون ، ومن أمثلة هذا كتابنا فى علم الغيب فانه يرتد فيه إلى مصادر إغريقية فيها الإنتاج العبقرى وقد ضاع الكثير منها ، ولكنه لا يكتفى بالنقل عنها ، بل يهذب هذا فيما يقول : Falconer بطريقته التى لاتجارى ، ويؤيده بفيض من تجاربه الواسعة ومعلوماته الفياضة .

منهج فى البحث :

ويقف من هذه الآراء كلها موقف العالم الأمين ، يحسن اختيار مايعرضه منها فى نزاهة ولو لم يتفق مع وجهات نظره ، ويناقشه ملتزماً فى ذلك منهج الأكاديمية الجديدة التى كان يتزعمها ، وقد أحسن التعبير عنه حين قال : إنه يبدأ فلسفته بالشك[1] ، ويقصد بالشك ما يقيه خطر « الاعتقاد أو الإيمان » فى مجال البحث عن الحقيقة ، ولهذا فهو يخضع للجدل والمناقشة كل رأى يصادفه ، وأن من زعم أمراً وقاله على سبيل اليقين ، كان قد مثل دور الكاهن الذى يتنبأ بالغيب[2] ، وهو أمين حتى على غير مايعتنق من آراء ، فاذا أراد أن يدحض فكرة عرض فى أمانة ونزاهة كل مايقال فى تأييدها وإنكارها ، ثم عقب بعد هذا بمناقشتها ، فاذا ناقشها أبى أن يقدم للناس رأياً قاطعاً ، وإنما قارن الأدلة بعضها ببعض وناقشها فى صراحة وحرية وأمانة ، وقبل منها مايلوح له أدنى إلى الصواب ، ثم يترك للسامع مطلق الحرية فى إبداء رأيه وإصدار حكمه . وقد ورثت الأكاديمية الجديدة هذا الاتجاه العقلى عن

---

(١) الفقرة الثانية عشر من الكتاب الثانى وهامشها

(٢) الفقرة الثالثة من الكتاب الثانى وهامشها

سقراط(١) وقارىء كتابه الذى بين يدينا الآن ، إن تغافل عن الأسلوب الخطابى الذى عالج به موضوعه ، واستلزم الجزم الحماسى فى بعض الأحيان ، فانه لايملك إلا الاعتراف بأن هذا هو المنهج العلمى الذى التزمه شيشرون فى مناقشة الموضوع وعرض ماقيل فى تأييده ومهاجمته منذ أيام اكسانوفان الأيلى فى القرن السادس إلى عصر كراتيبوس الذى عاصر المؤلف (فى القرن الأول قبل الميلاد) . وقد كانت الروح الى تشيع فى بحثه من بدايته إلى نهايته روحاً فلسفية لادينية(٢) ، وإن كان قد نبه إلى أنه لايقصد بحملته الإساءة إلى الدين والتقاليد لأنه يحمل لها كل احترام وتقدير .

كونتوس شيشرون :

أما عن أخيه الذى تولى الدفاع — طوال الكتاب الأول — عن فنون التكهن فقد ولد حول العام الثانى بعد المائة قبل ميلاد المسيح ، ولما شب تلقى علمه فى خير ما عرف فى روما واليونان من مدارس ، وقد كلف بالقراءة والدراسة ووقف الكثير من أوقات فراغه على الكتابة ، فنشر أثناء إقامته فى بلاد الغال أربع مآس Tragedies ضاعت كلها ، ويعزى إليه كتاب Commentariolum Petitionis وكان من أتباع الرواقية الرومانية(٣) ولهذا أجرى شيشرون حججهم على لسانه ، ولكن حياته السياسية قد طغت فيما يلوح على حياته العلمية ، فقد كان فى عام ٦٥ ق . م حاكما فى روما (Aedile) منوطاً بالمنشآت العامة والألعاب والأسواق والشرطة ونحوها ، ثم كان فى عام ٦٢ حاكما يلى القنصل فى المرتبة : Praetor ثم تولى حكم آسيا من مارس عام ٦١ إلى إبريل ٥٨ ق . م وكان قائداً : Legatus تحت إمرة بومبى فى سرديفيا بعد ذلك بعامين ، وتحت قيادة قيصر فى بلاد الغال عام ٥٤ و ٥٣ وتحت أمرة

(١) الفقرة الثانية والسبعون من الكتاب الثانى .

(٢) ص ٢١٦ من مقدمه علم الغيب .

(٣) دعاريه ص ١٠ ويضح هذا فى الكثير من نصوص الكتاب نفسه .

أخيه ماركوس (شيشرون) فى سيليسيا من يوليه ٥١ لمدة عام ، أما فى الحرب الأهلية فقد انضم إلى بومبي أول الأمر ، فلما انهزم بومبي قدم كونتوس خدماته إلى قيصر ، ومات فى نفس العام الذى مات فيـــه أخوه الأكبر شيشرون — وكان موته فى ديسمبر عام ٤٣ ق . م عند انتهاء حكومة الثلاثة أكتافيوس وماركوس وأنطونيوس(١) .

منطق البحث :

تناول هذا الكتاب البحث فى موضوع شغل بال الناس منذ أقدم العصور ، ولعل أظهر ما فى البحث هذا الجدل العقلى الذى يكشف عن سعة علم ودقة ملاحظة ورصانة منطق ، وتبدو هذه المميزات جلية فى تأييد التكهن وإنكاره معاً ، حتى ليحار القارىء أى الاتجاهين أدنى إلى الصواب . ! ومن أجل هذا رأينا أن نعرض نموذجاً للجانب المنطقى فى هذا البحث عند كونتوس الذى تولى الدفاع عن أساليب التكهن ، وشيشرون الذى تولى إنكاره ودحضه . وتخيرنا «المصادفة» التى يردّ إليها منكرو التكهن صدق النبوءات ، لأن عناصر البحث فيها قد ذهبت أشتاتاً فى فقرات الكتاب ، وهى من أكبر نواحى الموضوع خطراً ، كانت كذلك فى الماضى السحيق ، ولاتزال كذلك حتى يومنا الراهن ، ولهذا رأينا أن نجمع شتاتها ، ونبين عن حجج كليهما فى تفنيدها أو تأييدها ، وبذلك نتبين مبلغ العمق فى منطق كل منهما :

المصادفة عند كونتوس ، صاحب الدفاع عن التكهن : إن العين وحدها أداة الإبصار ، وقد تعجز عن أداء وظيفتها أحياناً ، فلا يكون هذا دليلا قاطعاً على أنها كفت وفقدت ملكة النظر ، فان أحسنت رؤية الأشياء ولو مرة واحدة ، ثبتت قدرتها على النظر ، وكذلك الحال فى ملكة التكهن ، قد يخطىء صاحبها فلا يشهد هذا بأنه دجال ، ولكنه إن صدق مرة واحدة كان صدقه

(١) اقتبسنا الترجمة عن Falconer ص ٢١٥ من مقدمة علم الغيب فى طبعة لويب .

شاهد عدل على أنه أوتى ملكة التكهن بالغيب(١) . على أنا إذا فرضنا بأن الشيء قد يقع مرة على سبيل المصادفة فانا نذعن للتسليم بأن وقوعه مئات المرات إنما يكون مصادفة واتفاقاً ، فلاعب النرد قد يصيب مرة كل بضع مرات ، ولكنه إذا أصاب مائة مرة فى كل مائة رمية لم يكن هذا على سبيل المصادفة أبداً ، وكذلك الحال فى التكهن .

ثم إن الإصابة التى تقع اتفاقاً لايمكن أن تبلغ من الدقه حداً يتصل بتفاصيل النبوءة ، فان من الممكن أن تنتثر الألوان عفواً على قطعة خيش فتتألف من انتثارها سبهللة صورة وجه ما ، ولكنها لا تستطيع أن تنشىء صورة فنية دقيقة ، وقد انشقت صخرة مرة فظهر من ذلك رأس الإله Pan ولا يمكن أن يكون التشابه الدقيق وليد المصادفة(٢) .

وإذا كانت نبوءات الكهان لاتصدق أحياناً ، فان ذلك لايطعن فى فن الكهانة ، فما من فن إلا وحدس أهله عرضة للكذب . فاذا أخطأ الطبيب فى حدسه فان ذلك لايطعن فى فن الطب ، وكذلك يقال فى الحدس عند أهل الملاحة والسياسة والزراعة وغيرها من فنون وحرف(٣) .

وإذا عز علينا إقناعك ، لم يكن هذا دليلا على فساد رأينا ، فان العقل قد يعجز عن تفسير الظواهر وردها إلى عللها ، ولكنه مع ذلك يضطر للتسليم بوجودها . فمن الخير أن نهتم بنتائج التكهنات دون أن نجهد أنفسنا فى البحث عن عللها وأسبابها ، فان بعض الأعشاب يستخدم فى علاج الكثير من أمراضنا رغم أن العقل لم يفسر لنا قوتها وطبيعتها ، إنى أرى ما لهذه الأشياء من قوة وحسبى ما أرى(٤) فقد يكون هذا سراً من أسرار الطبيعة الخفية ، ولم يشأ الله أن يطلعنى على أسبابه ، ولهذا فان أهل التكهن قد أصابوا حين

---

(١) الفقرة الثلاثون من الكتاب الأول

(٢) الفقرة الثانية عشرة من الكتاب الأول .

(٣) الفقرة الثالثة عشرة من الكتاب الأول .

(٤) الفقرة السابعة إلى الثانية عشرة من الكتاب الأول .

أقاموا نبوءاتهم على الخوارق التى لا تبدو على اتفاق مع ما ألفناه ، وما ينبغى أن نسخر من عراف ينذر الأمة بالشر لأن البغلة — وهى حيوان عقيم بطبعه — قد ولدت فلوا . . .(١) إن الذين لا يقتنعون بشهادة حسهم ، والنتائج التى تبدو أمامهم لأنهم يجهلون حقيقتها ، ولا يعرفون عللها وأسبابها ، سينكرون لهذا السبب نفسه قوة المغناطيس على جذب الحديد وفعل العقاقير فى شفاء الأمراض . وليس مصادفة واتفاقاً أن تلد البغلة وهى حيوان عقيم ، أو أن يفيض نهر أراتوس Aratus دماً وتتصبب تماثيل الآلهة عرقاً ، أو يظهر تاج من الحشيش فجأة على تمثال إله ، أو تختفى النجوم الذهبية من معابد الآلهة فجأة . وإنما هذا كله نذير شر لا محالة ، وللكهان أن يؤولوه باعتباره زجراً لنا عما نقبل عليه من مشروعات ، فهم الذين يعرفون كيف يفسرون التغير الذى يطرأ بإرادة الآلهة على أحشاء الضحية عند ذبحها .

حسبنا هذا عن حديث كونتوس عن المصادفة ، ولنعرض إلى مناقشة شيشرون لأدلته :

موقف شيشرون من تأثير المصادفة فى مجال التكهن :

يعرض شيشرون لمناقشة المقارنة التى عقدها كونتوس بين ملكة الإبصار وملكة التكهن ، فيقول له إنى لا أعرف وجه التشابه بينهما ، فإن العيون تستخدم فى الإبصار حسا منحته الطبيعة للناس ، أما ملكة التكهن فإنها إن أدركت الغيب فى مس أو رؤيا جاء إدراكها مصادفة واتفاقا أجل فإنك إن زعمت أن الكثير من النبوءات يصدق ، وجدت ما لا يصدق أكبر مما يصدق كما ، وهذا دليل على أنها مسألة حظ واتفاق . وإذا كنت تؤمن بالتكهن لأن نبوءة واحدة قد صدقت — كما تؤمن بقدرة العين على الابصار لأنها أحسنت رؤية الأشياء ولو مرة واحدة — فإن هذا يتطلب منك التسليم بضروب التكهن الصنعى ، فليس من بينها ضرب واحد إلا وقد

---

(١) الفقرة السابعة عشرة من الكتاب الأول .

صدقت فيه نبوءة واحدة على أقل تقدير . . فكيف رفضت التسليم بالتكهن الصنعى إن كان هذا قوام إيمانك . . .(١)

ثم يعرض للمثل التى ساقها كونتوس فيقول له : لماذا يستحيل أن تصيب رمية النرد مرات متواليات مصادفة واتفاقا . . ؟ ولماذا لا يمكن أن يرجع التشابه الدقيق إلى محض المصادفات . . ؟ فليس فى ظهور رأس الإله بان Pan من صخرة تنشق أى مثار للدهشة ، فإن الروائع الفنية يسفر عنها نحت الرخام دون أن يضيف الفنان شيئا غير جهوده الفنية فى الصقل والإعداد ، إن الأثر الفنى يكون كامنا فى قطعة الرخام ، متخفيا فى ثناياها ، فلماذا نستبعد أن تنشق صخرة فيتكشف انشقاقها عن شبيه برأس الإله بان Pan — على سبيل الاتفاق والمصادفة ..؟ ثم ألم تلاحظ السحب وهى تأخذ صورة الأسد حينا والقنطورس حينا آخر . . ؟ على أن قصه انشقاق الصخر ربما كانت من نسيج الخيال (٢) .

ثم إنك اعتبرت ولادة البغلة نذير سوء لأن هذا شيء نادر لا يتفق مع المألوف من تجاربنا ، ولكنى أرى أن الظواهر كلها تلتمس علتها فى الطبيعة ، حتى ولو لم تتفق مع خبرتنا فى الحياة . ومن واجبنا أن نكتشف العلة فى كل شيء يثير دهشتنا ، فاذا عز الاهتداء إلى معرفة العلة وجب أن نكون على يقين بأن لها رغم ذلك علة تبرر وجودها ، إن مبادىء الفلسفة كفيلة بأن تبعد عن نفوسنا المخاوف التى تساورها من جراء شيء نادر لم نألف ظهوره من قبل ، بذلك يهدأ روعك ويسكن اضطرابك من وقوع الزلزال وانشقاق السماء وسقوط الكواكب وولادة البغلة ونحوها مما تعتبره نذيرا زاجرا . فكن على يقين يا صاحبى بأن ليس ثمة معلول بغير علة ، ولا شيء يمكن أن يحدث وكان حدوثه أمرا مستحيلا ، ومتى وقع أمر كان من الممكن أن يقع فانه لا يعتبر نذيرا زاجرا ، فليس ثمة شيء اسمه نذير سوء ، وإن كنت تصر على اعتبار الشيء النادر نذير شر ، فاعتبر ظهور الرجل الحكيم نذير سوء يهدد بالشر

(١) الفقرة الثالثة والخمسون فى الكتاب الثانى .

(٢) الفقرة الحادية والعشرون من الكتاب الثانى .

وينذر بالويل المقبل ، لأن ولادة البغلة العقيم أدنى إلى العقل من تكشف الطبيعة عن رجل حكيم . . !! [١]

ولماذا تستبعد المصادفات فى صدق نبوءات يقف بعض الناس حياتهم على الاشتغال بها ... ؟ منذا الذى يسدد المرمى طوال يومه ولا تحالفه المصادفة فى إصابته . . . ؟ لا شىء يجرى عفوا على غير وتيرة واحدة كرمية النرد ، ومع ذلك فليس ثمة لاعب يقضى فى لعبتها وقته ، إلا ويصيب فى بعض الأحيان مرتين أو ثلاث مرات متعاقبات[٢] ويقول له إملك تقول إن نهر أراتوس قد فاض دما ، وتصببت تماثيل الآلهة عرقا . . . إن الدم والعرق يا صاحبى لا يصدران على وجه التحقيق إلا عن أجسام حية ، وقد يسفر امتزاج الماء ببعض أنواع التراب عن شىء بالغ الشبه فى لونه بالدم ، والملحوظ أن الندى الذى يتكون على ظاهر الأشياء يبدو شبيها بالعرق . . . .[٣]

وتقول إن تاجا من الحشيش قد ظهر على تمثال ليزاندر Lysander فى دلفى ، وكان ظهوره فجائيا . . . فهل تظن إن من الممكن أن يظهر الحشيش بغير بذور . . ؟ أليس الأحرى أن تقول إن الحشيش قد نبت من بذور حملتها الطيور ولم تغرسها يد بشرية . . . ثم لا ينبغى أن ننسى أن الخيال يصور للمرء كل ما يعلو الرأس فى صورة تاج[٤] .

وتقول إن النجوم الذهبية فى معبد كاستور Castor وبولوكس Pullux قد اختفت فجأة ولم يعثر عليها أحد . . !! أليس الأحرى أن نقول إن هذا عمل لصوص وليس عمل آلهة . . ![٥] ثم كيف تتغير أحشاء الضحية فى نفس

---

(١) الفقرة الثامنة والعشرون من الكتاب الثانى .

(٢) الفقرة التاسعه والخمسون من الكتاب الثانى .

(٣) الفقرة الثانية والأربعون فى الكتاب الأول والسابعة والعشرون فى الثانى .

(٤) و (٥) الفقرتان الثالثة والثلاثون فى الكتاب الأول والثانية والثلاثون فى الكتاب الثانى .

اللحظة التى تقدم فيها قربانا . . كيف يكون عدمٌ بعد وجود ووجود بعد عدم، فجأة وبغير مقدمات تبرر هذا التغير . ! أليس الأحرى أن يقال فى اختفاء القلب إنه قد تقلص وضمر بعد مرض اعتراه حتى فقد تشابهه بالقلب . . . ؟ إن من المستحيل أن تعيش الضحية بغير قلب ، أو أن يختفى القلب فجأة عند ذبحها . . . الخ[1]

حسبنا هذا من مناقشة شيشرون لأدلة كونتوس وأمثلته ، ولعل منطقه غلاب ، ولاسيما فى تفنيد هذه الأمثلة التى استمدها كونتوس مما يجرى على ألسنة الناس ، أو من الأساطير والكتب الشعبية ، وإن كان من الأنصاف أن نقول إن دحض المثال لا ينهض دليلا على بطلان الحجة التى قبل المثال فى تأييدها .

على أنا نرى أن لكل حق وجها من الباطل ، ولكل باطل وجها من الحق ، ومن هنا كانت مهارة المجادل اللبق أن يغلب الجانب الذى يؤيده ولو كان أضعف الجانبين . وكما يقول شيشرون فى معرض حديثه عن الحدس فى مجال التكهن : إن المدعى قد يستند فى دعوى قضائية على استدلال ما ، ويستند المحامى فى دفاعه إلى استدلال آخر ، وربما صدر الاستدلالان عن حقائق واحدة ، ومع هذا فقد يتفق أن يصدق الاستدلالان معا . . ولهذا فربما تردد بعض قراء هذا الكتاب فى القطع بأى الاتجاهين أدنى إلى الصواب . . .

(١) الفقرة الخامسة عشرة وما بعدها من الكتاب الثانى .

هذا الكتاب ورسالة الدكتوراه :

وقد شرعت فى ترجمة هذا النص القديم إعجابا به وتقديرا لمنهج بحثه ، وكنت فى ذلك الحين أقوم بوضع رسالتى للدكتوراه ، وقد كانت دراسة مقارنة فى موضوع الأحلام عند مفكرى الإسلام ، ثم لاحظت فجأة أن بين موضوعها وموضوع هذا الكتاب علاقة عموم وخصوص .. ! فخطر لى أن ألحق الترجمة مع التعليق عليها برسالة الدكتوراه (١) .

تاريخ الكتاب وأصوله :

وضع شيشرون هذا الكتاب فى مسقط رأسه « توسكولوم » Tusculum — تقع على بعد عشرة أميال من روما — وكان الغرض من تأليفه مناقشة التكهن بالغيب فى مختلف أساليبه تأييداً وتفنيداً ، عسى أن يكون فى هذا تدعيم لوجهات النظر التى ذهب إليها فى كتابه « طبيعة الآلهة » — الذى يحتمل أن يكون قد فرغ منه فى أغسطس من عام ٤٥ ق.م — وقد ذهب الأستاذ « ديوران » René Durand الى أن كتاب التكهن قد وضع قبل مصرع قيصر ، وإن أدركته بعد ذلك تعديلات واضافات ، ثم روجع ونشر بعد هذا الحدث الجلل الرهيب ، وقد أذعن لهذا الرأى جمهرة مؤرخيه ، ولكن الأستاذ « فالكونر » Falconer قد أبى التسليم بهذا الرأى بعد دراسة دقيقة للموضوع ، ورأى أن الجزء الأخير فى الكتاب الأول ، وكل ما تضمنه الكتاب الثانى قد وضع بعد ١٥ مارس عام ٤٤ ق م (٢)

وقد أشرنا عند البحث عن مكانة شيشرون فى مجال الفكر إلى أنه كان يعرف مراطن الأدلة الناضجة التى يمكن استغلالها فى مباحثه ، فيهبط عليها ويأخذ منها ما تروقه ، وأنه قد سلك هذا المسلك فى كتابنا الراهن ، فاستعان فى تأييد التكهن ومهاجمته بالإغريق ، وإن غذى أفكارهم بمنطقه وتجاربه ، فن

---

(١) جازت الرسالة وملحقها امتحان الدكتوراه بمرتبة الشرف الممتازة فى مايو ١٩٤٣

(٢) ص ٢١٤ من مقدمة علم الغيب فى طبعة لويب .

ذلك أنه اعتمد فى الكتاب الأول فى تأييد التكهن على كتابات بوسيدونيوس الرواقى Posidonius، بينما استند فى الكتاب الثانى الذى هاجم فيه تلك الأدلة إلى آراء كارنيادس — مؤسس الاكاديمية الجديدة — التى تولى شيشرون زعامتها — والشائع أنه قضى دون أن يترك وراءه تعاليم مكتوبة ، ولهذا كان مصدر شيشرون المباشر أحد من تتلمذوا على يد كارنيادس ، ولعله كليتوماكوس Clithomachus. الذى خلفه فى رآسة الاكاديمية واضطلع بنشر نظرياته أما مناقشة حجج الكلدانيين كما وردت فى الكتاب الثانى فقد استمدها من الفيلسوف الرواقى بانياتيوس : Panaetius (١)

والمظنون أن كتاب شيشرون أدق وثيقة حفظت لنا هذه الآراء القديمة التى لا تعرف مكان وجودها .

أهم طبعاته :

وقد أدى إعجاب المفكرين بموضوع الكتاب ، ومنهج بحثه ، ودقة منطقه وغزارة مادته ، إلى الإكثار من ترجمته فى مختلف اللغات ، وأشهر طبعاته الانجليزية :

١ — طبعة لويب Loeb وقد نهض فيها بنقله من اللاتينية W. A. Falconer

٣ — ترجمة C. D. Yonge طبعة Bohn's Series, 1848

وأشهر الطبعات الفرنسية :

١ — طبعة Garnier وقد اضطلع بترجمته فيها شارل أبون Charles Appuhn وذيلها بنيف وثلاثمائة تعليق .. !

٢ — طبعة Budé وهى مذيلة بتعليقات قيمة

٣ — ترجمة ديماريه R. Desmarais وقد نشرت فى العام الثالث للجمهورية

٤ — ترجمة M. de la Pilogerie (فى الجزء الرابع من المجموعة الكاملة لمؤلفات شيشرون) .

وخير الطبعات الألمانية :

Ralph kühner, Berlin, langenscheidt.

---

(١) ص ٢١٧ من مقدمة علم الغيب فى طبعة لويب .

كلمة فى ترجمته :

من وازن بين ترجمات هذا الكتاب فى مختلف اللغات ، أدرك وعورة هذا النص ومشقة فهمه ونقله معا ، وقد توخيت أن أنقله عن طبعة لوبب الانجليزية ، أدق الطبعات فيما يقول الطيب الذكر الأستاذ وادل Waddell الرئيس السابق لقسم الدراسات القديمة بكلية الآداب واستعنت بطبعة جارنيه Garnier الفرنسية وأفدت كثيرا من مئات التعليقات التى ذيلت بها ، ورجعت فى كثير من الحالات إلى الأصل اللاتينى مستعينا فى ذلك بزميلى الدكتور محمد سليم سالم إخصائى الدراسات القديمة بكلية الآداب .

ومقارنة ترجمات هذا النص تؤكد أنها لاتخلو من وجود التفاوت الناعم ..! ومردّ هذا إلى أسباب أظهرها أن النصوص تحتمل معانى تتفاوت بتفاوت العقول وقدرتها على الفهم والتعبير معا ، وإذا كان شراح الشاعر الواحد يختلفون فى فهمه وهم من أهل عصره ولغته وبيئته ، فأحر بالمترجمين أن يتفاوتوا فى فهم هذه النصوص القديمة والكشف عن نوايا أصحابها ..!

وقد حرصت على أن أستعين فى الاطمئنان على دقة الترجمة بصديقى وزميلى بكلية الآداب الأستاذ على أحمد عيسى الذى أبدى من الرغبة الصادقة فى التعاون العلمى ، وقدم من الملاحظات الطيبة ما يستحق كل تقدير ، كما ألجأنى غموض بعض الفقرات الى الاستعانة بصديقى الدكتور رجب عبد السلام المدرس بكلية الطب بالقاهرة ، وأضفت عند الطبع الملاحظات القيمة التى أثارها أثناء مناقشة الرسالة أستاذنا الجليل « شفيق غربال » . فلحضراتهم جميعا أجمل آيات الشكر والتقدير .

وقد تضمن الكتاب بضع صفحات شعرا ، وكان لنا موقف إزاء هذا الشعر يحسن أن أبين عنه :

لم يكن « شيشرون » شاعرا مطبوعا ، وقد نقل خير أشعاره عن الممتازين من الشعراء من أمثال هوميروس وديموستينيس ، ولكنه كان يحسن السبك ويجيد الصياغة مع مقدرة فائقة فى سرعة النظم ، وكان يضيق كلما أحس

باستخفاف الناس بشعره ، ويطمع فى أن يكون شعره من عوامل خلوده ، ومن أجل هذا راح — فى أواخر حياته — يقحم الكثير من أشعاره فى كتبه ، وبغير مناسبة أحيانا .! ويعترف بذلك معتذراً عنه..! وفى كتابنا هذا ما يشهد بذلك ، فقد عرضنا — بين قوسين — بضع نماذج من هذه الأشعار مترجما أو ملخصا ليعذرنا القارىء فى إهمال بعضها الآخر ، وهى — لحسن الحظ — لاتتجاوز فى نصها الأصلى بضع صفحات .

وقد كان الكتاب فى أصله اللاتينى وترجماته التى عثرنا عليها ، خلوا من العنوانات التى تدل على ميادين البحث التى تناولها ، وإن كان ديماريه قد حاول هذا فأساء فيما فعل ، وقد حاولنا نحن أن نسد هذا النقص .

أما فى تعريب الأسماء ، وما أكثرها فى هذا الكتاب ، فقد حاولت على قدر الاستطاعة أن ألتزم فى تعريبها القرارات التى وضعها بشأنها مجمع فؤاد للغة العربية — كما نشرت فى مجلته[1] وأبقيت الأسماء المألوفة فى اللسان العربى وفيها اسم المؤلف على ما هى عليه ، واستعنت فى ذلك بزميلى الأستاذ الدكتور ابراهيم نصحى أستاذ التاريخ القديم المساعد بجامعة فؤاد .

وأخيراً :

فان التكهن بالغيب المحجب مثار افتتان الناس فى كل زمان ومكان ، ومردّ الرغبة فيه الى طبيعة البشر النزاعة بفطرتها إلى معرفة المجهول ، أما عن موقفنا إزاءه ، وبيان وجه الحق أو الباطل فى فنونه ، فقد أبنّا عنه فى كتابنا الذى عالجنا فيه هذا الموضوع نفسه عند مفكرى الإسلام[2] وخير ما نختتم به تمهيدنا لهذا الجهد ، أن نعترف بأن العمل الكامل لم يتهيأ لأحد من البشر بعد ، وحسب الإنسان أن يكلف نفسه وسعها ، والعصمة له أولا وآخرا .

الإسكندرية فى { ربيع أول ١٣٦٥ هـ / فبراير ١٩٤٦ م } — توفيق الطويل

---

(١) ج ٤ ص ١٨ — ٢١ عام ٩٣٧

(٢) التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام ص ١٥٧ — ١٧٠ طبعه أولى

تقـــــــدمة

للأستاذ الجليل محمد شفيق غربال بك

المستشار الفني لوزارة المعارف

عرض الدكتور توفيق الطويل لدراسة موضوع « الأحلام » وما يتصل بها من ظواهر ، وكانت الرسالة الشهيرة التي وضعها شيشرون فى موضوع الاستدلال على المحجبات ، من المراجع الأساسية التي رجع إليها أثناء دراسته ، وقد أدرك الدكتور الطويل أن ذلك الأثر الأدبي الفلسفي يفي بحاجات الباحثين فى تاريخ ذلك الموضوع كل الوفاء ، إذ يعرض فيه شيشرون آراء الأقدمين من المفكرين ، وما انتقل إلى عصره من تجارب الأمم وقصصها على ألسنة الشعراء والرواة حول الطوالع والدلائل ، ومبلغ الاعتماد عليها والوثوق بها . ولما تبين الدكتور الطويل هذه المزايا ، آثر أن ينقل الرسالة للغة العربية عن نصها اللاتيني وترجماته ، وقدمها سنداً من أسانيد رسالته الأصلية لدرجة الدكتوراه فى الآداب فى جامعة فؤاد الأول . وها هو اليوم ينشر بين قراء العربية أثراً أدبياً فلسفياً من آثار الرجل الذى سبك النثر اللاتيني والأساليب اللاتينية سبكا لازمهما منذ أيامه حتى يومنا الراهن ، وكان أول من استطاع أن يتخذ من ذلك النثر أداة للتعبير عن أدق الأفكار وأشد المعاني غموضاً .

ولما كنت أثناء مناقشة الدكتور الطويل فى رسالته للدكتوراه ، قد خصصت عنايتي بما نقله عن شيشرون ، فقد طلب إلى أنّ أتولى تقديم ترجمته لهذه الرسالة بمقدمة تاريخية ، أتناول فيها مؤلفها « شيشرون » . ويسرني أن أقرر فى استهلالها أن هذه أول رسالة فى الفلسفة القديمة نقلت للغة العربية عن اللاتينية ، وأنها تسجل للجامعيين المصريين عدم تهيب استخدام المراجع الأصلية ، وأن حاملي الإجازات العالية الجامعية لا يقتصرون على المراجع الثانوية ونحوها ، كما تسجل لهم أيضاً الانهماك فى البحث العلمي المجرد عما

يشوبه ، فاذا ما رجعوا لليونان والرومان ، لم يكن ذلك الرجوع لاصطناع حجج وأدوات يتراشق بها المتراشقون فى المجادلات الدينية والسياسية ، بل يرجعون لها طلباً للحقيقة الصافية .

و «توفيق الطويل» فى الطليعة من هؤلاء الجامعيين ، فبعد أن تتلمذ لشيوخ الجامعة الأجلاء فى قسمى الفلسفة واللغة العربية ، تولى تدريس الفلسفة فى جامعة فؤاد ثم فى جامعة فاروق الأول بالاسكندرية ، حيث اتصلت عناصر الحكمة المشرقية بالمذاهب اليونانية ، وتألف منها المذهب الإسكندرانى الذائع الصيت ، ومن يدرى ؟ فلعل مدرستنا الحديثة بالإسكندرية تجدد ما اندرس وتصل ما انقطع ، وقديما قال هوراس: Series Juncturaque Pollet (إن الاستمرار والاتصال هما اللذان يهمان) .

إن صح هذا القول ، ففضل شيشرون فى تاريخ الفكر الأوروبى عظيم ، إذ كان لتدوينه مسائل الفلسفة القديمة وعرضها عرضاً أدبياً رائعاً ، الفضل الأكبر فى تعريفها لمواطنيه أولا ، ثم لرجال العصور الوسطى فى أوروبا الغربية ، ثم لمن أتى بعدهم من أهل الفكر . ولم يكن شيشرون فيلسوفا بالمعنى المصطلح عليه ، ولم يتخذ لنفسه مدرسة ولا تلاميذ ، فهو رجل قانون ورجل سياسة ، حصّل على يد مؤدبيه وبنفسه كل ما استطاع أن يحصل من آداب قومه وآداب اليونان ، ليعد نفسه للاشتغال بالسياسة فى روما حيث تتطلب أنظمة المدينة القضائية والسياسية من السياسيين أن يكونوا خطباء فصحاء ، ومن أصحاب المناصب سعة الاطلاع والإحاطة بشئون الدولة وعلاقاتها بغيرها من الدول ، ومن صفوة المواطنين أن يتجملوا بصفات الحر المثقف المهذب أو — فى كلمة واحدة — صفات الرجل المتحضر ، ابن المدينة بمعناها القديم الصحيح . وكان شيشرون بطبعه رجلا ألوفا ودوداً ، يشرك إخوانه فى أفراحه وأتراحه ، فى تأملاته النفسية ، وفى تعليقاته على حوادث أيامه ، وها هى رسائله لأخصائه

وغيرهم تبلغ المئات عداً ، وتصور لنا الرجل فى نزعته الاجتماعية وفى شتى حالات النفس وتقلبات الأيام أصدق تصوير ، وقد رفعت تلك الرسائل شيشرون إلى أسمى مكان بين أصحاب ذلك الفن فى الآداب الأوربية ـ فن الرسائل . وآثار شيشرون فى الشيخوخة أو فى الصداقة أو فى الواجب أو فى طبيعة الآلهة أو فى الاستدلال على المحجبات أو فى غير ذلك ، تلك الآثار التى كتبها فى الساعات التى اختلسها من مهام حياته العامة ، أو فى الفترات التى شاء القدر أو أراد خصومه أن يقصوه فيها عن تلك الحياة ، كانت نوعا آخر من أنواع الاتصال الفكرى بين شيشرون وصفوة قومه ، فلا ينطبق عليه ما ينطبق على العلماء ومن إليهم من أصحاب المذاهب ، فى نشر مؤلفاتهم فى أيامنا مثلا .

وكان من حظ شيشرون وحظ العالم أن حفظت الأيام ما خلف ، وجعلت من آثاره العنصر الأساسى فى تكوين الثقافة الكلاسيكية التى غذت العقل الأوروبى حتى العصر الحديث . ويخطىء خصوم الدراسات الكلاسيكية عند ما يحكمون عليها بأنها « كلام فى كلام » أو عند ما يصفون شيشرون بالثرثرة المملة . حقا لقد استثقل ظله بعض الشىء ممثل الروح الفرنسى خالد الذكر « مونتانى » فى إحدى مقالاته . وعاب طريقته فى الاسترسال الكاتب الإنجليزى الساخر « لينون ستراشى » فى معرض كلامه مع المترسل الانجليزى الشهير « ماكولاى » قائلا إن شيشرون وماكولاى كلاهما لا يرحم القارىء ، فلا بد له من أن يسمع كل شىء وإن كان يعرفه أتم معرفة . ولكن ما ذنب شيشرون أن وعت الأجيال المتعاقبة من التلاميذ الأوروبيين رسائله وخطبه حفظاً ، وأن قتلوا أجمل عباراته تحليلا وإعرابا وتصريفا ، أو مسخوها ترجمة للغاتهم الوطنية ، أو حاكوها فى مناظراتهم ومساجلاتهم تحت نظر مؤدبين طويلى الأيدى مرهفى الحس سريعى الغضب ؟ وما ذنبه أيضا أن كانت كتبه مادة لا تنضب لشواهد النحويين ، أو كانت خطبه نماذج للمتحذلقين والمتفيهقين

من رجال الكنيسة أو المحاماة ؟ ولكننا نعرف — إلى جانب هؤلاء — مقلدين لشيشرون من طراز آخر ، فعندما دوى صوت الحرية فى أوروبا فى آخر القرن الثامن عشر ، وآذنت شمس الجمهورية الفرنسية بالإشراق ، ذكر أنصارها والمبشرون بها بطل الجمهورية الرومانية فى دور احتضارها ، فها هو ميرابو يهاجم البلاد فى خطبة احتذى فيها خطبة شيشرون الثانية ضد كاتيلين ، وها هو روبسبيير يفند مزاعم لوفيه بأسلوب شيشرون ، وجملة القول أن الثقافة الكلاسيكية — بما فيها آثار شيشرون — مكنت العقل الأوروبى من عدم الاقتصار على الآداب الدينية ، وأكسب تفاعلُ العنصرين الكلاسيكى والدينى وتأثير كل منهما فى الآخر ، ذلك العقلَ غذاء روحيا قويا وإن شئنا أن نبحث عن ظاهرة تشبه هذه فى تاريخ الحضارات غير الأوربية ، فاننا لا نجدها فى الواقع إلا فى حضارة الصين .

* * *

ويجد القارىء فى آثار شيشرون الأدبية — وبخاصة فى رسائله — صورة رائعة للحياة فى روما فى أواخر أيام الجمهورية ، ولا يصعب على من يعنى بدرسها استخراج العوامل فى فساد أنظمة المدينة ، وفى تهيئة أسباب التحول إلى الأمبراطورية ، وهى بعد المرجع الأساسى لدراسة موقف شيشرون بإزاء أحداث ذلك العصر العصيب .

وقد لقى شيشرون — الرجل السياسى — من مؤرخى تلك الحقبة العنت الكثير ، لقى ذلك العنت أولا لأن المؤرخين (ولنقل الحق) لا يحبون الرجال الفاشلين ، وثانيا لأنهم استهوتهم بطولة قيصر وجرأة مساعيه وعظم همته ، وازدراؤه تزمت الدستوريين والقانونيين ، وقطعه العقد بحد السيف بدلا من حلها ، ثم استهواهم بعد قيصر مكر خليفته الحدث أجسطوس وسعة حيلته وبرود طبعه ، وثالثا لأنهم يرون موت الجمهورية أمراً محتوماً ، فرتبوا حوادث الرواية الترتيب الذى ينتهى بها نحو الخاتمة التى بدأ بها تفكيرهم

وانتهى إليها عرضهم . ويتصدر هؤلاء المؤرخين الألمانى الكبير « ممسن » .
ولا عجب فى ذلك ، فقد كتب ممسن فى عصر بسمارك ، عصر الدم والحديد ،
مما دفع أحد المؤرخين الإنجليز إلى القول القاسى : « لو سجل التاريخ لشيشرون
إعداد مذبحة عامة لخصومه السياسيين ، لفاز بإعجاب المدرسة الألمانية
التاريخية » . ومهما يكن فان شيشرون قد قدم لخصومه وأنصاره من دارسى
التاريخ ، المادة التى استخدمها الخصوم فى تعداد مثالبه والغض من شأنه ،
واستعان بها الأنصار فى التماس الأعذار له وإثارة العطف عليه فى محنته ومحنة
الجمهورية . وخير من متابعة أولئك وهؤلاء ، أن يستصحب طالب المتعة العقلية
العليا ، الرسائل نفسها ، وأن يسترشد فى استصحابه لها بالصفحات الانسانية
الرشيقة التى كرسها « بواسييه » « لشيشرون وأصدقائه » . وهى وما إليها من
مؤلفات « بواسييه » من مفاخر المدرسة التاريخية الفرنسية .

كانت الأزمة التى تعانيها روما فى عصر شيشرون ، أزمة قديمة مستعصية
متعددة النواحى . ومنشؤها فى الواقع أن روما — إحدى مدائن شبه جزيرة
إيطاليا — قد بسطت حكمها على غيرها من تلك الدائرة ، ثم قهرت قرطاجنة
قهراً تاماً ، وفتحت لسلطانها ولنفوذها حوض البحر المتوسط الشرقى وحوضه
الغربى ، واتخذ السلطان الرومانى طرق الاستغلال والنهب والغصب ، وكانت
المشكلة فى جوهرها مشكلة تحوير أنظمة المدينة تحويرا يجمع بين صيانة
حقوق أصحاب الولايات الرومانية ، ويقى أهلها جشع العمال والماليين
الرومان ، وبين المحافظة على الحقوق والحريات الرومانية ، ولا سبيل إلى الزعم
بأن ذلك التحوير كان أمرا مستحيلا ، فقديما أثبت الرومان قدرتهم عليه ،
فثبتت أنظمة المدينة تحت عصف النزاع العنيف بين ذوى الأنساب والأخلاط
من أهلها ، ولم تتداع تحت الضغط الهانبالى الكبير ، واجتازت المدينة أزمات
الحروب الايطالية والحرب الاجتماعية بسلام ، وأظهر قادتها فى كل هذه
المواقف حنكة ولباقة واعتدالا وحسن تقدير جديرين بكل اعجاب ، إلا

أن أطماع الرجال وفساد الحالة الاقتصادية بالنسبة للفقراء من الأحرار ، وازدياد قوة رجال المال ، وتدفق العبيد بعد الفتوح الخارجية ، وتحول الجندية من كونها الواجب الأول للمواطن ، إلى حرفة تحتكر ولاء الجندى ورعائبه ، ويجد فيها العيشة الكاملة ، وتصرفه عن واجبات المواطن ، كل هذه العوامل عقدت الأزمة تعقيدا شديدا ، ولكنها ـ فى الواقع ـ لم تنل حقها من عناية السياسيين فى آخر عهد الجمهورية ، فلم تنفصل واضحة فى برامج الزعماء أو الأحزاب ، بل انقسم الزعماء ما بين مؤيدين لخيار الناس أو سراتهم Optimates ، ومشايعين للعامة populares فكان هذا تضليلا وسترا للكفاح الحقيقى بينهم : حول اغتصاب الحكم .

وقد أخلص شيشرون لفكرة الجمهورية كل الاخلاص ، وآلمه أن القدر قدر له أن يعيش فى وسط هذه العواصف ، وتمنى لو عاش فى أيام المجد ، مجد الجمهورية عندما اجتازت عواصف الحروب الفينيقية ، عندما وصف زائر يونانى السناتو الرومانى « بأنه مجلس ملوك » .

ولم يقبل شيشرون القول بأن الأنظمة التى كانت أداة روما فى اكتساب هذا المجد ، قـــد أفلست ، فجاهد للاحتفاظ بهـا وخر صريعـا على يد أعدائه وأعدائها .

ثبت شيشرون على مبدئه ثباتا تاما ، ولكنه كان رجلا سياسيا ، مرت عليه ما تقضى به الضرورات الوقتية من مواقف المداراة أحيانا ، أو اصطناع خدام نافعين للجمهورية من ذوى الأطماع ، كما مرت عليه فترات مما يمر على كل الرجال من فتور العزيمة أو الوهن أو الملل أو خطأ التقدير أو سوء إدراك للموقف ، أو الاندفاع أو الاغترار بأن ما قدمه للجمهورية شفيع دائم يقيه مكائد الأعداء أو أذى أتباعهم بين الدهماء ، فلا بدع أن تردد أحيانا أو ضعف جانبه أحيانا أخرى فتملق القوة ، ولا بدع أن تملكته الخيلاء أحيانا ، ولا بدع أن طوحت به الفصاحة وذلاقة اللسان وسيولة

القلم أحيانا إلى مهاوى الفشل ـ وأخيرا ـ إلى الهلاك .

نشأ شيشرون فى مدينة إيطالية صغيرة (أربينوم) ، ولم يكن من ذوى الأنساب ، بل شق طريقة نحو ـ القنصلية ـ أعلى مناصب الدولة (وكلها انتخابية) بفضل مواهبه عامة ، وقدرته الخطابية الرائعة خاصة ، فكان أبدا — على حد التعبير اللاتينى — من الرجال الجدد أو المحدثين — وقدر له أن ينقذ الدستور والمجتمع الرومانى عندما أفسد على « كاتيلين » وجماعته مادبروه من دسيسة لقلب الدستور والقيام بحركة نهب عامة ، وكانت خطته لكى يحتفظ بالدستور الجمهورى أن يخلق له سياجا من تحالف الأرستقراطية المحتضنة فى السناتو ، وطائفة الفرسان الرومان أصحاب المال ، إلا أن الأرستقراطية لم تنس أبداً أنه لم يكن منها ، فلم تسلم له قيادها ، ولم يستطع هو أن يجتذب لإنقاذ الجمهورية قائدا من قواد الجند ، يضع تحت قدميها مخلصا مجد اسمه وولاء جنوده ، على الرغم مما علل به النفس أحياناً نحو « بومبيوس » أو نحو قيصر أو نحو أجسطوس ، فكان القدر أقوى منه .

إلا أنه على الرغم من هذا ، كان شيشرون أول رجل وصل إلى أكبر مناصب الدولة الحرة ، دون أن يكون رجل نسب أو صاحب سيف أو منشىء دعوة ، فهو أول أولئك السياسيين من أصحاب العقول والمواهب الكتابية والخطابية الذين ازدانت بهم الحياة السياسية الأوروبية ، وعرفهم التاريخ قادة ورؤساء ووزراء ، فلئن كان شيشرون قد خر فى الكفاح ضد القيصرية ، فقد أسس أسرة من قادة الأمم أبقى على الدهر من القياصرة ، ولئن فاته إنقاذ الجمهورية الرومانية ، فقد كان من بناة جمهورية الفكر الإنسانى .

***

وليست جمهورية الفكر إلا جانبا من فكرة وحدة العالم ، التى تصورها شيشرون فيما كتبه فى موضوعات الفلسفة السياسية ، وقد أقامها على أساس ارتباط بنى الإنسان جميعا برابطة العقل ، وتخيل لها قانونا يعلو القوانين الوضعية ، إذ هو لا يرتبط بزمان ما ، أو بمكان ما ، أو بشعب بعينه .

وشيشرون واحدمن أربعة رجال أفاضوا القول فى تلك الوحدة الكبرى : والثلاثة الآخرون هم سنكا وإبيكتوتوس وماركوس أوريليوس . أما هو فقد عاش فى عصر تم فيه الجزء الأكبر من اتساع السلطان الرومانى حول البحر المتوسط ، فكان كأن روما قد حققت فعلا للمجتمع اليونانى (بمعناه الشامل) دولته العامة ، وكان كأن روما قد رسمت صورة ينعكس فيها لون من الوحدة الكبرى المثالية ، وهى صورة بشرية معيبة لما هو إلهى كامل ، ولكنها قابلة للكمال، قابلة لأن تتأثر أنظمتها القانونية وأوضاعها القضائية بالقانون الأسمى ، بالقانون الطبيعى . وأما سنكا وماركوس أوريليوس . فكان من نصيبهما تولى الحكم (وكان ثانيهما امبراطورا) واستمد كلاهما من فكرة الوحدة الكبرى الثورة والمدد لتحمل أعباء الحياة العامة ونكباتها القاسية ، وكان من جرائها — كما نعلم — أن فقد سنكا حياته وماركوس سعادته . أما الثالث — أبيكتوتوس — العبد الأعرج ، فيمثل إيمانه بالوحدة ، قوة الفكرة التى دعا إليها امبراطور ورجلان فى طليعة الحكام .

وبعد فان تلك الدعوة تفيد الابتعاد عن فلسفة المدينة اليونانية ، عن أفلاطون وأرسطو . ولقد أعجب شيشرون بأفلاطون اعجابا كبيرا ، بل اعتبر نفسه متمذهبا بمذهب الأكاديمية الجديدة ، بل وحاكى فى كتبه أسماء الكتب التى خلفها أفلاطون ، ولكن الواقع أن الفلسفة اليونانية التى استقبلتها روما فى العصر السابق لعصر شيشرون مباشرة ، كانت شيئا آخر غير فلسفة أفلاطون أو أرسطو ، بل تتلمذ الرومان للرواقيين وللأبيقوريين .

ولا عجب فى ذلك فان « المدينة » — بيئة الأفلاطونية أو الأرسطاطالية الطبيعية — قد اكتسحتها الفتوح الاسكندرية . وقامت الملكيات المطلقة عند ما تجزأت دولة الاسكندر ، وبدأ عصر امتزاج الشعوب والثقافات ، فكان من المعقول أن تدخل الفلسفة اليونانية فى طور آخر أكثر ملاءمة لظروف المجتمع اليونانى الجديدة ، وهنا ينبغى علينا أن نلحظ أمراً جديراً بالاعتبار ، مؤداه أن شيشرون فى عمله السياسى بقى محافظا رومانيا قليل

التأثر بالنزعات الجديدة ، على عكس قيصر وأنطونيوس وأجسطوس ، فالأول — فيما يذهب إليه بعض من ترجموا له — كان يرمى إلى إقامة نوع جديد من أنظمة الحكم ، يجمع بين عناصر مستمدة من أنظمة الملكيات الشرقية اليونانية (وبخاصة المصرية البطليموسية) ومن أنظمة الجمهورية الرومانية . أما الآخران فقد رمى أكتافيوس فيما يقال إلى تحقيق العناصر الشرقية من الهدف القيصرى ، بينما رمى أجسطوس إلى تحقيق العناصر الرومانية من ذلك الهدف ، وقدر له أن ينال ما رمى إليه ، فحول الجمهورية الرومانية إلى « الإمارة الرومانية » (principatus) . أما شيشرون فقد بقى — فيما يتعلق بالعمل السياسى وبالفكرة السياسية الايجابية — داخل إطار الجمهورية والمدينة كما قدمنا — وعالج أمر الدساتير والأنظمة من حيث تقسيمها وبيان عيوب ومزايا كل نوع من أنواعها ، طبقا للأساليب اليونانية القديمة .

ولم يكتب شيشرون فى موضوع الفلسفة السياسية فحسب ، بل عالج موضوعات الأخلاق والمنطق والإلهيات فى رسائل شتى ، ويحق لنا أن نعجب من أن رجلا سياسياً كشيشرون ، مارس المحاماة وولى أخطر شئون الدولة فى أوقات عصيبة ، استطاع أن يجد الفراغ اللازم لهذه المؤلفات العديدة ، والظاهر أن بعض أخصائه قد سبقونا إلى هذا التعجب ، وقد رد على أحدهم بقوله : « لا تعجب فهذه الكتب لا تكلفنى عناء كبيراً ، لأن قلبى سيال » .

وقد وثب منتقصوه لهذا القول ، وعدوه اعترافا منه « بالسطحية » التى لا تكلف المرء مشقة ، والواقع أن شيشرون لم يرم إلى التجديد أو الابتكار (وقد قال بواسييه إنه لم ينتحل لنفسه أبداً صفة الابتكار ، وأن هذا ربما كان الفضل الوحيد الذى لم يدعه شيشرون لنفسه) . بل كان همه أن ينقل لقومه بلغتهم وما يناسب تفكيرهم ، آراء الفلاسفة ومذاهبهم وما يقال لها أو عليها ، وهو إذ يفعل ذلك ، لا يحاول أن يبنى مذهباً كاملا متماسك الأجزاء ، بل يقترب من هذا المذهب أو ذاك تبعاً لمزاجه الرومانى الأصيل ، ولانهما كه

التام فى مواجهة شئون الحياة العملية . وهذه مباحثه فى الأخلاق تدور فى دائرة الفضائل الأربع الأصلية المشهورة ، وتحس أثناء قراءتها أن الكاتب ينتمى لرجال الحكم ، وأنه يتحدث لرجال الحكم ، لأصحاب المناصب ، لرؤساء الجند ، لذوى اليسار ، وبالجملة « لكل من له نصيب فى المملكة » كما يقول الإنجليز . وإن شئنا أن نسمع صوتا آخر ، وقولا آخر ، يخرج من الأعماق ويصل للأعماق ، فلا بد لنا من أن ننتقل من روما إلى فلسطين وأن ننتظر زماناً آخر وهاتفا غير شيشرون ، ومستمعين من الفقراء والمحرومين ، وعندئذ نسمع صوت السيد المسيح يتحدث من أعلى الجبـل إلى « الجموع الكثيرة التى تبعته من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن » .

* * *

ولما عالج شيشرون موضوع الاستدلال على المحجبات فى الرسالة التى بين يدى القارىء ، نظر إليه أيضا نظرة الصفوة الحاكمة ، حقيقة إنه يعطى الموضوع حقه فيقرر حجج المؤمنين بإمكان الاستدلال ، وحجج غير المصدقين لها ، ويورد الآثار الأدبية والتاريخية إيراداً حسنا . ولكنك تحس فى ثنايا القراءة أنك بإزاء رومانى أصيل ، يرى أن آباءه وأجداده كانو من المؤمنين بتحكم القوى الخفية ، وأنهم كانوا لا يقدمون على عمل خاص أو عام إلا بعد استطلاع المغيب ، وأن الدولة اتخذت من هذا نظاما من أنظمتها ، وأقامت هيئة المستخيرين وجعلت لاستخاراتهم سلطانا على مداولات مجالسها وغزواتها وانتخاباتها .

وقصارى القول أن شيشرون كان رجلا إنسانيا فى صفته وقوته ، وخير ما نختتم به هذه الكلمة أن نقتبس ما قاله عنه مؤرخ « إنسانى » ، هو الإيطالى فريرو :

« كان شيشرون أحد القلائل الذين لم تستهوهم شهوة الحكم أو المال ، وإن كان ممن يحبون ثناء الناس عليهم ، ويكاد يكون بين رجال السياسة فى عصره

الوحيد المخيف فى التميز بين ما هو خير وما هو شر ، قد لم يمنعه ذلك التمييز من الإتيان ببعض السفاسف ، ولكن منعه بلا ريب عن ارتكاب الجرائم ، كما كان الوحيد فى القيام بشئون السياسة طبقا لمنهج صدر عن روية وفكر ، ورغبة صادقة فى الجمع بين تقاليد الآباء وفنون اليونان ، وعمل دائم لينشر بين مواطنيه روح الإنصاف واللين » . وليقيم الأمر على دعائم من مثل ما انطوت عليه جوانحه من الرحمة والمودة . »

الكتاب الأول

ويتضمن أدلة كونتوس **Quintus**

فى تأييد التكهن بالغيب

قدم الاعتقاد في التنبؤ

١ — انحدر إلينا منذ عصر الأساطير اعتقاد قديم، مكن له اتفاق الرومان على التسليم به، وإيمان سائر الشعوب بأمره، ذلك هو الاعتقاد الذي يقرر نوعاً من التكهن بالغيب بين بني البشر، وهو الذي يسميه الإغريق سبق النظر — في مجال الغيب — ومعرفة ما يخفيه المستقبل من أحداث. ولو أن هذه الملكة قد تهيأت لبني الإنسان، لدرت عليهم خيراً، وكانت أمراً جللا، إنها تخلع على الناس قدرة تدنيهم من قدرة الآلهة دنواً ملحوظاً، وكما أننا معاشر الرومان قد تفوقنا على الإغريق في كثير من الأعمال، فإننا قد تفوقنا عليهم في وضع اسم لهذه الهبة التي تجاوزت كل حد مألوف، واشتققنا الاسم من معنى الآلهة divi بينما اشتق الأغريق اسمها — فيما يقول أفلاطون — من الجِنة أو المس furor [1].

وإني لأعلم أن ليس بين الأمم — المهذب والمتعلم منها، أو الهمجي والجاهل فيها — من لا يرى بأن هناك شواهد تنبيء عن حوادث المستقبل، وأن بين الناس من يستطيع معرفة هذه الشواهد والتنبؤ بالحوادث قبل وقوعها.

شيوع التنبؤ في العالم القديم :

فإذا التمسنا شاهداً — على ما أسلفنا — في الماضي السحيق، وجدناه في الآشوريين، فقد مكنتهم سعة السهول التي أقاموا في رحابها، ومنظر السموات التي تمتد مكشوفة على مدى البصر في كل صوب، من أن يلاحظوا

---

(١) يشير المؤلف إلى فقرة في محاورة فيدروس Phaedrus لأفلاطون، وفيها يدافع سقراط عن حالة المس أو الجنة أو الجذب، وهذه حال يتكشف عنها أو يمكن أن يتكشف عنها وحي الآلهة، ويلفت المؤلف نظرنا — بهذه المناسبة — إلى أن القدماء لم يعتبروا الجنة شيئاً قبيحاً، ولم يطلقوا اللفظ الذي يشير إليها على معنى سيء، من حيث إن الكلمة تطلق على فن التكهن — خير الفنون جميعا — (جارنييه) .

مسالك الكواكب ، وأن يرقبوا حركاتها ، فسجلوا ما أدته إليهم مشاهداتهم ، وورّثوا الأجيال التي أعقبتهم ، ما تحمله حركات الكواكب من دلالات على حظوظ الناس .

ومن أبناء هذا الشعب نفسه عرف الكلدانيون : Chaldaei ، وهو اسم لم يشتقوه من حرفتهم ، وإنما استعاروه من جنسهم[١] ، والمظنون أنهم واصلوا ملاحظة المجموعة النجمية زمانا طويلا ، واستغلوا هذه المشاهدات فى إقامة علم يمكنهم من التنبؤ بحظوظ الناس ، ومعرفة المصير الذى قدر لهم .

والمعتقد أن المصريين قد اكتسبوا بدورهم هذا الفن نفسه عن أجدادهم ، خلال ماض سحيق يمتد إلى أجيال لا يكاد يحصيها العد .

ثم أن الكيليكيين والبيسيديين وجيرانهم البامفليين[٢] — وهم سكان بلاد توليت حكمها فيما سلف — يعتقدون أن المستقبل تكشف عنه أغاريد الطيور وتحليقها فى الجو ، ويثقون فى هذه الشواهد ثقة لا يتطرق إليها الشك أبداً .

وفى الحق أية هجرة قام بها الإغريق إلى ايتوليا ، أو إيونيا أو آسيا أو صقلية أو إيطاليا ، قبل أن يستشيروا الكاهنة « بيثيا » أو يتلقوا الوحى من « دودونا » ، أو « جوبتر أمون » ؟[٣] أو أية حرب خاض الإغريق غمارها قبل أن يلتمسوا نصيحة الآلهة أولا » ؟

---

(١) أشار مترجم .Loeb إلى أن Chaldaei اللاتينية كانت تستعمل فى عصر شيشرون للدلالة على المنجمين — وقد كانوا الطبقة الحاكمة بين البابليين — ولهذا اضطر شيشرون إلى أن ينص على أن اسم الكلدانيين مشتق من اسم الجنس الذى انحدروا منه ، .ولكن Desmarais يقول فى تعليقه على ترجمته للفقرة إنه اشتق من اسم الاقليم الذى نشأوا فيه : Chaldée لا من اسم حرفتهم — التنجيم .

(٢) سكان ثلاثة أقاليم فى آسيا (دبماريه) .

(٣) ان وحى دلفى ودودونا وآمون أشهر أنواع الوحى عند القدماء ، وقد تسامع الناس جميعا بوحى بيثيا وشجرة دودونا المتنبئة ، وبالتمثال المقام الآن لآمون — رع فى واحات سيوه ، وتقوم بين هذا الوحى الأخير ووحى دودونا علاقة — فيما تقول الأساطير التى يرويها هيرودوت (ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥) ، ولا يخلو من المغزى نقش الطيور فى أعلى المعابد =

أساليب الرومان فى التنبؤ بالغيب (صنعية وطبيعية) :

٢ — وليس ضربا واحدا من التكهن بالغيب هو الذى استخدمه الناس فى شئونهم العامة والخاصة ، وإذا نحن أغفلنا الحديث عن غيرنا من الشعوب ، فكم نرى من أساليب استخدمناها نحن معاشر الرومان » : فنحن نعلم — قبل كل شىء — أن روميلوس : Romulus مؤسس هذه المدينة — روما — لم ينشئها — فيما هو متواتر — استجابة لفأل (عرفه من مراقبة طير سانح) فحسب[1] بل لقد كان روميلوس نفسه من الممتازين من أهل العيافة[2]. وقد

= فى مصر العليا عند قدماء المصريين ، وينتهى هيرودوت — بالحق أو بالباطل — الى القول بأن هذه النقوش تمكن من ارجاع فن التكهن اليونانى الى أصل مصرى ، ولكن هناك علماء يردون عبارة آمون الى أصل أغريقى (ونحن نعلم أن مستعمرات يونانية كانت تقوم فى لوبيا) ومع افتراض أنهم على حق فى ذلك ، فانه يلوح لنا أن عبادة الإله المصرى قد استبدلت بعد ذلك بعبارة زيوس أو اختلطت بها (جارنييه) .

(١ و ٢) يراد باللفظ auspices هنا الفأل الذى يؤخذ من مراقبة طير يطير ، وقد كان العرب اذا هموا بأمر طيروا طائراً ، فان طار يمنة سموه سانحا وأقبلوا على تحقيق أمرهم ، وان طار يسرة سموه بارحا وعدلوا عن مشروعهم (انظر فن العيافة فى كتابنا : التنبؤ بالغيب عند مفكرى العرب) ، أما اللفظ : augur فقد استخدمه الرومان للدلالة على الراجم بالغيب عند جماعة اشتهرت فى روما القديمة بالكشف عن الغيب بملاحظة الطيور فى طيرانها أو تغريدها وصياحها ، وقد كان العرب يسمون هذا الضرب من التكهن بفن العيافة ويطلق فى حالى التفاؤل والتشاؤم معا (التهانوى ص ٩٠٧) . وقد قرر Servius فى التقريب بين اللفظين auguria و auspicia أن الأول كان يستخدم أول الأمر عندما يجىء المشاهد (الطائر) عفواً دون مشاهدة متعمدة ، أما اللفظ الثانى فانه كان يستخدم فيما تجرى فيه المشاهدة عمداً . ولكن : C.H.Appuhn — فى تعليقاته فى طبعة جارنييه — يقول ان اللفظين قد استخدما أخيراً للدلالة على معنى واحد فى كل الحالات — وقد أخذنا بهذا الرأى فى ترجمة الكتاب — ولكن H.J Rose فى المقدمة التى كتبها لمقال التكهن بالغيب فى دائرة معارف الدين والأخلاق. Eucy. of Religion & Ethics (لناشرها : Hastings) يقول إن لفظ Haruspicy لا يستخدم للطيور الحية وحدها ، بل فى استنباء المذبوحة والميتة منها كذلك ومعنى هذا أنها تشمل بعض ما نسميه بالنظر فى أحشاء الضحايا ، ويشير ديعاريه فى ترجمته الفرنسية لكتاب شيشرون الى أن الكلمة اللاتينية haruspicis و haruspices تتألف من كلمة قديمة بمعنى ضحية ومن الفعل spicio بمعنى يتفرس أو يفحص وبذلك يكون معنى الكلمة الأصلية التى وردت فى النص : متفرس أو باحث فى الضحايا ، والمراد فيما يقول =

استخدم غيره من ملوك الرومان هؤلاء العيافين . وبعد طرد الملوك كانت الشئون العامة كذلك — ما اتصل منها بداخل البلاد أو خارجها — لا تتم قبل استشارة هذا الفأل السالف الذكر .

وفوق هذا فان أسلافنا منذ أن اعتقدوا بأن فن العرافة(١) عظيم النفع فى الكشف عن الفأل والطيرة ومعرفة المشورة (التى توحى بها الآلهة) ، ومنذ أن تبينوا أثره البالغ فى معرفة الدلالة التى تحملها الخوارق ، وتفادى ما تنذر به من شر ، قد استعاروا بالتدريج هذا الفن بحذافيره من أهل أتروريا ، مخافة أن يبدوا أنهم كانوا يستخفون بأى ضرب من ضروب التكهن بالغيب . وقد ظن أجدادنا بأن العقل البشرى عند ما يكون فى حالة يغيب فيها

= مترجم لويب : فحص أحشاء الحيوانات — وقد كانت هذه إحدى طرق التكهن عند القدماء ، ولكن المترجم الانجليزى قد ترجم اللفظ الى : Soothsayings' art. أى فن العرافة ولعل الترجمة — اذا قورنت بمعنى الكلمة فى هذا الكتاب كانت أعم من الأصل ، لأن العرافة تشمل التكهن الصنعى بمختلف صوره ، ولا تقتصر على فحص الأحشاء أو ملاحظة الطيور . والذى يتتبع هذه اللفظة فى كتاب شيشرون يرى من الملائم قصرها على الطيور ، كذلك الحال فى لفظ auguria وبذلك يمكن تقريب معناهما فى الترجمة العربية ، وهذا ما فعلناه عند نقلهما الى العربية فى كتابنا ، وبذلك نكون قد أخذنا برأى مترجم جارنييه السالف الذكر ، وذلك لاينفى القول بأن الكلمة قد أطلقت على معان أوسع من هذا بكثير ، فشملت — فيما تقول دائرة المعارف البريطانيــة (مادة Augur) شواهد السماء من رعد وبرق ونجوم ساقطة ونحو ذلك ، وشواهد الطيور فى غنائها وصياحها وجهة طيرانها وتساقط الحبوب من أفواه الطيور وهى تطعم وشواهد الحيوانات بمراقبة مسير ذوات الأربع والزواحف وملاحظة أصواتها فى مكان بعينه ، والنذر الزاجرة من صرير الفأر أو ضجيج يحدثه سقوط عصا فى معبد يسوده السكون ونحو ذلك من ظواهر غير مألوفة . وتشمل كذلك نبوءات وحى أبولو وفحص أحشاء الحيوانات وغير هذا مما نصت عليه دائرة المعارف البريطانية ، ولكن الكلمة كانت تطلق فى كتابنا على استنباء الطيور ، ولم ترد بمعنى استنباء البرق الا مرة واحدة ، وهذا هو الذى جعلنا نترجمها بفن العيافة الذى كان العرب يقصرونه على استنباء الطيور بمراقبة تغريدها وصياحها وتحليقها فى الجو .

(١) أشار مترجم لويب فى هامش له إلى أن : Haruspex — وقد ترجمتها بفن العيافة كما أشرت فى الهامش السابق — تعنى التنبؤ بالنظر فى فحص الأحشاء ، مع أن سياق الحديث فى النص يجعل المعنى أعم من هذه الاشارة .

الوعى ، ويخمد فيها الفكر ، ويتحرك بدوافع من ذاته حرة لا يعوقها عائق (إرادى) ، فان هذا العقل يصبح مهبطاً للألهام باحدى طريقتين : الجنة أو الرؤيا . وقد ظنوا بأن التكهن الذى يكون فى الحال الأولى قد تضمنته على وجه الخصوص أشعار سيبايل Sibyle[١] . لهذا كله سنوا تشريعاً يقضى بأن يختار عشرة من رجال الدولة[٢] ليتولوا تأويل هذه الأشعار .

ويدخل فى هذا الباب تأويل ما وقع لعرافين ورائين فى حالات مسهم من نبوءات — كثيراً ما كان أسلافنا يعتبرونها موضع ثقة وتقدير ، من أمثلة هذا نبوءات كورنليوس كوليلوس Cornelius Culleolus التى ظهرت إبان الحرب الأكتافية[٣] ، وليس هذا فحسب ، بل إن مجلسنا الأعلى لم يهمل من الأحلام ما بدا على اتصال بادارة الشئون العامة، ومن ذلك — فيما يحضرنى — أن لوكيوس يوليوس L. Julius الذى كان قنصلا مع بوبليوس روتليوس P. Rutilius قد جدد بناء معبد المخلصة جونو[٤] بقرار من مجلس الشيوخ

(١) هى كما تقول الأساطير القديمة إحدى النساء اللائى أوتين القدرة على التنبوء بالغيب ، ويقول ديماريه فى تعليقاته أن شيشرون عندما يعرض لذكرها يقصد على الدوام سيبايل أريتريا — وهذه مدينة فى أيونيا الصغرى — وربما فهمنا من الهامش خطأ هذا الرأى .

(٢) إن التاريخ الأسطورى لكتب سبيل التى اشتراها : Tarquin L'Aucieu من عجوز شمطاء ، لا يخفى على أحد ، والمعروف أنه بعد إحراق الكابيتول الذى كانت هذه الكتب محفوظة به ، قد جددت مجموعة منه عن طريق الاتصال بالكاهنات الشهيرات — ولا سيما كاهنة أريتريا ، وقد كان مؤولو كتب هذه الكاهنة أول الأمر اثنين ليس إلا ، وكان العامة قد استبعدوا من مختلف الوظائف الدينية حتى سنة ٣٦٤ ق . م . فبدأوا يقومون بتأويل كتب سبيل ، وفى هذا العام أنشئت كلية من عشرة أعضاء منهم خمسة من العامة ، وخمسة من الخاصة ، ثم ارتفع عدد الأعضاء فى عهد سلا Sulla إلى خمسة عشر عضواً (جارنييه).

(٣) وقعت هذه الحرب عام ٨٨ ق . م بين أكتافيوس من ناحية وماريو وسلا من ناحية أخرى (لويب) .

(٤) هى كبرى بنات ساتيرن Saturne وريا Rhéa وهى أخت جوبتر وزوجته ولدت فى أجروس أو فى جزيرة ساموس ، انظر شرح أسطورتها فى Dezobry et Bachelet ، وهى تعادل Hera اليونانية التى تعتبر حارسة الزواج وحامية المرأة من مهدها إلى لحدها — أما تجديد بناء المعبد ، فقد كان — فيما يشير مترجم لويب — سنة ١٠٥ ق . م . عندما كان شيشرون فى الأولى من عمره .

صدر استجابة لرؤيا وقعت لابنة بلايريكوس Balaericus (١) وهى كيكيليا Caecilia .

موقف الفلاسفة من التكهن :

٣ — والرأى عندى أن القدماء كانوا أكثر تأثراً بالنتائج العملية منهم بالاقتناع المنطق(٢) بيد أن الفلاسفة قد قدموا أدلة [لبقة] دقيقة على صدق التنبؤ بالغيب ، وكان أكسانوفان Xenophanes — من أهل كولوفون — (وهو أعرقهم فى القدم فى هذا المجال) ، الوحيد الذى أنكر — مع تسليمه بوجود الآلهة — التكهن بحذافيره(٣) .

أما سائر الفلاسفة — مع استثناء أبيقور Epicurus الذى كان يثرثر فى حديثه عن طبيعة الآلهة — فقد سلموا بالتكهن بالغيب ، وإن تفاوت تسليمهم قوة وضعفاً ، وإنا لنذكر على سبيل المثال سقراط Socrates وأتباعه(٤) ،

---

(١) كان كايكليوس متلوس بلايريكوس قنصلا عام ١٢٣ ق . م . (لويب) .

(٢) كان شيشرون يستصوب حرفة الكهانة ولا سيما فن العيافة ، لأسباب سياسية ، لا لأنه كان يثق فى قيمتها التنبؤية (قارن الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الثانى من هذا الكتاب فى نسخته العربية — (لويب) .

(٣) تجد شاهداً يتفق مع هذا فى : De placitis philosophorum V,I. لمؤلفه بلوتارك ، وقد كان اكسانوفان خصيم مذهب الشرك ومؤسس المدرسة الأيلية ينكر التكهن بالغيب ، وتجد شاهداً آخر على هذا فى ديوجانس اللايرتى : Diogène Laerce, X, 135. (جارنييه) .

(٤) كان سقراط فيلسوفا عميق الشعور الدينى ، وكان كثيراً ما يعتقد بأنه يعمل أو يتكلم تحت تأثير إلهام إلهى ، وكان على يقين من أن إلها خيراً يعين الناس حين يكونوا فى شك من أمر المستقبل ، إنهم لا يستطيعون اذا استعانوا بعقولهم وحدها أن يعرفوا على وجه الدقة الاتجاه أو التصرف الذى يحسن التزامه ، انه يؤنب الذين يعملون بغير ما تنذر به الآلهة ، ويحض أصدقاءه على استشارة الوحى ، ولا سيما وحى ، دلفى ومن هذا نرى أنه كان يتشيع للتكهن ، أو يرى بتعبير أدق ، أن من واجب المرء أن يستشير الآلهة فى الحالات الجدية الخطيرة ، أما فى الأمور التى يستطيع المرء أن يحكم عليها حكما مسببا قائما على العلل التى تبرره ، فان سقراط يرى أن استشارة الوحى فى مثل هذه الحالات أمر يخالف العقل .

= ونلاحظ أن أنتستانس (زعيم المدرسة الكلبية) وأرسطبوس (زعيم المدرسة القورنيائية) واقليدس (زعيم المدرسة الميغارية) لا يعتنقون عقائد أستاذهم (سقراط) الدينية ، ولا يرون رأيه فى الايمان بالتكهن بالغيب ، وقد كانت المدارس التى أنشأوها لا دينية ، فأما الكلبيون فنلاحظ أن ديوجانس الكلبي عبر موقفه فى وضوح ، فيقول إنه يرى معبرى الأحلام ، والكهان الذين وصل بعضهم الى المجد والثراء ، ويرى السذج الذين ينصتون اليهم ، فيضيق بهم جميعا ، ويعتقد أن الانسان أجهل مخلوق فى الوجود (.Diog Laerce, VI, 2,24) . هذا عن الكلبيين Les Cyniques أما القورنيائيون Les Cyrénaïques فان مبدأهم يقضى بالافادة من الحالة الراهنة بمختلف الأساليب ، لأن الخير الأعظم عندهم هو اللذة ، ولهذا فانهم لا يستطيعون الا أن يكونوا قساة فى حكمهم على قلق النفس التى تلتمس السعادة عن طريق التكهن بالغيب .

أما عن الميغاريين Les Mégariqus فان لدينا شاهداً كافيا فى معرفة رأيهم فى الآلهة ، فان كراتيس Cratis يستفسر من ستلبون Stilpon تلميذ اقليدس عما اذا كانت الصلوات وطقوس العبادة مقبولة عند الآلهة ، فيجيب ستلبون قائلا : لا تسلنى على مسمع من الناس عن مثل هذه الأشياء ، ولكن وجه الى سؤالك عندما نكون على انفراد (Diog. Laerce 11,11,117)

ويختلف عن هذا كل الاختلاف موقف أفلاطون ، فانه وحده الذى تصدق فيه كلمة شيشرون عن السقراطيين ، اذ يرى (فيما نرى فى محاورة فيدروس) أن فن التكهن أجمل الفنون جميعها ، وكثيرة هى الفقرات التى تقرر معتقدات أفلاطون فى التكهن بالغيب ، ومن الممكن اعتبار هذه المعتقدات مقابلة للحكمة عند غير الفلاسفة ، وهذا هو السر فى أنه لا يتعرض لها مشرع عاقل ، وقد كان من رأيه أن القوانين الجليلة المقررة لا ينبغى الإقدام على تغييرها ، فان كان من الضرورى اجراء تغيير فيها ، وجب ألا يقدم المشرع على هذا إلا بعد أن يستشير جميع الحكام وكافة أفراد الشعب ، وكل أنواع الوحى ، حتى اذا وافقوا على التغيير جميعاً جاز الاقدام عليه . (النواميس فى الكتاب السادس ص ٧٧٢ ج د) .

وقد ظفر التكهن بالغيب بمكان مرموق فى الدولة ، وقد عرض لبيان هذا أفلاطون فى النواميس والجمهورية والمائدة وطيماوس التى يعرض فيها نظرية التكهن عن طريق الإلهام الالهى مستخدماً لغة الصوفية فى اشتراط هدوء النفس التام ، وتعطل الفكر بالنوم وصقله بالمرض أو بحالة الجذب التى تعترى الانسان .

أما عن أرسطو فان بلوتارك يقول ان أرسطو يعتبر التكهن الذى يقوم على مشاهدة الشواهد الظاهرة وفن العيافة وملاحظة الطيور ، كلها غير خليقة باهتمام الفلاسفة . ان فلسفة ارسطو تستبعد بوجه عام كل ما فوق الطبيعة ، وان كان يرى أن من الممكن أن نصل بشأن المستقبل الى تخمينات ، وأن نبنى آمالا ، ومن هنا كان فى الإمكان قيام علم للأمل الممكن ، وهو يريد أن يستبدل بالتكهن نوعا من التنبؤ المعلل الذى يقوم على أسباب ويستند الى الاستقراء وحساب الاحتمالات ، اما عن التنبؤ فى الأحلام فقد وضع عنه بحثا قال فيه إنه لا يسهل علينا احتقار هذا النوع من التنبؤ ولا الاعتقاد فى صحته (جارنيه وانظر تفصيل رأيه فى كتابنا الأحلام)

وزينو Zêno وأشياعه[١]، فقد واصلوا الاعتقاد فى رأى الفلاسفة القدامى، واتفقوا فى الرأى مع الأكاديمية القديمة والمشائين معاً، [وسلفهم] فيثاغورس Phythagoras [٢] الذى كان يميل إلى أن يعرف بين الناس بأنه من أهل العيافة، قد خلع اسمه العظيم على هذه الحرفة من قبل. وأكد [المؤلف] « ديموقريطس » Democritus فى أكثر من موضع، عقيدته فى الهجس بأمور تقع فيما بعد[٣] أما دكياركوس Dicaearchus[٤] أحد المشائين، فانه رغم تسليمه بالتنبؤ بالغيب عن طريق الأحلام والمس، قد رفض التسليم بسائر أنواع التكهن الأخرى، وقد حذا حذوه فى ذلك صديق [الحميم] كراتيبوس Cratippus[٥] الذى أضعه مع أعظم المشائين فى صف واحد، فأعلن ثقته

(١) من الغريب أن يذكر شيشرون هنا [زينو وأشياعه] ثم يعود بعد قليل إلى الحديث عن الرواقية. ولا يلوح من خلال الحديث أنه يقصد هنا زينو الأيلى (جارنييه).

(٢) يقول بلوتارك (Plac Phiios V, 1) إنه سلم بكل أساليب التكهن، إلا ما يشترط فيه أولا أن يكون تضحية ذبيحة، وتجد نفس هذا الشاهد فى ديوچانس اللايرتى وسويداس: Suidas وجامبليك: Jamblique (جارنييه).

(٣) إن موقف ديمقرطيس، إزاء التكهن يدل على إسرافه فى الاهتمام بالصفة الآليـة (الميكانيكية) فى مذهبه، فليس ثمة شيء إلا الجوهر الفرد والخلاء، وكل ما هو موجود، وكل ما يقع، ينبغى أن يفسر باتصال الجواهر الفردة، وهذه الذرات لا تخضع لغير القوانين الآلية، وقد كان يرى وجود كائنات أعلى من الإنسان وأوفر منه حظا فى القدرة، وأطول منه أجلا، تتألف من جواهر فردة، إلا أنها جواهر لطيفة جداً، تتحرك فى الفضاء بسرعة خارقة، كانت تسمى فى بعض الأحايين بالجن، سواء أكانت خيرة أم شريرة، وكانت تلقى صوراً تراها أعين الناس، وأصواتا تصل إلى آذانهم، وبهذا يمكن تكشف المستقبل.
وإذا كانت حواسنا إبان النوم منصرفة عن إدراك الأشياء المحيطة بهـا، فان الأحلام تحمل أنباء المستقبل، وفى بعض الحالات يمكن لبعض الناس الذين يعتريهم الجذب أن تتهيأ لهم رؤى أو أصوات تفد عن كائنات أكمل منها تكوينا، وان كانت هذه الصور التى تبعث بها الجن، قد يشوهها تقلب الهواء وسقوط الأوراق مما يجعل النبوءات فى فصل الخريف كثيرة الأخطاء ... (جارنييه).

(٤) كان من مسينا، وقد سلم فيما يقول بلوتارك بآراء أستاذه (أرسطو) نفسها — (ديماريه وجارنيه).

(٥) كان يعلم ابن شيشرون الفلسفة فى أثينا، وقد كتب بحثا عن « التنبؤ بالغيب » ووضع بحثا آخر عن تأويل الأحلام. ورأيه الذى اتفق فيه مع دكياركوس يتفق مع رأى جمهرة مفكرى الاسلام (انظر كتابنا: التنبؤ بالغيب)

بهذين الضربين من التكهن ، ثم رفض التسليم بما عداهما .

أما الرواقيون فقد تولوا الدفاع عن كافة ضروب التكهن بالغيب على وجه التقريب ، وذلك أن « زينو » قد وضع بكتاباته نواة تعهدها « كليانتس » Cleanthes بعض الشيء ، ثم ظهر بعده « كريسبوس » Chrysippus [1] — وهو رجل يمتاز بالعقل النفاذ — فبحث نظرية التكهن بأكملها بحثاً وافياً في كتابين من كتبه ، ووضع كتابا تناول فيه النبوءات — التي يتلقاها الكهنة عن الآلهة — وخصص كتابا لدراسة الأحلام ، واقتدى به تلميذه ديوجانس Diogenes البابلي فنشر عن التكهن كتابا ، كما نشر « أنتباتر » Antipater كتابين آخرين ، ووضع صديقي « بوسيدونيوس » Posidonius خمسة كتب وقفها على دراسة هذا الموضوع — أما أستاذه « بانياتيوس » Panaetius [2] — وهو تلميذ « أنتباتر » وأحد أقطاب المدرسة الرواقية — فقد انسلخ عن مدرسته ، وهو وإن لم يجرؤ على التصريح بإنكار التكهن [إنكاراً قاطعاً] ، إلا أنه استطاع أن يعلن الشك الذي يساوره في أمره ، وما دام الرواقيون قد أذنوا — [وأنا أسلم بأنهم] أذنوا مكرهين — لهذا الرواقي [الذائع الصيت] بأن يعلن شكه في رأى لهم ، فهلا يمنحوننا نحن أتباع الأكاديمية — الجديدة — حق الشك في سائر آرائهم ، ولا سيما وأن هذا الرأي الذي بدا أمام « بانياتيوس » غامضاً ، كان عند أعضاء المدرسة الرواقية أسطع من وضح النهار . . ؟ ومهما يكن من شيء فقد أقر فيلسوف ممتاز — هو بانياتيوس — بهذا الحكم الخطير ، نزوع الأكاديمية المحمود نحو الشك [3] .

---

(١) تولى كليانتس « زعامة المدرسة الرواقية » بعد زينو ، وأعقبه الثاني في رياستها (دعاريه)

(٢) رواقي طائر الصيت ولد في رودس وكان مؤدب سيبيو الأفريقي فيما يقول دعاريه ويقول شيشرون في الأكاديمية إنه طرح أو شك في التعاليم التي يعتنقها غيره من الرواقية .

(٣) يقول دعاريه إن « بانياتيوس » هو المقصود بهذه الاشارة ، ولكن شيشرون يقول انه كارنيادس إذ كان في القرن الثاني قبل الميلاد أكبر ممثل لروح النقد ، وأعظم خصم للنظرية الرواقية ، وكانت الأكاديمية الجديدة التي ينسب اليها شيشرون ترى فيه أستاذها الأول ، وهو لم يكتب شيئا ، ولكن شيشرون حينما يذكره يعتمد على تلميذه ، كليتوماك : Clitomaque (جارنييه) .

تردد شيشرون فى التسليم بالتكهن :

٤ — ولهذا ، وبما أنى أريد بدورى أن أعرف الحكم الصحيح الذى يجب أن ينصب على التنبؤ بالغيب ، لأن كارنيادس Carneades أدلى بكثير من الحجج الشاملة القاطعة فى طعنه فى رأى الرواقية ، وبما أنى أخشى أن أتسرع فى التسليم بقضية قد يتضح بطلانها أو عدم كفاية أدلتها ، فأنى اعتزمت أن أثابر ملتزماً الدقة فى مقارنة مايقال فى موضوع التكهن من أدلة ، على نحو ما فعلت فى كتبى الثلاثة التى وضعتها عن « طبيعة الآلهة » ، لأن التسرع فى التسليم برأى خاطىء ، أمر شائن على كل حال ، ولا سيما اذا كان [مثل] هذا التسرع فى بحث يراد به تقدير ماللفأل والطيرة والطقوس المقدسة والشعائر الدينية من خطر ، فإن الاستخفاف بها مجازفة بارتكاب جريمة فى حق الآلهة ، كما أن الإذعان لها مساهمة فى التسليم بخرافة يهذى بها المسنات من النساء

بدء المناقشة بين شيشرون وأخيه فى موضوع التكهن :

٥ — وقد عالجت هذا الموضوع فى عدة مناسبات ، ولكنى بذلت فى معالجته اهتماماً يربى على المألوف منذ عهد قريب ، وعندما كنت مع أخى كونتوس Quintus فى بيتنا بمدينة توسكولوم Tusculan وقد مضينا بغية التجول الى اللوكيون Lyceum [(١)] وهو اسم أطلقته على منتزهى العلوى ، فقال « كونتوس » :

« فرغت الآن من قراءة دقيقة للكتاب الثالث من بحثك الذى وضعته

---

(١) يعلق ديعاريه على هذا الاسم قائلا ان شيشرون — فيما يلوح — كان له فى مدينة توسكولوم متنزهان مختلفان : أحدهما خصصه لنزهات الصباح وكان عاليا مكشوفا ، وقد أطلق عليه اسم اللوكيون ، والآخر لنزهات بعد الظهر وكان أقل من الأول ارتفاعا ، وقد غرس فيه الأشجار وأطلق عليه اسم الأكاديمية . وعلقت « لويب » على الاسم فقالت أن شيشرون كان له مكانان : أحدهما لرياضته فى المدينة السالفة الذكر ، وقد اشتق اسم متنزهه الأول من المكان الذى كان أفلاطون يعلم فيـه — قارن شيشرون: Tusc 11. 3. ولا يكاد تعليق چارنيپه يخرج عن هذا — .

عن طبيعة الآلهة ، وضمنته مناقشة « كوتا » Cotta ، وهى وإن زلزلت آرائى فى فى الدين ، فإنها لم تقو على تحطيمها جميعاً »[١]

فقلت « حسناً جداً ، فان الأدلة التى وضعها « كوتا » قد قصد بها قبل كل شىء أن يدحض حجج الرواقيين ، لا أن يهدم عقيدة المرء فى دينه »

فقال « كونتوس » « إن « كوتا » نفسه يقول ذلك ويكرره مراراً ، حتى لا يظهر — فيما أظن — بمظهر المتمرد على قواعد العقيدة الدينية المتفق عليها بين الناس ، ومع ذلك فإنه يلوح لى — وهو فى حملته التى أثارها لدحض الرواقية — قد أنكر وجود الآلهة إنكاراً باتاً ، وفى الحق أنى لا أشعر رغم ذلك بالعجز عن تفنيد أدلته ، لأن « لوكيليوس » Lucilius قد قام فى الكتاب الثانى بدفاع شامل عن الدين ، وكانت الأدلة التى قدمها — فيما تقرر أنت نفسك فى نهاية الكتاب الثالث — أدنى إلى الحق — فيما بدا لك من الحجج التى استند اليها « كوتا » بيد أن هناك مسألة أهملت الحديث عنها فى هذه الكتب السالفة الذكر [٢] إذ آثرت من غير شك أن تتناولها فى بحث مستقل ، وأعنى بهذه المسألة التكهن بالغيب ، وهو سبق النظر والتنبؤ بالحوادث التى يعتبر وقوعها محض مصادفة ، فهيا الآن نبحث — إن شئت — فى تأثيرها ، وتبين طبيعتها .

أما عن رأيى فإنى أعتقد أن مختلف ضروب التكهن التى انحدرت إلينا

---

(١) « جايوس أورليوس كوتا » كان قنصلا فى عام ٧٥ ق . م . وكان خطيباً مفوها ، وقد صوره المؤلف فى كتاب « طبيعة الآلهة » مع « لوكيليوس بالبوس » فى محاورة مثل فيها الأول رأى الأكاديميين ، ودافع فيها الثانى عن وجهة النظر الرواقية ، هذا ما ورد فى تعليق اويب ، ويضيف جارنييه إلى هذا أن كوتا لا ينكر وجود الآلهة ، بل إنه على العكس يقرر جهاراً اتصالهم بالمعتقدات الشعبية ، ويقول إن الرواقية لم يستطيعوا أن يضعوا بحق نظرية فى الآلهة والعناية الآلهية .

(٢) ناقش المؤلف هذه المسألة فى إيجاز فى الفقرة الثالثة من الجزء الثانى من « طبيعة الآلهة » .

عن أجدادنا السالفين ، والتى نمارسها الآن ، إن كانت صادقة ، فإن هذا دليل يشهد بوجود الآلهة ، وعلى العكس من ذلك ، إن قام الدليل على وجود آلهة ، كان هذا حجة تنهض على وجود أفراد أوتوا القدرة على التكهن بالغيب .

٦ — فقلت له : « إنك تدافع عن صميم الرأى الذى يعتنقه الرواقيون ، عند ماتزعم بأن هاتين القضيتين تعتمد إحداهما على الأخرى اعتماداً متبادلا[١] « إذا صح إمكان التكهن بالغيب ، استقام وجود الآلهة ، وإذا استقام وجود الآلهة ، صح إمكان التكهن بالغيب[٢] » ولكن التسليم بكلتا القضيتين ليس ميسوراً بهذه السهولة التى تتصورها ، لأن من الممكن أن تعلن الطبيعة شواهد تنبىء عن أحداث المستقبل الخفى ، دون أن يتدخل فى هذا إله ما ،[٣] وقد يستقيم وجود الآلهة دون أن يلزم من هذا أن تمنح الآلهة الناس قدرة يتمكنون بها من معرفة الغيب المحجب » .

فعلق « كونتوس » على هذا قائلا : « أيا ما كان الأمر فإنى أجد الدليل على وجود الآلهة ، وعنايتهم بالشئون الإنسانية ، قائماً فى اقتناعى بوجود ضروب من التكهن بالغيب ، متميزة واضحة لايشوبها غموض .

وسأعرض آرائى فى هذا الموضوع — إن أذنت بهذا وكان لديك فراغ فى الوقت ، ولم تجد ماتؤثره على مثل هذه المناقشة » .

فقلت له : « حقاً — ياعزيزى « كونتوس » — إن وقتى يتسع على الدوام لدراسة الفلسفة ، (وفضلا عن هذا) فإنى لا أجد الآن عملا آخر أستطيع أن

---

(١) كان كونتوس أخو شيشرون من أتباع الرواقية فيا يقول « ديماريه » بل فيا يظهر من حديث شيشرون فى كثير من فقرات الكتاب الثانى

(٢) قارن الفقرة السادسة فى كتاب « طبيعة الآلهة » للمؤلف (لويب) .

(٣) يظهر أنه يشير هنا إلى التنبؤ القائم على علل تبرر الاهتداء إلى نتائجه ، وهو الذى يريد بعض فلاسفة اليونان — كأرسطو وديمقريطيس — أن يحلوه مكان التنبؤ فوق الطبيعى (جارنييه) وقد رفض جمهرة مفكرى الإسلام هذا الاتجاه ، أنظر كتابنا فى « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » .

أجد فى أدائه لذة (١) . وهذا يزيدنى شوقاً إلى معرفة رأيك فى موضوع التكهن بالغيب » .

فقال لى : « إنى أؤكد لك أن ليس فيما أرى جديد أو مبتكر طريف ، لأن هذه الآراء التى أعتنقها اليوم ، ليست عريقة فى القدم فحسب ، بل لقد صادفت رضا الناس عامة والشعوب كافة .

إن التكهن بالغيب ضربان : يعتمد أولهما على الصناعة ، ويستند ثانيهما إلى الطبيعة .

فلنذكر أصناف الضرب الذى يكاد يعتمد على الصناعة اعتماداً كلياً : أى شعب أو أية دولة تلك التى تستخف بنبوءات الكهان أو مؤولى الخوارق والبرق أو أهل العيافة أو التنجيم ، أو أصحاب الوحى ، أو — إذا تحدثنا عن الصنفين اللذين يعبران عن الطرق الطبيعية للتكهن بالغيب — فأى الأمم تستخف بنذر الأحلام ، ونبوءات من يعتريهم المس . . ؟

ضرورة الاقتناع بالتنبؤ رغم غموض أسبابه :

وأظن أنه ينبغى عند البحث فى طرق التكهن بالغيب ، أن نهتم بنتائجها لا أن نعنى بأسبابها ، فإن هناك قوة طبيعية خاصة تكشف المحجب من أنباء المستقبل ، تارة بملاحظة شواهدها السابقة ملاحظة طويلة متصلة ، وأخرى إبان المس والإلهام الآلهى .

٧ — ليمسك « كارنيادس » عن اللجاجة فى سؤاله الذى ردده كذلك « بانياتيوس » حين تساءل : أأمر « جوبتر » نوعاً من الغربان أن ينعق يمنة وآخر أن ينعق يسرة . . ؟ كلا ، ولكن هذه الشواهد قد لوحظت زماناً مديداً ، وتحققت نتائجها ، ورصدها أهلوها ، وليس ثمة شىء لا يستطيع طول الأمد

(١) يشير شيشرون فى هذه الفقرة الى أحوال السياسة الرومانيــة المحزنة ، وإبعاده عن مجالس الدولة وسائر الوظائف الرئيسية فى الحكومة — أنظر ترجمتــه فى مقدمتنا للترجمة العربية .

إتيانه ، إذا واتته الذاكره التى تعى ، والصحيفة التى تحفظ (١)

قد يساورنا العجب لأنواع الأعشاب التى لاحظ الأطباء أنها تنفع، والجذور التى تشفى من عضات الوحوش الضارية وأمراض العيون وإصابات الجروح، ورغم أن العقل لم يفسر لنا سر قوتها وطبيعتها ، فإن نفعها قد أدى بالناس إلى استخدامها فى شئون العلاج ، وتمجيد من اهتدى إلى اكتشافها (٢)

والآن ، هيا فلنعرض أمثلة تشبه موضوع التكهن شبها قويا ، وإن اعتبرت خارج نطاقه (٣)

(كثيرا ماينذر البحر بهبوب العواصف ، عند ماتأخذ مياهه فى الارتفاع فجأة ، وعند ماتحاول الصخور الشهباء المغطاة بالجليد والملح ، أن تجيب البحر معلنة نبوءاتها فى أنغام مزعجة ، وعند مايهب الريح مدويا من قمم الجبال الشاهقة ، ويشتد صفيره كلما اصطدم بالصخور المحيطة بالبحر) .

٨ — إن كتابك . « النذر » (٤) حافل بمثل هذه الزواجر المنبئة ، ولكن من الذى يستطيع أن يسبرغور أسبابها ، ومع هذا فان « بويتوس » Boethus الرواقى (٤) قد حاول أن يهتدى إلى ذلك ، وقد وفق إلى حد أنه شرح ظواهر البحر والسماء ، ولكن منذ الذى يستطيع أن يكشف لنا عن السبب الذى يكفى فى بيان السر فى وقوع الظواهر التالية :

---

(١) فى سياق الكلام شىء من الاضطراب ، ويظهر هذا فى النسخة اللاتينية وغيرها من نسخ انجليزية وفرنسية .

(٢) كان الإغريق يستبشرون خيراً إذا صاحت الطيور أو غردت عن يمين من يشاهدها ، ويتشاءمون اذا كانت عن يساره . أما اللاتين فكانوا على عكس ذلك (جارنييه) وانظر الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الثانى وكذلك آخر الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب نفسه . ثم ما قلناه فى فن العيافة فى كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الأسلام » .

(٣) الأبيات التالية ، والتى سترد فى الفقرتين الثامنة والتاسعة مقتبسة من ترجمة شيشرون لـ : Deiosemeia of Aratus (لويب) .

(٤) ترجم « شيشرون » هذا الكتاب شعراً عن « أراتوس » Aratus من اليونانية إلى اللاتينية (ديماريه) .

تردد طيور البحر الزرقاء بحناجرها المرتعدة نذرها أثناء فرارها من خلجان المحيط المصطخبة، وهى فى تنافر وهياج، مهددة فى ارتعادها معلنة بأن الزوابع توشك أن تثور حاملة فى طياتها الأهوال، وعند ماتحول آلهة الفجر الصقيع إلى ندى، كثيرا مايرسل البلبل من صدره نذر الشر، ويتوعد ويجأر بشكواه المتصلة، وكثيرا مانرى الغراب الأسود فى تجواله حائرا على الشاطىء يغمر فى الماء عرفه، كما تقابل الأمواج عنقه)

٩ — إن هذه الشواهد لاتكاد تخطىء أبدا، ومع هذا فاننا لانعرف السبب الذى من أجله هى كذلك.

(وأنتن ياساكنات المياه الحلوة، تستطعن معرفة هذه الشواهد، عندما يرتفع صياحكن فى ضجيج خلو من المعانى، وتهزن النافورات والبرك بنعيقكن السخيف).

فمنذا الذى يستطيع أن يفرض أن الضفادع قادرة على ذلك .. ؟ ومع هذا فان لها بطبيعتها ملكة ما، بها تشعر بما ينتظر أن يقع، وهذه الملكة واضحة فى ذاتها (وضوحاً ملحوظاً)، ولكنها غامضة (أشد الغموض) أمام العقل الإنسانى.

(والثيران ذوو الأظلاف اللينة تتجه بعيونها نحو ضوء السماء، وتتنسم بخياشيمها، الرطوبة من الهواء).

ما دمت أعرف ما ذا يحدث، فانى لا أستفسر عن السبب الذى يؤدى إلى حدوثه، فإن شجر العلك (المصطكا) ذو الخضرة الدائمة يكبر ثلاث مرات وتتفتح براعمه عن ثمارها ثلاث مرات، فتكشف هذه الشواهد عن ثلاثة فصول لحرث الأرض!

ولست أستفسر كذلك عن السبب الذى من أجله تزهر هذه الشجرة وحدها ثلاث مرات، أو لماذا تجعل أزهارها فى المرات الثلاث على اتفاق مع زمن الحرث، أنا قانع بعلمى أنها على هذا النحو تزهر، وإن كنت لا أعرف

لهذا سببا . (واستناداً إلى هذا فإنى) — فيما يختص بكافة أساليب التنبؤ بالغيب — سأجيب نفس الإجابة التى عرضتها بصدد هذه الحالات السالفة الذكر .

١٠ — إنى أعرف أثر جذع « المحمودة » : Scammony كمسهل ، وأجد ترياقاً للدغة الثعبان فى نبات « أرستولوكيا » ، واسمه مشتق من كاشفه الذى عرفه فى حلم وقع له — إنى أرى ما لهذه الأشياء من قوة ، وحسبى ما أرى ، أما لماذا تهيأت لها هذه القوة ، فإنى لا أعلم عن هذا شيئا ، وهكذا الحال فيما يختص بشواهد الرياح والأمطار التى أسلفت القول بأنها تنذر بما ينتظر أن يقع ، فأنى لست على يقين من أمرها ، ولكنى أعرف قوتها وتأثيرها ، وأدرك هذا وأشهد به ، وكذلك الحال فيما يختص بشقوق الأحشاء أو خيوطها الرفيعة ، إنى أسلم بالمعنى الذى تحمله ، ولا أعرف عن سبب هذا شيئا ، وكم فى الدنيا من أفراد يقفون موقفى هذا تماما ، إذ يكاد كل فرد يستخدم الأحشاء فى التنبؤ بالغيب — وهو يجهل تفسير هذه الظاهره فى ضوء منطقه —

ثم هل فى وسعنا أن نشك فى قيمة الصواعق فى التنبؤ بالغيب . . ؟ أليس لدينا الكثير من الأمثلة التى تشهد بإعجازها . . ؟ وأليس يجدر بنا أن نخص بالذكر تلك الحادثة التالية : حادثة تمثال « سومانوس » Summanus[1] الذى يقوم على قمة معبد جوبتر القوى العظيم — وقد صنع تمثاله من الصلصال — عندما أطاحت برأسه صاعقة فاختفى حتى عز وجوده فى مكان ، فأعلن

---

(١) وهو غير Boethus « بويثوس » المشائى وقد مات سنة ١١٩ ق . م . ويقول مترجم جارنييه فى تعليقاته إنه وضع بحثا فى الطبيعة ، وألف كتابا فى القدر وحاول أن يوفق بين طبيعة الرواقية وطبيعة أرسطو كما حاول أن يبرر — علميا — بعض ضروب التنبؤ بالغيب .

(١) اسم إله استعاره قدماء الرومان من « أتروريا » ، وكان يثير العواصف إبان الليل ، وكان الديوان الذى أنشأه « رومولوس » يقدم القرابين حين تزلزل العواصف الأشجار (باشليه وديزوبرى) وانظر شيشرون على هذا المثال فى الفقرة العشرين من الكتاب الثانى .

العرافون بأن الصاعقة قد ألقت بالرأس فى نهر التيبر ، وقد عثر عليه فى نفس المكان الذى حدده هؤلاء العرافون . . !

١١ — ولكن أى حجة أو شاهد أستطيع أن ألجأ إليه ، ويكون أقطع فى الدلالة على هذا منك أنت نفسك ؟ لقد استظهرت بمزيد الغبطة الأبيات التى كانت ترددها إحدى الآلهات التسع وهى إلهة الفلك . أورانيا Urania[١] فى الكتاب الثانى من قصيدتك التى تحمل هذا العنوان : عهدى فى القنصلية[٢] .

١١ — وعلى هذا فلو تأملت آثارك وأشعارك (التى أسلفت اقتباسها) والتى التزمت أنت فى نظمها منتهى العناية والدقة ، أيمكن أن يؤدى بك هذا إلى معارضة رأيى فى التنبؤ بالغيب ؟

دحض الاحتجاج بالمصادفة فى تفسير التنبؤ :

ولكن ماذا . . ؟ إنك تسأل « كارنيادس » عن السبب الذى من أجله تقع هذه الأشياء ، وتستفسر منه عن القواعد التى تساعد على فهمها ، إنى أعترف بأنى لا أعلم من ذلك شيئاً ، أما أنها تقع على هذا النحو ، فأنى واثق بأنك تراها على هذا النحو بنفسك ، ولكنك تقول إنها « محض مصادفات » فهل هى كذلك حقاً . . ؟ أيمكن أن يكون شىء ما ، وليد المصادفة وهو يحمل فى ذاته كل شاهد على أنه حق . . ؟ إن زهرات النرد الأربع تلقى وتقع رمية

---

(١) Muse اسم يطلق على أية ألهة من الألهات التسع ، للشعر والموسيقى وغيرها من الفنون ومن : Clio إلهة التاريخ ، Euterpe الهة الموسيقى و Thalie الهة الكوميديا ، و Melpomène الهة التراجيديا ، Terpsichore الهة الرقص و Erato لهة شعر الحب (الغزل) و Palymnie الهة الشعر الغنائى والفصاحة ، Urania الهة علم الهيئة (الفلك) ، Erato Calliope الهة شعر البطولة والملاحم ، أما Urania فهى الهة علم الهيئة وهى تتمثل فى ثوب أزرق ، متوجة بالكواكب ، ومعها القبة الفلكية وآلات الرياضة ، وهى الهة مثلى لا تدركها شهوات الجسد وكانت تعبد تحت اسم « فنوس السماوية » (باشليه وديزوبرى) .

(٢) وضع « شيشرون » عن الحوادث التى وقعت إبان قنصليته ثلاثة كتب شعراً ، لم يبق منها إلا أشتات ، وأهم هذه الكتب هو المشار إليه هنا (ديماريه) وقد أهملنا ترجمة الشعر اسخافته .

لڤينوس[1] ، فتكون هذه مصادفة ، ولكن أتظن أنها محض مصادفة ، إذا كنت فى كل مائة محاولة ، تصيب مائة رمية لڤينوس . . ؟

إن من الممكن للألوان التى تنتثر عفواً على قطعة من الخيش ، أن تكوّن شكل وجه ما ، ولكن أتتصور أن مادة الألوان التى تتفرق سبهللة يمكن أن ترسم الصورة الجميلة لآلهة الجمال فى جزيرة كوس Cos . . ؟ هب أن خنزيراً قد استطاع أن يرسم على الأرض بأنفه الطويل الحرف « ا » ، فهل هذا يبرر الظن بأن فى وسعه أن ينسخ قصيدة « أندروماك » : Andromache التى وضعها أنيوس Ennius . . ؟

لقد كان « كارنيادس » يروى قصة خلاصتها أن صخرة قد انشقت ذات مرة فى محاجر « شيان » ، فبرز من انشقاقها رأس الإله الطفل « بان » Pan وأنا أسلم بأن هذه الصورة تحمل بعض وجوه الشبه بصورة الإله ، ولكن الشىء الذى لا يرتقى إليه الشك ، هو أن التشابه لا يصل إلى درجة تمكنك من أن تعزوه إلى فنان كاسكوپاس : Scopas ، لأن من الحق الذى لا يحتمل الإنكار ، أن المحاكاة الكاملة لشىء ما ، لا تكون وليدة المصادفة أبداً .

مناقشة الاحتجاج بكذب النبوءات أحيانا :

١٣ — بيد أن هذا قد يثير الاعتراض القائل بأن « التنبؤات لا تصدق أحياناً » ، ولكن معذرة ، أى فن — وأقصد بالفن هذا الذى يعتمد على الحدس والاستنباط — أقول أى فن ليس عرضة لهذا الخطأ نفسه . . ؟ إن مزاولة الطب فن لا محالة ، ومع ذلك فكم من الأخطاء يتعرض لها أهل هذا

---

(١) يقول مترجم لويب إن رمية « فنوس » تقع عندما تسقط كل من الزهرات الأربع وتعلن على سطحها العلوى عدداً يختلف باختلافها . ويقول « ديماريه » ان زهرات النرد عند القدماء كانت منقوشة على نحو ما هى عليه الآن ، ولكنهم كانوا يلعبون بأربع زهرات (بدلا من اثنتين) ، وتعليق جارنييه لا يكاد يخرج عن هذا — وانظر رد شيشرون على هذا المثال فى الفقرة الحادية والعشرين من الكتاب الثانى .

الفن .. ؟ وأليس قباطنة السفن معرضين للخطأ أحياناً .. ؟ إن الشاهد على هذا نراه فى جيوش الأغريق وقادة أسطولهم الجبار عندما أبحروا من تروادة، وكانوا كما يقول « باكوفيوس » Pacuvius [١] :

[يتأملون الأسماك وهى تلعب فى البحر ، فرحين وهم يخلفون تروادة وراءهم ، بل إنهم لم يستوفوا حظهم من التأمل ، وهكذا هيأوا للوقت أن يمر بهم دون أن يستشعروا الضجر ، وبينما كانت الشمس تميل إلى الغروب ، كان اليم يرتفع غاضباً ، والظلام يتكاثف رويداً رويداً ، والليل يظلم ويمطر مطرا يحجب النظر] .

وهل لاتكون الملاحة فناً ، لمجرد أن الكثيرين من الممتازين من قباطنة السفن وأرباب الملك ، قد تحطمت سفنهم وابتلعتهم المياه .. ؟ وهل يفقد العلم العسكرى قيمته ، لأن قائدا طائر الصيت قد فقد جيشه منذ عهد قريب وولى الأدبار .. ؟[٢] وهل يتجرد فن السياسة من مناهجه وضروب الحذق فى مجاله ، لأن أخطاء سياسية قد وقع فيها مرارا جنايوس بومبى Gnaéus Pompey وماركوس كاتو Marcus Cato وأنت نفسك — مرة أو مرتين .. ؟ كذلك الحال مع تنبؤات العرافين ، بل مع سائر ضروب التكهن الذى لا تكون استنباطاته إلا على سبيل الاحتمال ، لأن مثل هذا التنبؤ يعتمد على الاستدلال ولا يتجاوز نطاقه ، وقد يؤدى إلى الضلال أحياناً ، ولكنه مع ذلك يهدينا إلى الحق فى أكثر الحالات ، لأن هذا التكهن الذى يقوم على الحدس وليد الأزل الذى يمتد فى قدمه إلى غير نهاية ، وقد أدركه النمو على مر الزمن حتى أضحى فناً يقوم على تكرر المشاهدات وتسجيل الحوادث

---

(١) هو شاعر لاتينى كان ابناً لأحدى أخوات « انيوس » وقد ولد فى « برنديزيوم » فى مملكة بابل على البحر الإدرياتيكى (دعاريه) .

(٢) يشير إلى هزيمة « بومبى » على يد قيصر فى « فارسالوس » سنة ٤٨ ق . م . (لويب وجارنييه) .

التى لا يكاد يحصيها العد ، والتى كانت نفس الشواهد تسبق فيها نفس النتائج .

التكهن قبل شيشرون فى أيامه :

١٤ — وفى الحق لقد كانت نبوءات الطّيرة والفأل وفن العيافة موضع ثقة من الناس ، عندما كنت (أنت) من أهل العيافة[1] ، إن المشتغلين بهذا الفن من الرومان قد أهملوا شأن الزجر والفال فى أيامنا الراهنة — ومعذرة فى هذا التصريح — وإن كان الكيليكيون والبامفليون والبيسيديون والليكيون يمجدون من شأنه ، ولست بحاجة إلى أن أذكرك بصديقنا وضيفنا الجليل ، أشهر الناس الملك « ديوتاروس » Deiotarus [2] ، الذى لم يقدم على تنفيذ مشروع قبل أن يستنبىء الطالع ، وقد شرع فى إحدى المناسبات فى رحلة قد اهتم بإعداد خطتها من قبل ، ثم عاد إلى بلده بعد إنذار زاجر عرفه من نسر حلق فى الجو ، ثم ظهر أن الغرفة التى كان ينتظر أن ينزل بها إذا واصل رحلته ، قد انهارت فى الليلة التالية ، وهذا هو السبب — فيما أنبأنى هو نفسه — فى أنه كثيراً ما كان يعدل عن إتمام رحلة مضى فيها أياماً .

وبهذه المناسبة أقول إنها كانت كلمة نبيلة تلك التى أعلنها بعد أن رفع عنه قيصر تبعيته ، وخلعه من مملكته ، وأكرهه على أن يدفع غرامة ، اذ قال : « لست آسفاً — مع هذا الذى أصابنى — لأن الفأل قد أيد اتصالى ببومبى ، فبهذا الاتصال وضعت قواتى العسكرية للدفاع عن سلطة مجلس الشيوخ

(١) يقول مترجم لويب إن « شيشرون » قد انتخب عضواً فى ديوان العيافة ، وأضحى زميلا لبومبى وهورتنسيوس عام ٥٣ ق . م . وأن كونتوس سيبدأ الآن فى شرح وجوه التفرقة بين العيافة كما كانت عام ٥٣ — ٦٣ ق . م . وبينها أثناء هذه المحاورة أى عام ٤٤ ق . م — أما ديوان العيافة فهو كلية دينية أقيمت لفن العيافة فى روما القديمة وكانت مهمة أعضائها ملاحظة الطيور وتأويل الشواهد توطئة لتنفيذ المشروعات أو العدول عنها كما تنص على هذا دائرة المعارف البريطانية فى مقال : Augur .

(٢) كان « ديوتاروس » من أتباع قيصر فى « جالوجرايكيا » وكان ملك أرمينيا الصغرى — وقد ناقش شيشرون هذا المثال فى الفقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الثانى وقد قاتل مع « بومبى » فى « فارسالوس » ، إذ كان صديق الرومان وحليفهم .

والذود عن حرية الرومان، والدفاع عن عظمة الامبراطورية . وقد أحسنت الطيور نصحى حين أشارت عليّ بالتزام الواجب والشرف ، لأنى أقدر ذكرى اسمى ، أكثر مما أقدر الظفر بالغنى والثراء . وفكرته عن العيافة ، هى الفكرة الصحيحة — فيما يلوح لى —

وثمة حكام يستعينون بزجر الطيور وفألها كما نفعل نحن ، ولكن نبوءاتهم فى هذا مصطنعة متكلفة ، إذ أن كرات العجين الملقاة أمام صغار الكتاكيت المقدسة لتطعم منها ، لا بد أن تسقط من منقارها(١) ، والفأل الطيب يقع — فيما تنبئنا كتاباتكم أيها العيافون — متى سقطت على الأرض من منقار الكتاكيت قطعة من الطعام ، وأنت — أيها الأخ — تطلق على ما أسلفته من طوالع مصطنعة ، نفس الاسم الذى تطلقه على النبوءات الحرة المألوفة(٢) وهكذا يؤدى استخفاف ديوان الكهانة بضروب العيافة — فيما يقول « كاتو » الحكيم متألماً راثياً — إلى إهمال تام وضياع كامل للكثير من أساليب العيافة وطرق الزجر والفأل .

١٥ — وقد كان يندر أن يقدم أهل العصور القديمة على أمر ذى خطر — ولو اتصل بشئونهم الخاصة — دون أن يستشيروا الطير ليعرفوا إن كان سانحاً أو بارحا ، والشاهد البين على هذا يتجلى حتى فى عصورنا الحاضرة ممثلا فيما ألفناه من فأل الزواج ، وإن كانت قد فقدت معناها الدينى القديم واحتفظت بالاسم وحده . ولا نزال فى أيامنا الراهنة نستخدم فى المناسبات الهامة النظر

---

(١) كانت الكتاكيت فى مثل هذه الحالات تطعم بحيث تعطى النبوءة المطلوبة — قارن الفقرتين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين من الكتاب الثانى (فيهما مناقشة شيشرون لذلك المثال) (لويب) .

(٢) كانت الكتاكيت تأكل فى شراهة بحيث تتساقط منها قطع الطعام وتصطدم بالأرض ، فيكون هذا فألا ميموناً — وفى الفقرتين ٣٤ و ٣٥ من الكتاب الثانى شرح للفظ اللاتينى الذى يستخدم فى التعبير عن هذين المعنيين المختلفين ، ويلوح أن « كونتوس » يشكو لأن هذه الطريقة المتكلفة ليست من طرق التكهن الصادقة ، لأن النتيجة فيها محتومة ولا سبيل إلى تجنبها (لويب) .

فى فحص الأحشاء فى التنبؤ بالغيب ، وإن كانت اليوم أقل مما كانت فى الماضى شيوعا ، وقد جرت العادة قديماً بأن يستخدموا كذلك التنبؤ عن طريق الطيور وبإهمال النذر الزاجرة التى لا تلائم مطالبنا ، نعانى ضرراً بليغاً ومن أمثلة هذا أن « بوبليوس كلوديوس » Publius Claudius بن أبيوس كايكوس : Appius Caecus (١) وزميله لوكيوس جونيوس Lucuis Junuis قد فقدا أسطولين ضخمين ، لأنهما أبحرا على كره من زجر البارح من الطيور ، وقد كان هذا نفسه مصير « أجا ممنون » Agamemnon ، (٢) إذ بعد أن شرع الأغريق :

(يرفعون بالصياح حناجرهم مظهرين احتقارهم لنبوءات الكهان ، وعلا صياحهم حتى غلب الزجر ، أصدر « أجا ممنون » أمره الى السفن بأن تمخر العباب)(٣).

ولكن لماذا نستشهد بهذه الأحداث القديمة . . ؟ إنا نرى ما أصاب ماركوس كراسوس M. Crassus(٤) عند ما استخف بنبوءات الطيرة التى زجرته عما يقصد .

إن Appius الذى كان مراقباً Censor فى ذاك الحين . والذى كان زميلك فى ديوان العيافين ، وكان رجلا قديراً فيما سمعت منك مراراً — قد وصم بالعار

---

(١) فى الحرب اليونية الأولى عام ٢٤٩ ق . م . قارن شيشرون فى الفقرة الثالثة من الكتاب الثانى من طبيعة الآلهة ، : polyb فى الفقرة : ٥٤ من الكتاب الأول (لويب) وفى كتابى : قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٣٨ — ٤١ (طبعة أولى) بيان عن موقف جليل لهذا الرجل .

(٢) بعد غزو تروادة (دعاريه)

(٣) لعله اقتبس هذين البيتين من Dulorestes لواضعه « باكوفيوس » (لويب) .

(٤) عندما رحل « كراسوس » من روما ليحارب « البارثيين » فاعترض على رحيله « جايوس أتيوس » زعيم الشعب الرومانى وتمنى له السوء (دعاريه) وفى الفقرة التالية غموض فى النص اللاتينى والترجمات الإنجليزية والفرنسية ، وقد استعنا على ترجمتها بالدكتور زكى محمد حسن .

— فيما نعلم — رجلا شريفا ومواطنا ممتازا هو «جايوس أتيوس» GaiusAttius. وأدانه بتهمة لم يقم على صحتها دليل كاف، وهى أنه زيف فى الفأل.

وأنا أسلم معك بأن أپيوس لم يتجاوز حقوقه كمراقب حين أدان جايوس أتيوس، إن كان على يقين بأن أتيوس قد أعلن فألا زائفاً.

ولكن أبيوس كان خلواً من كل قدرة فى فن العيافة حين ظن أن أتيوس يحمل تبعة تلك المصيبة الفادحة التى نزلت بالشعب الرومانى، وإذا كان هذا هو السبب، فإن الخطأ لا يقع على عاتق «أتيوس» الذى أعلن بأن الزجر فى غير مصلحته، ولكنه خطأ «كراسوس» الذى عصى أمره، لأن النتيجة دلت على أن النبوءة كانت صحيحة، كما سلم بها الكاهن والرقيب معاً، وحتى إذا كانت النبوءة باطلة لما كانت العلة فى وقوع هذه النكبة، لأن التكهنات المشئومة — ومثل هذا يقال عن الطيرة والفأل وغيرها من الشواهد — ليست السبب فيما يقع من أحداث، إنها مجرد تكهن بوقوعها إلا إذا أخذت الحيطة لاتقائها، وعلى هذا فأن «أتيوس» باعلانه تلك النبوءة لم يخلق السبب الذى أدى إلى وقوع النكبة، ولكنه لاحظ الشاهد الذى ينبىء عنها، وسارع الى إعلان «كراسوس» بالنتيجة التى ينتظر أن تترتب على هذا، إذا استخف بهذا النذير الزاجر، ومن هذا نرى أن إعلان «أتيوس» Attuis للنبوءة المشئومة، لا أثر له فى تحقيقها، أو إذا كان ذا أثر كما يظن «أبيوس» Appius فان التبعة فى هذا لا يحملها من أعلن النذير، ولكنها تقع على عاتق من أهمله واستخف بأمره.

فى تاريخ الكهانة:

١٦ — أرجو أن تنبئونى أيها الكهان عن المصدر الذى أخذتم عنه هذه العصا التى تعتبر أظهر خصائص منصبكم الكهنوتى ..؟ إنها بغير شك نفس العصا التى حدد بها «روميلوس» النطاق الذى كان يلاحظ فيه الطيور

ويستنبئها المستقبل المحجب ، عندما أقام مدينة روما[1] وهذه العصا صولجان ملتو مقوس قليلا عند قمته ، وبينه وبين البوق مشابه ، ولهذا اشتق اسمه من كلمة لاتينية معناها « البوق الذى ينفخ فيه للبدء بالتحام الجيوش » وقد حفظ فى معبد قسيس إله الحرب ، المقام على تل « بلاتين » . ورغم أن المعبد قد احترق فإن العصا قد وجدت سليمة لم تصبها النار بتلف ما . ثم أى مسجل للحوادث قد فاته أن يذكر تلك الحقيقة التى تقول إن السماء قد قسمت إلى أربع مناطق ، على يد « أتوس نافيوس » : Attus Navius الذى عاصر « تاركونيوس برسكوس Tarquinius Priscus[2] » ، بعد عصر « روميلوس » بأمد طويل .. ؟ وقد كان « أتوس » لفقره راعياً للخنازير فى شبابه ، وقد افتقد — فيما تروى القصة — أحد هذه الخنازير ، فنذر بأن يقدم للأله — كقربان — أكبر عذق عنب فى كرمه ، إن وجد الخنزير ، فلما عثر على الخنزير ، وقف

---

(١) يقول مترجم لويب إن هذا النطاق كان يسمى : templum ويقول Livy فى الفقرة السادسة من الكتاب الأول أن « روميلوس » قد اتخذ « بلاتاين » Palatine مكانا لاستنباء الطيور ، أما ريموس فكان مكانه « افنتاين » Aventine وقد جرت العادة بأن يكون المكان بقمة فى السماء . ويقول « ديماريه » إن تقسيم المناطق وتجزئتها كان عرفا شائعا عند أهل العيافة فى روما القديمة ، كانوا يعتزمون أن يستنبئوا الطيور ، فكانوا يجزئون بصائم الأفق إلى أربع مناطق أو ثمان أو ست عشرة منطقة ، ليحددوا من أى هذه المناطق يصدر الزجر أو الفأل وتقول دائرة المعارف البريطانية فى مادة Augur : إن العياف كان يحدد بعصاه المكان المقدس الذى كان يجرى فيه مشاهدته [وهو templum كما قلنا] فاذا انتصف الليل وهدأت الرياح ، اعتلى العياف ربوة لتتسع بهذا رحاب نظره . ويحضره فى هذا الحاكم . فإذا أقيمت الصلاة وقدمت القرابين ، حدد العياف نطاقا فى السماء ليجرى فيه ملاحظاته، وعلى الأرض ليقيم عليه خيمة ، ثم يجلس مغطى الرأس ويلتمس من الآلهة شاهداً يكشف عن يمن المشروع أو شؤمه ، ثم ينتظر انكشاف هذا الشاهد ، فاذا انكشف الشاهد أعلن العياف ما رأى ، وكان على الحاكم أن يعمل فى حدودها . وقد ناقش شيشرون هذا المثال ، والمثال الذى يليه فى الفقرة الثامنة والثلاثين من الكتاب الثانى .

(٢) أحرق أهل الغال فى عام ٣٩٠ ق . م هذا المعبد ، عندما اغتصبوا المدينة ، وقد احترق كل ما كان يحويه المعبد إلا هذه العصا . [قارن Val, Max 1, I. Plut, Livy V ,41. (لويب)] .

وسط الكرم — فيما يقال لنا — وقد ولّى وجهه شطر الجنوب ، وقسم الكرم إلى أربع مناطق ، واستنبأ الطيور فزجرت عن ثلاث منها ، فأعاد تجزئة الرابعة — وهى الأخيرة — فوجد — فيما تقول لنا القصة المدونة — كرماً من العنب كان كبير الحجم إلى حد معجز .

ولم يكد ينتشر أمر هذا الحادث فى الخارج ، حتى وفد إليه كافة جيرانه ، وأخذوا يستشيرونه فى شئونهم الخاصة ، وبهذا عظم اسمه وحلقت فى الآفاق شهرته ، وترتب على هذا أن أرسل الملك «برسكوس» Priscus فى طلبه ، وأراد أن يجرب مهارته كرجل مشتغل بالعيافة . وقال له . « إنى أفكر الآن فى أمر مّا ، فنبئنى إذا كان الإقدام على عمله ممكناً أو غير ممكن » .

فاستنبأ الكاهن الطيور ، وأجاب الملك على الفور قائلا إن فى إمكانه أن يقدم على عمله . وعندئذ قال الملك « تاركوين » إنه كان يفكر فى إمكان قطع مسن إلى قسمين بموسى ، وأمر بإجراء هذه التجربة ، فحملوا الصخرة إلى الجزء الشرقى من السوق الرومانية العامة[١] وأخذ الملك ورعيته يراقبون الصخرة عند إجراء التجربة ، وإذا بها تنشق بالموسى إلى شقين ، فاستخدم الملك هذا الرجل عيافاً له ، وأخذ الناس يستشيرونه فى شئونهم الخاصة ، بل إن القصة المتواترة تقول لنا إن المسن والموسى قد دفنا فى نفس المكان الذى وقعت فيه التجربة السالفة الذكر ، ووضعت فوقهما صخرة تقيهما يد العبث .

ولكن فلنفرض أن هذه القصة مختلقة من بدايتها إلى نهايتها ، ولنحرق السجل الذى ضمها ، ولنعتبرها خرافة ، ولنقبل التسليم بما يروقك ويرضيك ، ولا نذعن للقول بأن الآلهة تربطهم بالشئون الإنسانية أية رابطة ، ولكن أعرنى سمعك ، ألا تنبىء قصة « تباريوس جراكوس » Tiberius gracchus التى

---

(١) كانت تجتمع فيه هيئات الشعب المختلفة للانتخاب أو لغيره من شئون الدولة ، وقد كان لكل مدينة رومانية سوق عامة : Forum يلتقى فيها أهل المدينة للتشاور فى شئونهم .

تضمنتها كتاباتك (١) بأن العيافة والعرافة فنان من الفنون، فان «جراكوس» قدأقام خيمة (٢) وخالف قانون الكهانة عفوا، بأن عبر التخوم المقدسة قبل أن يتم استنباء الطيور، ومع ذلك فقد أقر انتخاب القنصل. إنك تعرف هذه الحقيقة حق المعرفة، لأنك سجلتها فى كتاباتك، وفوق هذا فان «جراكوس» — وكان من أهل العيافة — قد أيد سلطان التكهن عن طريق الطيور، فاعترف بخطئه، ورفع الكهان بدورهم من سلطان حرفتهم، نخفوا إلى مجلس الشيوخ عقب الانتخابات مباشرة، وأعلنوا بأن المشرف على الانتخاب كان يعمل بغير سلطة صفة شرعية.

تأييد التكهن بنوعيه: الصنعى والطبيعى

١٧ — أنا إذن متفق مع هؤلاء الذين قرروا وجود ضربين من التكهن بالغيب، يتصل أحدهما بالصناعة (٣) ويبتعد الثانى عنها، وهؤلاء العرافون الذين يستخدمون الصناعة، ينزعون — وقد عرفوا المعلوم عن طريق المشاهدة — إلى اكتشاف المجهول عن طريق الاستنباط، أما الذين يستغنون عن الصناعة، ولا يستعينون بالعقل أو الاستنباط، ولا يهتمون بملاحظة الشواهد التى سجلت بعد مشاهدات أجريت، فانهم يكشفون المستقبل وهم فى حالة تهيج عقلى — جذب — أو انفعال حر غير مقيد، وكثيرا ماتقع هذه الحال فى أحلامهم وهم نيام، وقد تقع للذين ينبئون بالغيب وهم فى حالة

---

(١) قارن «شيشرون» فى الفقرة الرابعة من الكتاب الثانى من «طبيعة الآلهة» (لويب) ثم انظر الفقرة الخامسة والثلاثين من الكتاب الثانى هنا، ففيها مناقشة شيشرون لهذا المثال.

(٢) كانت الخيمة (tabernsculum) توضع فى مركز بقعة يلاحظ فيها الكاهن الطيور، أما التخوم المقدسة (Pomerinm) فكان يراد بها حدود المدينة وكانت تقام فيها الخيمة السالفة الذكر، فاذا عبر الكاهن هذه الحدود قبل أن تنبئه الطيور سانحة أو بارحة، وجب أن يتخير مكانا آخر ويعيد فيه استنباءها من جديد (لويب).

(٣) أطلق مجمع فؤاد الأول للغة العربية كلمة «صنعى» على ما يقابل عند الفرنجة Artificial (fr. ielle) و «طبيعى» على ما يقابل Natural (fr. elle) .

جنة ، وقد وقع هذا لـ ، با كس Bacis [1] من أهل بيوتيا و ، ابمنيدس Epimenides الكريتي ، وكاهنة إريتريا [2] وتدخل النبوءات التي يهبط بها الوحي في هذا النوع الأخير من التكهن (اللاصنعي) ، ولسنا نقصد النبوءات التي تكون بطريقة الأنصبة التي جعلت متساوية [3] ، بل نعني تلك التي يتكشف عنها الإلهام ، وإن لم يكن التنبؤ بالأنصبة موضع احتقار في ذاته — متى أيدها القدم ، كما نرى في الأنصبة التي تكشفت عنها الأرض [4] — فيما تقول القصة المتواترة — ومهما يكن من شيء فاني أميل إلى الاعتقاد بأن من الممكن أن تسحب الأنصبة بحيث تستجيب لمطالبنا بقدرة إلهية ، ويلوح لي أن الذين يستطيعون أن يؤولوا جميع هذه الشواهد المنبئة عن المستقبل تأويلا صحيحاً ، يشبهون الآلهة الذين يقوون على كشف الغيب ، ويستطيعون أن يؤولوا هذه الشواهد متى أرادوا ، كما يؤول أهل العلم شعر الشعراء .

فبأي نوع من المهارة القائمة على الدجل، تحاول أن تقلب الحقائق التي مكن لها الزمان الطويل . . ؟ إنك تقول إن الكشف عن أسبابها قد فاتني ، قد يكون هذا سرا من أسرار الطبيعة الخفيـة ، إن الله لم يشأ أن يطلعني على أسبابها ، ولـكنه مكنني من الإفادة من هذه الطرق التي منحني إياها ، ولهذا فسأستخدمها دون أن آذن لنفسي بالاعتقاد بأن الشعب الاتروري بأسره قد طاش وضل سبيل الرشاد في اعتقاده في التكهن عن طريق النظر في الأحشاء ، أو أنه جنح عن السداد في إيمانه بالتنبؤ عن طريق البرق ، أو أنه أساء تأويل النذر التي تنبيء عن الشر المقبل ، فإن قرقرة الأرض وزئيرها وزلزلتها ، كثيراً

---

(١) كان يوجد فيما يقول كليمان الأسكندري ثلاثة كهان يحملون هذا الاسم ، أولها المشار إليه هنا والثاني من أركاديا ، والثالث من بيوتيا ، ولـكن الأول أشهرهم . أنظر في تقسيم التكهن ، الفقرة السادسة في الـكتاب الأول والحادية عشرة في الـكتاب الثاني .

(٢) كانت «هروفايل» Herophile هي الكاهنة التي ذهبت أخيراً إلى « كوماى » Cumae (لويب) .

(٣) لا نعرف الآن ما يراد بهذه الأنصبة (aequates sortibus) (لويب) .

(٤) كانت هذه ألواحا من السنديان أقيمت في معبد إلهة الحظ في « براينستى » ، وكان عليها كلمات منقوشة (لويب) .

ما لوحت لنا ولغيرنا من الأمم بنذر نكبات توشك أن تقع، فلماذا يسخرون اليوم من العرافين الذين تنبأوا باستهداف الدولة لسلسلة شرور لا تحصى، اعتماداً على أن بغلة — وهي حيوان عقيم بطبعه — وقد ولدت فلوا..؟[1].

وإني لأرجو أن تنبئني عما تقول في حادثة «تباريوس جراكسوس» ابن «بوبليوس» وهي المعروفة حق المعرفة، فقد كان رقيباً وقنصلا مرتين، وكان أعرف الناس بفن العيافة، وحكيما ومواطناً ممتازاً، وقد أمسك — فيما تروي القصة التي خلفها لنا ابنه «جايوس» Gaius بثعبانين في بيته، واستدعى العرافين ليستشيرهم في أمرهما، فأنبأوه بأنه إذا أطلق سراح الذكر منهما، وأدركت المنية العاجلة زوجه لا محالة، فان أطلق الأنثى منهما، عجل الموت باختطافه — ما في ذلك شك ولا ريب — فرأى أن موته العاجل — وهو طاعن في السن — أنسب من موت زوجته ابنة «بوبليوس» الإفريقي، وقد كانت في مقتبل الشباب، فأطلق أنثى الثعبان، وسرعان ما أدركه الموت بعد ذلك بأيام[2]...!

١٨ — ولكن فلنسخر من العرافين، ولنصفهم بالمكر والخداع، ولنحتقر حرفتهم، ولو دلل «جراكوس» الحكيم بظروف موته ونتائجه على أنها مهنة خليقة بالتقدير، ولنهزأ بالبابليين كذلك. ولنسخر بأهل التنجيم الذين يلاحظون وهم فوق قمة جبل القوقاز شواهد السماء، ويتتبعون مسالك النجوم مستعينين بالرياضيات، ولنقرر بأن هؤلاء القوم الذين شغلت

---

(١) في «هيرودوت» ج ٣ ص ١٥١ — ١٥٣ مثال آخر فيما نشير اويب، ويقول مترجم جارنييه: إن القدماء قد لاحظوا أن الحيوانات التي تجيء من نوعين مختلفين — كالبغال — لا تنسل، ويذكر هيرودوت الكلمة عن سكان بابل وفارس فيقول: ستأخذون بلدنا عندما تلد البغال... ولهذا كانت ولادة البغلة نذيرا بشر مقبل لأن هذا مخالف لقوانين الطبيعة في عرف الناس. أنظر الرد على هذا في الفقرة الثانية والعشرين من الكتاب الثاني.

(٢) روى قصة الثعبانين بما يقرب من هذا «بلوتارك» في حياة: Grecque و «فاليروس مكسيموس» (IV,6,I) Pline l'aucien, (Hist. nat VII,٤6) (جارنييه).

وانظر مناقشة شيشرون لهذا المثال في الفقرة التاسعة والعشرين من الكتاب الثاني

سجلاتهم — فيما يقولون هم أنفسهم — أربعمائة وسبعين ألف عام[٢]، قد انطووا على سفه وزيف وتبجح، ولنتهمهم بالكذب وعدم الاكتراث بالرأى الذى أيدته الأجيال المتعاقبة، ولنسلم بأن البرابرة جميعاً خداعون أدنياء، ولكن هل نصف بالكذب مؤرخى الأغريق كذلك »... ؟

تأييد التنبؤ الطبيعى :

ا — التنبؤ عن طريق الوحى (دلفى) :

وإذا نحن تحدثنا عن النوع الطبيعى، فى التكهن بالغيب، فان كل امرىء يعرف النبوءات التى أجاب بها وحى الكاهنة « بيثيا » عن أسئلة « قارون » Croesus وأهل أثينا واسبرطه، وأهل تيجيا وأرجوس وكورنثة . وقد قام « كريسبوس » Chrysippus بجمع عدد كبير من هذه النبوءات، واثبت كل حادثة منها بأدلة وافرة، ولكنى لن أتعرض للحديث عنها لأنك تعرفها حق المعرفة، وحسبى أن أقول فى دفاعى « إن مهبط الوحى فى دلفى، ما كان يكثر زواره على هذا النحو، ويشتهر إلى هذا الحد، ويزدحم بالقرابين تقدمها الشعوب والملوك من كل صوب، لو أن الناس فى مختلف العصور لم يضعوا صدق نبوءاته موضع اختبار . والآن وقد تغير هذا منــــذ زمان طويل، واضمحلت شهرته فى الوقت الحاضر، إذ لم يعد له من بُعد الصيت ما كان له قديماً، فانه ما كان يصيب هذه الشهرة فى ماضيه، لو أنه كان غير خليق بالتقدير فى أعلى مراتبه، ومن الممكن أن تكون الأبخرة الأرضية التى كانت تضىء نفس كاهنة « بيثيا » بالإلهام الإلهى قد اختفت بالتدريج على مر الزمان كما جفت — فيما نعلم — أنهار واختفت من الوجود، بينما غيّر بعض الأنهار الأخرى بالانحراف والدوران مجراه، ولكن فسر اضمحلال الوحى كما

---

(١) قارن « ديودورس » الصقلى (Bibl 11. p. 118) (٤٧٣,٠٠٠) و « لاكتانتيوس » فى (Div Inst VII,ch.14) ولكن أنظر Pliny « بلايني » فى (H.N. VII 56) (لويب) ومناقشة شيشرون لهذا فى الفقرة السادسة والأربعين من الكتاب الثانى .

تشاء ، ما دام هذا التفسير يهيء لنا مجالا رحباً للمناقشة ، فى أن مهبط الوحى فى دلفى ، وقد صدرت عنه نبوءات صادقة مئات كثيرة من السنين ، ولكن بشرط أن تقدم لنا فى تفسيرك ما يؤدى إنكاره لا محالة إلى تشويه التاريخ كله

ب — تأييد التنبؤ عن طريق الرؤيا :

١٩ — ولكن فلندع الوحى ، ولنتحدث عن الأحلام ، وقد حشد « كريسبوس » — كما فعل « أنتباتر » Antipater[1] حشداً من الأحلام التافهة وقام بتعبيره وفقاً للقواعد التى وضعها « أنتيفون » : Antiphon للتأويل ، إنى أسلم بأن البحث يكشف عن نفاذ النظر عند واضعه ، ولكنه كان يحسن صنعاً لو أنه صور فى بحثه نماذج من أحلام أكثر جدية مما عرضه منها ، وقد قدم لنا « فيلستوس » Philistus — وهو عالم دقيق يكتب عن أحداث عاصرها — تلك القصة التالية التى وقعت لأم « ديونسيوس » Dionysius طاغية سيراقوص Syracuse ، ذلك أنها كانت تحمل فى بطنها طفلا — هو ديونسيوس السالف الذكر — فرأت فى منامها أنها وضعت إلها من سكان الغابات يتمثل فى صورة تجمع بين الإنسان والعنزة ، فلما ذكرت هذا الحلم لمعبرى أحلام السوء الذين أطلقوا عليهم فى صقلية اسم Galeotae[2] أجابوا فيما يروى « فيلستوس »[3] ، بأنها ستلد ابنا يكون فى مقبل أيامه واسع الشهرة فى بلاد الأغريق ، ويتمتع بحياة يصحبها التوفيق وتمتد أجلا طويلا .

ألا أذكرك ببعض القصص التى وردت فى آثار الشعراء من الرومان والأغريق .. ؟ إن الحلم التالى — على سبيل المثال — قد وقع للعذراء

---

(١) كان أثينيا ، وقد أدرك عهد أفلاطون ، وكان يؤول الأحلام ، ويتحدث «لوكيان» فى تاريخه عن معبد جزيرة الأحلام ، فيقول إن « أنتيفون » مؤول الأحلام كان كاهن المعبد ورئيسه (لويب) ويقول مترجم جارنييه إنه وضع بحثاً معروفاً عن تأويل الأحلام .

(٢) هم كهان فى صقلية ، أطلقوا عليهم هذا الاسم ، لأنهم كانوا يدعون أنهم أبناء « جاليوتس » بن أبولو (ديماريه) .

(٣) قيل إنه من قراطيس وهى فى مصر ، وقيل إنه من سيراقوص (ديماريه) .

العفيفة فيما يروى « إنيوس » [١] :

(إن ريا سلفيا ابنة نوميتر التي حملت من « مارس » وأنجبت جدي الرومان: روميلوس وريموس ، قد رأت في منامها ، أن رجلا جميل الطلعة قد حملها إلى أراض مجهولة[٢] ، وأخذها إلى غابات جميلة ، وشواطىء وأماكن جديدة ...)

٢٠ — أنا أسلم بأن هذا الحلم خرافة ولدها مخ شاعر ، ولكنه لا يتعارض مع ماخبرناه من أحلام واقعية ، وقد يكون الخيال هو الذي حاك قصة الحلم التالي ، الذي أزعج بريام .Priam إزعاجا رهيبا [٣] .

(رأت زوجته هكيوبا Hecuba في منامها أنها وضعت شعلة من نار ، وفسر الحلم بأنها ستلد باريس — صاحب قصة باريس المشهورة ...)

وأكرر القول بأنا سنسلم بأن هذه الأحلام من نسيج الخيال ، ولنضف إليها حلم «إينياس» .Aeneas الذي رآه مواطننا فابيوس بكتور Fabius Pictor[٤] في حولياته عن أحداث اليونان ، فان كل ما فعله أو قاساه — فيما يقول بكتور — قد وقع على التحقيق كما تكهن به حلم رآه .

٢١ — ولكن هيا نستعرض أمثلة أدنى إلى عصرنا عما أسلفناه ، أتجرؤ على أن تسمي الحلم المعروف الذي رآه تاركوين المتكبر The Proud Tarquin

---

(١) من حولياته ، وقد كانت العفيفة هي « ريا » أو أخت « نوميتر » وأم « روميلوس وريموس » ولدتهما من المريخ إله الحرب (لويب وجارنييه) أنظر كتابي قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٣١ وما بعدها من الطبعة الثانية .

(٢) الاشارة هنا إلى المريخ إله الحرب — قارن Ovid. Fast. III. 13 (لويب) .

(٣) يرى مترجم لويب أن صاحب النص غير معروف ، ولكن مترجم جارنييه يقول إن هذه الأشعار من مأساة وضعها « أنيوس » وأن « ريبك » و « فاهلن » يظنان أنها كانت تحت عنوان « الاسكندر » .

(٤) هو « نومريوس فابيوس بكتور » وهو ثاني اثنين يحملان هذا الاسم « فابيوس بكتور » ، أولهما « كونتوس فابيوس » . وقد لقب بيكتور لأنه نقش معبد الصحة في روما (دعاريه) .

خرافة حاكها الخيال . . ؟ إنه يصف هـذا الحلم بنفسه فى أبيات أوردها أكيوس Accius [1] فى قصته المسماه بروتس Brutus :

(رأى فى منامه أنه أخذ خروفين أخوين ، فذبح أحدهما ، ولـكن الخروف الثانى قد ألقاه على الأرض وهجم عليه بقرنيه ، فرأى وهو مستلق على الأرض أن الشمس قد غيرت مجراها) .

والآن انظر كيف أول المعبرون هذا الحلم :

حذر المعبرون الملك من شخص متبالد يحسبه الملك خروفا ، وقالوا إنه قد يلقى بالملك من شاهق مركزه ، أما تغير مجرى الشمس فينبىء عن تغير الحكومة ، وإن كان تغيرا محمود العاقبة ، لأن الشمس كانت تجرى من اليسار إلى اليمين .

الأحلام عند غير الرومان

٢٢ — ولـكن فلنعد الآن إلى أمثلة أخرى — من الأحلام التى وقعت لغير الرومان — فإن هراقليدس من أهل بونتوس Heraclides Ponticus وهو رجل من أهل العلم ، وأحد تلامذة أفلاطون وحوارييه — يقص رؤيا رأتها أم فالاريس Phalaris فيقول إن الكرى قد عقد أجفانها ، فرأت نفسها تنظر إلى صور الآلهة المقدسة القائمة فى بيتها ، وإذ بتمثال ميركيورى : Mercury يصب الدم من قارورة فى يده اليمنى ، وما اتصل الدم بالأرض حتى رؤى وكأنه ينبثق منها فى غزارة حتى ملأ رحاب البيت ، وقد تحققت هذه الرؤيا فيما بعد ، بما أبداه ابنها من قسوة خلت من مظاهر الإنسانية .

وهل ترانى فى حاجة إلى أن أقدم لك من التاريخ الفارسى الذى وضعه دينون Dinon أحلام الأمير المعروف كاروس Cyrus وتأويل كهنة الأقدمين لها .. ؟ إليك هذا الحلم على سبيل المثال :

---

(١) هو « لوكيوس أكيوس » وقد وضع كثيراً من المآسى بعـد « باكوفيوس » بقليل ، وقد ذاعت شهرته فى قصليـة دكيوس بروتس حول عام ٦٢٥ من تقويم روما (دعاريه) .

رأى كايروس فى حلم له ذات مرة أن الشمس قائمة عند قدميه، وقد حاول عبثا — فيما يقول دينون — أن يمسكها ثلاث مرات، وفى كل مرة تبتعد عنه وتهرب منه، ثم اختفت أخيرا، وأنبأه كهنة الفرس القدامى — الذين كانوا يعتبرون بين الفرس حكماء وعلماء — بأن إمساكه للشمس ثلاث مرات، ينبىء بأنه سيتولى الحكم ثلاثين عاما[١]، وقد تحقق هذا، لأنه عاش حتى بلغ السبعين من عمره، وكان قد بدأ الحكم فى سن الأربعين.

ومن المحقق أن البرابرة بدورهم قد أوتوا القدرة على سبق النظر والتنبؤ بالمستقبل، إذا صحت القصة التالية التى وقعت للهندى كالانوس[٢] Callanus إذ بينما كان مشرفا على الموت، مرتقيا كومة الخشب التى يحرق عليها جثمانه قال: ما أجله من موت، إن مصير «هرقل» Hercules قد قدر لى، إذ عندما يحترق هذا الجسد الفانى، تجد النفس النور، ولما طلب إليه الإسكندر أن يتكلم إن أراد أن يقول شيئا، أجابه قائلا: «أشكرك، لا لشىء سوى أنى سأراك قريبا جدا»، وقد تحقق ما قاله، لأن الإسكندر قد مات فى بابل بعد أيام قليلة.

لقد ابتعدت عن الأحلام قليلا، ولكنى سأعود إليها بعد حين، إن كل امرىء يعرف أن معبد «ديانا»[٣]، فى أفسوس، قد احترق فى نفس الليلة التى ولدت فيها «أوليمبياس» Olympias ابنها الإسكندر، وأن كهنة الفرس

---

(١) هذه هى مدة الحكم فيما يقال عادة، ولكن البعض يرون أنها واحد وثلاثون عاما، قارن هيرودوت ج ١ ص ٢١٤ و Sulpic Sev. H.S, 11,9. (لويب)

(٢) قيل إنه كان برهمانيا، وأنه أصيب بمغص حاد وهو فى الثالثة والثمانين من عمره فاعتزم أن يموت على مرأى من الجماهير فوق كومة وقيد، وقد أحضر الاسكندر جيوشه لشهود هذا المنظر تكريما له (دعاريه).

(٣) هى إلهة الخصوبة، وهى أكثر ما تكون شبها بأزيس المصرية، أما «ديانا» الايطالية فهى إلهة النور وهى ابنة «جوبتر» و «لاتون» وهى إلهة الصيد ترسل الأوبئة والجدب، وتنقذ وتشفى معا، وهى تقابل «أعيس» عند الإغريق.

القدامى ، قد أخذوا يصيحون مطلع النهار قائلين : لقد ولد ليلة أمس ، شقاء مهلك ينتظر آسيا — والآن دعنا من الحديث عن الهنود وكهان الفرس القدماء.

٢٣ — فلنعد إلى الأحلام ، يقول « كويليوس » Coelius (١) إن هانيبال قد همّ بالاستيلاء على عمود ذهبي في معبد « چونو » Juno في « لاكينيوم » — وهو رأس في جنوبي إيطاليا — وإذ كان في شك مما إذا كان هذا العمود من ذهب مصمت أو مغطى بقشرة من الذهب ، فقد ثقب فيه ثقبا ، فألفاه ذهبا خالصاً ، وعندئذ اعتزم أن يغتصبه ، ولكن « چونو » قد تبدت له في مساء هذا اليوم في رؤيا ، وحذرته من مغبة الإقدام على هذا العمل ، وهددته بأن تفقده عينه السليمة إن أقدم على فعلته ، فلم يهمل هذا الرجل الذكى ذلك النذير ، بل لقد أمر بأن ينتزع بعض الذهب من ثقب العمود ، وتصنع منه صورة عجل توضع في قمته.

ونرى قصة أخرى عن « هانيبال » وضعها باليونانية « سيلنوس » Silenus الذي يحتذيه « كويليوس » ، والذي تناول حياة هانيبال بالدراسة الدقيقة ، ذلك أنه بعد استيلائه على « سغنتم » Saguntum قد رأى في حلم له أن چوپتر قد استدعاه إلى مجلس شورى الآلهة ، فلما بلغ المجلس . أمره « چوپتر » بأن يشعل نار الحرب في إيطاليا ، وقدم له أحد آلهة المجلس مرشدا له ، وقد اهتدى به « هانيبال » عند ما بدأ مسيره بجيشه ، وقد حذر هذا الإله « هانيبال » من أن يلتفت وراءه ، ولكن « هانيبال » — مدفوعاً بحب الاستطلاع — لم يستطع أن يصبر على ذلك طويلا ، وتلفت وراءه فعلا ، فرأى وحشاً مخيفاً ضخم الجسم تغطيه الثعابين ، يقتلع كل ما يصادفه في طريقه من شجيرات وأشجار وبيوت ، فاستفسر هانيبال في دهشة عمّ يكون هذا الوحش الغريب ،

(١) يشير اليه المؤلف فى الكتاب الأول من قوانينه ، باعتباره مؤرخا من قدماء المؤرخين الممتازين (دعاريه) .

فقال له الإله : إنه يمثل دمار إيطاليا ، وأمره بأن يمضى فى سبيله قدما ، وألا يعبأ بما يقع وراءه وفى مؤخرته (١) ...

ونقرأ فى تاريخ وضعه « أجاثوكليس .Agathocles أن « هملكار » Hamilcar القرطاجنى ، قد سمع أثناء حصاره لسيراقوص — صوتاً فى الحلم ينبئه بأنه سيتناول غداءه فى اليوم التالى فى هذه المدينة ، وعند مطلع هذا اليوم نشب صراع عنيف فى معسكره ، بين كتائب القرطاجيين وحلفائهم من أهل صقلية ، فلما رأى أهل سيراقوص هذا ، قاموا بهجمة مفاجئة على المعسكر وحملوا « هملكار » حيا ، وهكذا تحققت الرؤيا بهذه الحادثة .

إن التاريخ حافل بمثل هذه الأحداث ، وحياتنا اليومية مليئة كذلك بنظائرها ، ولكن دعنى أقص عليك حادثة أخرى :

كان ابن « كونتوس فابيوس .Quintus Fabius » : وهو « پوبليوس دكيوس » .Publius Decius : صاحب الشهرة الطائرة أول من كان قنصلا من أفراد هذه الأسرة ، وقد كان حاكما عسكريا ، فى قنصلية « ماركوس ڤاليريوس » M. Valerius (٢) و « أولوس كورنليوس » Aulus Cornelius فى الوقت الذى كان فيه جيشنا يعانى من حملة مريرة قام بها « السمنيون » Samnites وقد دفع « كونتوس » بنفسه إلى ميدان القتال بكل جرأة ، فنصحوا له أن يكون أكثر حيطة وحذراً ، ولكنه أجابهم — فيما يقول التاريخ — قائلا :

« لقد رأيت فيما يرى النائم أن موتى وسط الأعداء سيكسبنى صيتاً مخلداً » ورغم أنه قد نجا بنفسه حينذاك ، وأنقذ الجيش من الأخطار التى كانت تحوطه ، فانه عند ما تولى القنصلية بعد أعوام ثلاثة ، وقف للموت حياته (٣) ، فهجم مكتمل السلاح على خط قتال اللاتين ، وأدركت الهزيمة أعداءه وأصابهم

(١) قارن كتابى « قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة » ص ١٠٧ — ١٠٨ طبعة أولى
(٢) فى عام ٣٤٣ ق . م (لويب)
(٣) أنظر « ليفى » ج ٨ ص ٩ عن احتفالات التكريس (لويب)

الدمار من جراء هذا الإقدام ، فكان موته جليلا ، حتى التمس ابنه أن يصيب هذه الشهرة نفسها ، ولكن فلنمض الآن — إن أذنت — إلى التحدث عن أحلام الفلاسفة :

أحلام الفلاسفة :

٢٤ — ونقرأ فى أفلاطون أن سقراط عندما كان فى سجنه ، قال فى حديث له مع صديقه « أقريطون » Criton ستدركنى المنية بعد أيام ثلاثة ، فقد تراءت لى فى الحلم سيدة فتانة الجمال وهتفت باسمى، وأنشدتنى هذا البيت عن هومير [١] :

سيطلع عليك بالبشر ، فجر اليوم الثالث وأنت آتئذ على شاطىء فثيا (Phthia) .

وينبئنا التاريخ بأن مصرعه قد حقق هذه النبوءة ، ويسجل تلميذسقراط وهو اكسانوفون — وأى رجل هو — تلك الأحلام التى تراءت له أثناءقتاله مع « كايروس » الأصغر ، وكيف كان تحققها رائعاً [٢] ، فهل تزعم أن اكسانوفون Xenophon كذاب أو مصاب فى عقله . . ؟

وأرسطو ، الذى وهب عقلا منقطع النظير ، يكاد يشبهالعقول التى تمتاز بها الآلهة ، هل أخطأ أو حاول أن يخدع غيره فيما يرويهعن صديقه إيدموس

---

(١) أشار مترجم اويب الى أن هذا مذكور فى الالياذة ج ٩ ص ٣٦٣ ، والى أن Phthia مدينة فى تساليا . وهى تعبر عندسقراط عن مقره فى السماء . وروى مترجم جارنييه أنها وطن « أشيل » وأن حلم سقراط مذكور فى محاورة « اقريطون » . وفى الحديث نوع من اللعب بالألفاظ يدركه الملمون باللغة اليونانية ، وقد أشار الأستاذ « تايلور » فى مادة : أحلام Dreams فى دائرة معـــارف الدين والأخلاق إلى أن الحلم السالف شبيه بحلم فيثاغورى .

(٢) « اكسانوفون » فى Anab iii, 1.11;iv,3 8.: أما مترجم جارنييـه فقد ذكر أن « اكسانوفون » فى الـكتاب الثالث فى الفقرة الأولى من الـكتاب المشار اليه قد روى عن نفسه أنه رأى حلما ينبىء عن الخير فى جملته ، رغم أنه استيقظ منه مذعورا وربما كان ينتظر أن يصيبه خطر دائم ، ولـكن « زيوس » جنبه هذا الشر وربما كان للحلم مغزى آخر لاينبىء عن هذا الخير كله فيما يقول اكسانوفون — ولـكن كونتوس لا يعبأ بهذا الشك .

Eudemus [1] القبرصي . . ؟ فقد قال عن هـذا الصديق إنه كان ماضياً فى طريقه إلى مقدونيا ، ثم بلغ « فراى » Pherae وهى مدينة طائرة الصيت فى فى « تساليا » ، ولـكنها كانت تئن تحت حكم الإسكندر [2] الطاغية الجبار ، وهناك اعتراه مرض بغيض يئس الأطباء من شفائه ، وقد رأى إبان مرضه رؤيا ظهر فيها شاب . فاتن الجمال ، وأنبأه بأن شفاءه سيكون عاجلا ، وبأن الإسكندر الحاكم الظالم سيختطفه الموت بعد أيام قلائل . أما هو — « إيدموس » — فسيعود إلى وطنه بعد خمسة أعوام . وفى الحق لقد تحققت النبوءتان الأوليان على عجل كما قرر أرسطو ، فنقه « إيدموس » من مرضه ، وقتل الطاغية أخو زوجه . . وبعد انقضاء الخمس سنوات كان يأمل أن يعود من صقلية إلى قبرص، اعتماداً على الرؤيا التى وقعت له ، ولـكنه قتل فى معركة نشبت أمام « سيراقوص» واستناداً إلى هذا قالوا فى تأويل الحلم ، إن المراد به أن تعود النفس إلى وطنها بعد أن تفارق الجسد .

ولنضف إلى شهادة الفلاسفة شهادة رجل واسع العلم ، وشاعر إلهى مطبوع ، ونعنى به « سوفوكليز » Sophocles فقد سرق من معبد « هرقل » [3] طبق ذهبى ثمين ، فظهر الإله نفسه فى رؤيا رآها « سوفوكليز » وأنبأه عن السارق ، ولـكن « سوفوكليز » قد أهمل أمر هذا النبأ الذى تراءى له مرتين ، فلما عاوده الإله بعد هذا ، مضى إلى المحكمة العليا للأثينيين Areopagus [4] ورفع

---

(١) فقد كتابه « ايدموس » قارن : .Plut Dion, 22 (لويب)

(٢) قتله أخوة زوجته حول عام ٣٥٠ ق . م قارن .Xen Hellen VI. 4.35 (لويب)

(٣) ينبغى أن نميز بين هرقل البطل ، وهرقل الأله الذى عرفته الديانة الفينيقية ، وقد كان « هرقل » علما على كثيرين عند القدماء . وقد قرر « ديودور » أنهم ثلاثه وقال « شيشرون » إنهم ستة ، وزعم قارون : Croësus إنهم ثلاثة وأربعون والأله « هرقل » فيما تقول الأساطير ، هو ابن جوبتر و « الكمان » (باشليه وديزوبرى)

(٤) « الاريوباجوس » محكمة أثينا ، وكانت تنعقد ليلا ، ولا تقبل مرافعة المحامين مخافة أن يتأثر القضاة بفصاحتهم ، وهذا النظام يذكرنا بمحاكم مصر القديمة ، وكانت إن قبلت دفاع المحامين حذرتهم من استخدام أساليب الفصاحة ، وغيرها من الطرق التى تجنح بالقضاء إلى غير العدالة . وكانت محكمة أثينا إلى عهد « سولون » أرستقراطية ثم أصبحت على يده تتولى الإشراف على الأخلاق والعـادات ونحوها ، وكانت أول أمرها تبحث فى القضايا الجنائية ثم اختصت بعد هذا بشئون الإفتاء ، أما عدد قضاتها فكان يتغير فى كل عام — [باشليه وديزوبرى] .

الأمر أمام القضاة: فأمر هؤلاء بالقاء القبض على الرجل الذى ذكره «سوفوكلين» وقد اعترف المدعى عليه بجريمته بعد التحرى ، وأعاد الطبق المسروق ، وهذا هو السبب الذى من أجله سمى المعبد بمعبد « هرقل المنبئ » .

الأحلام فى المصادر الرومانية :

٢٥ — ولكن لماذا أسهب فى تصوير ما سجلته المصادر الإغريقية ، مع أن الأمثلة المستمدة من تاريخنا ، تروقنى أكثر مما تروقنى أمثلة تلك المصادر ؟ وهاك حلماً عرض له جميع مؤرخينا من الفابيين Fabii والجيليين Gellii قديماً ، وكويليوس Coelius حديثاً جداً ، وذلك أنه عند ما كان يحتفل إبان الحرب اللاتينية لأول مرة بالألعاب النذرية العظيمة ، دعيت المدينة فجأة إلى حمل السلاح ، فتوقف الاحتفال بهذه الألعاب ، ثم اعتزموا أن يعيدوها أخيراً ، ولكن حدث قبل أن يبدأوا مزاولتها ، وعند ما كان الناس يأخذون أماكنهم ، أن اقتيد عبد يحمل نيراً إلى الملعب ، وضرب بالمقارح[1] ، وبعد هذا رأى أحد العامة من الرومان حلماً تراءى له فيه شخص قال له إنه غير راض عن مرشد الألعاب ، وأمره بأن يبلغ هذا إلى مجلس الشيوخ ، ولكن هذا الرومانى العامى لم يجرؤ على أن ينفذ ما أمِر به ، فكرر الطيف هذا الأمر مهدداً صاحب

---

(١) الألعاب النذرية هى التى كان يأمر بها أحد الحكام لتنفيذ نذر تقدم إلى أحد الآلهة فى الوقت الذى كان يتهدد المدينة خطر ما ، ويلوح لنا أن « شيشرون » كان يقصد من هذه الألعاب تلك التى كان يجريها ويقوم بهـا الدكتاتور « ا . بوستوميوس توبرتوس » عام ٤٣٤ ق . م فيما يروى مترجم جارنيه . وأشار « ديماريه » إلى أن الاحتفال بالألعاب كان يبدأ دائما بدخول « بهلوان » والمراد بالدليل هنا هو — فيما تقول لويب — نفس العبد المشار اليه فى النص ، وقد كان الاحتفال يبدأ بضرب العبد حول الملعب ، وكان هذا الرومانى العامى « ت أتنيوس » . أنظر Livy 11. 36, Val. Max .71, 4. ويضيف مترجم جارنييه مصادر أخرى لهذه القصة : Tite, Live, 11. 36, Macrobe, Saturnales 1, 11,3—5 Denys d'Halicarnasse VII, 68, Vie de Coriolan. وإن وجد خلاف فى رواية القصة فى هذه المصـادر . واسم الفلاح الذى وقع له هذا الحلم المذكور بعد قليل هو « تيتوس لا ينيوس » أو « لا تينوس » .

الحلم بالأذى إن أهمل طاعته ، ومع هذا فان الرومانى لم يجرؤ على طاعته . وبعد هذا مات ابنه ، وتكررت الرؤيا نفسها للمرة الثالثة ، وعندئذ اعتراه مرض ، فأنبأ أصدقاءه برؤياه ، وتحت تأثير نصحهم حمل إلى دار مجلس الشيوخ على محفة ، وقص رؤياه على أعضاء المجلس ، وسرعان ما استرد صحته ، وعاد إلى بيته تحمله قدماه دون حاجة إلى التوكؤ على غيره[1] ، ولهذا اعتقد المجلس فى صدق رؤياه ، فيما تقول لنا القصة المتواترة ، وأعاد الاحتفال بالألعاب مرة أخرى .

وقد أنبأ « جايوس جراكوس » الكثيرين — فيما يروى « كويليوس » نفسه — بأن أخاه « تباريوس » قد تراءى له فى حلم عند ما كان يلتمس أن يعين فى وظيفة الحاكم المنوط بالأموال العامة فى روما — وكيل الخراج — وقال له : « مهما حاولت أن ترجىء قضاءك ، فانك مُلاق نفس الميتة التى لقيتها أنا لامحالة » ، وقد وقع هذا قبل أن يصبح Gaius تريبون العامة . ويقول « كويليوس » إنه سمع هذا من « جايوس » وأن هذا قد ردد النبأ لكثيرين غيره . فهل تجد ماهو أدعى لليقين وأدلّ على الصدق من هذه الرؤيا .. ؟ » .

٢٦ — ولكن أرجو أن تنبئنى عمن يستطيع أن يؤوّل الحلمين التاليين اللذين يطيل الحديث عنهما كتاب الرواقيين . . ؟ والحلم الأول يدور حول « سيمونيدس Simonides » الذى رأى مرة جثة رجل مجهول مسجاة فدفنها فى جوف الأرض ، ولما اعتزم أن يرحل بعدُ على ظهر سفينة ، تراءى له فى رؤيا طيف هذا الميت وأنذره بألا يقدم على السفر ، لأنه إن أبحر لاقى حتفه فى السفينه ، ومن أجل هذا عدل عن عزمه ، وأما الآخرون الذين أبحروا فقد لاقوا حتفهم جميعا .

أما الرؤيا الثانية فهى شائعة شيوعا واسع المدى ، وخلاصتها أن صديقين من « أركاديا » قد كانا فى رحلة ، ووفدا على « ميغارا » ، واستقر أحدهما فى فندق

---

(١) هذه مسألة يحسن تفسيرها السيكولوچى ، المليون بأثر الأيحاء والاستهواء الذاتى فى النفوس .

ومضى الثانى إلى بيت صديق له، و بعد أن تناو لا طعام العشاء ومضيا إلى الفراش، رأى الثانى فى سكون الليل حلما ترامى فيه زميله، وهو يتوسل إليه أن يمد له يد العون، لأن صاحب الفندق يدبر خطة لقتله، ورُوّع الرجل من هذا الحلم أول الأمر فاستيقظ، ولكنه ثاب إلى سكينته بعد، ولم ير شيئا يدعو للقلق فمضى إلى فراشه، ولما شرع فى النوم عاده الطيف نفسه، وقال له قد ضننت بمعونتى وأنا حى، فأتوسل إليك الآن أن تمنع بقاء جثتى بغير دفن، لقد قتلنى صاحب الفندق، وألقى بجثتى فى عربة، وغطاها بروث الحيوانات، وإنى أضرع إليك أن تكون فى الصباح عند أبواب المدينة قبل أن تبرحها العجلة.

وقد اقتنع الرجل بالرؤيا الثانية اقتناعا حمله على أن يقابل سائق العربة عند أبواب المدينة صباحا، ولما استفسر منه عما يحمل فى عربته، أدرك السائقَ الرعب، فنقل الرجل جثة صديقه من العربة، ورفع أمر الجريمة إلى السلطات، ولقى صاحب الفندق عقابه (١).

٢٧ — فأى حجة أقطع فى الدلالة على وجود الرؤيا التى تكون صدى الإلهام الإلهى من هذا الحلم — السالف — ..؟

ولكن لماذا نلتمس فى ثنايا التاريخ القديم مايوضح فكرتنا..؟ لقد رأيت حلما كثيرا ماقصصتُه عليك، ووقع لك حلم آخر كثيرا ماقصصتَه علىّ، ذلك أنى كنت حاكما على آسيا(٢)، فرأيتك فى حلم ممتطيا صهوة جواد، وقد وليت وجهك شطر شاطىء نهر كبير، ثم غصت فجأة إلى قاع النهر واختفيت عن الأنظار، فتولانى الروع وأدركنى الخوف، ولكنك عدت إلى الظهور بعد لحظة ممتطيا الجواد نفسه، ثم صعدت إلى الشاطىء المقابل، وقد علا البشر محياك، وهناك التقينا وعانق كلٌ منا صاحبه، أما المعنى الذى ينطوى عليه هذا

---

(١) قارن هذا فى الفقرة الخامسة والستين من الكتاب الثانى.

(٢) فى عام ٦١ ق. م قارن: Ad.lit. 1. 15 ولم يكن « كونتوس » قنصلا بل كان حاكما يلى القنصل فى المرتبة « لويب ».

الحلم فقد أبانه لى فى يسر أولئك المهرة فى تعبير الأحلام فى آسيا ، فكان تكهنا بالحوادث التى وقعت فيما بعد[١] .

والآن إلى حلمك ، وقد سمعته منك بالطبع ، ولكنى سمعته مرارا من مولانا سالوستيوس Sallustius [٢] . ذلك أنك إبان نفيك الذى كان مجيدا لنا وشؤما على الجمهورية ، قد وقفت اتقاءً لظلام الليل عند بيت ريفى فى سهل أتينا ، وبعد أن أصابك أرق شطرا طويلا من الليل ، غشيك نوم عميق ، ورغم أن رحلتك كانت تتطلب الإسراع ، فان « سالوستيوس » قد طلب إلى مرافقيه التزام الهدوء ، ولم يأذن لأحد بإزعاجك إبان نومك ، ولكنك استيقظت حول الساعة الثانية ، وقصصت عليه رؤياك ، وقد بديت فيها حزينا تتجول فى أماكن قد أجدبت من السكان ، وقابلت « جايوس ماريوس » Gaius Marius بضفائره التى كانت حزمة من العصى تلتف حول بلطة [٣] ، واستفسر منك عن سر حزنك ، فقلت له إنك نفيت من وطنك عنوة ، فطلب إليك ألا تدع للهموم سبيلا إلى قلبك ، وأخذك من يمناك ، وسلمك إلى أقرب حاجب رومانى ليقودك إلى معبد الذكرى [٤] قائلا ، إنك ستجد فى رحابه الطمأنينة والأمان ، وعندئذ هتف « سالوستيوس » — فيما يقول هو نفسه — قائلا لك : « إنك ستعود من منفاك عودا سريعا محمودا » ، وقد كنت مغتبطا

---

(١) يشير إلى نفى « شيشرون » عام ٥٨ ق . م بإيعاز من كاودبوس وعودته المظفرة عام ٥٧ ق م فيما يروى مترجم لويب ، وكان حكم « كونتوس » فى آسيا فى الأعوام ٦٧ — ٦١ ق . وقد نفى شيشرون أثناء هذه الفترة فيما يقول مترجم جارنييه ، وقد ناقش شيشرون هذا المثال فى الفقرة الثامنة والستين من الكتاب الثانى .

(٢) كان مولى « شيشرون » وقد أطلق هذا صراحة . وقد تبع شيشرون فى منفاه (لويب وديماريه) .

(٣) كشاهد على الانتصار (لويب) .

(٤) كان هذا هو المعبد الذى أقامه « ماريوس » احتفالا بانتصار « جوبتر » على الـ Cimbri عام ١٠١ ق . م وقد اجتمع فى المعبد مجلس الشيوخ عندما أقر عودة شيشرون من منفاه (لويب) . أنظر مناقشة شيشرون لهذا المثال فى الفقرة السابعة والستين من الكتاب الثانى .

بهذا الحلم — فيما يقول أيضا — وسرعان ماقرر المجلس فى معبد «ماريوس» قراره المجيد بصدد عودتك، بموافقة القنصل — وقد كان رجلا واسع الشهرة جديرا بكل تقدير — واستقبل قرار العودة بهتاف لم يسبق له نظير فى قاعة حافلة مزدحمة . وقد نبئت بأنك حين سمعت هذا قلت : ليس ثمة برهان أغرب من هذا فى الدلالة على الرؤيا التى يوحى بها الإلهام الإلهى .

نشأة الرؤيا الصادقة وحالات المس فى رأى الفلاسفة :

٢٨ — ولكن ربما قيل فى الاعتراض على هذا : « إن الكثير من الأحلام لايصدق » ولعل الأحرى أن يقال إن المعنى الذى يتضمنه هذا النوع من الأحلام خفىّ علينا ، ومع هذا فلنسلم بأن بعض الأحلام لا يصدق ، ولكن لماذا نكثر من الطعن فى الرؤيا الصادقة . . ؟ وهى فى الواقع كثيرا ماتقع إذا استسلمنا للنوم ونحن فى ظروف ملائمة ، أما إذا شرعنا فى النوم ونحن مثقلون بالطعام والشراب ، فان أحلامنا تضطرب وتفسد ، أنظر مايقوله أفلاطون فى جمهوريته على لسان سقراط(١) :

رأى أفلاطون :

عند مايستسلم المرء للنوم ، وتكون القوة الناطقة من نفسه فى تراخ وبلادة ،

---

(١) أفلاطون فى بدء الكتاب التاسع من الجمهورية ص ٥٧١ (لويب) ولكن فى تعليقات مترجم جارنييه ما ينبغى ذكره فى هذا الصدد ، يقول إن أفلاطون يبحث فى هذه القطعة الفكرة القائلة بأن الشهوات العنيفة التى يشبعها الإنسان إبان يقظته — وهذا يذكرنا برأى « فرويد » — تخمد أثناء نومه — متى أوى إلى فراشه مسرفا فى طعامه وشرابه ، أما إذا قامت العفة — أى ضبط النفس — فى ظروف ملائمة فهلا يمكن للمرء أثناء نوم الجسد أن يحظى بالجلاء Lucidité ؟

وأول ما ينبغى ملاحظته — فيما يقول صاحب هذا التعليق — أن ترجمة «شيشرون» ناقصة وتعوزها الدقة . . إن « أفلاطون » لا يقول بأن النائم ستقع له أحلام هادئة وصادقة فى تكهناتها ، وإنما يقول إن الصور التى ينتظر أن تبدو له فى الحلم لن تكون مخالفة للقوانين ، بل متمشية معها ، وأن القوة الناطقة فى نفسه سترتبط بالحقيقة ارتباطا كليا ، فهل معنى هذا أن هذا الجزء الناطق ستتهيأ له معرفة المستقبل ؟ إن هذا التفسير — فيما يلوح لنا =

وتكون القوة الشهوية التى تنطوى على الفظاظة والوحشية قد أفرطت فى التهام الشراب وازدراد الطعام ، فان هذه القوة الأخيرة تطغى على القوة الناطقة وتدفع بالمرء إلى النوم دون عائق ، وفى مثل هذه الحال تكون كل رؤيا تتمثل أمام الخاطر خلوا من المنطق ، فيحلم النائم بأنه يزنى بأمه أو يفسق فى رجل أو إله — وكثيرا مايفسق فى الحيوانات — أو قد يحلم بأنه يقتل إنسانا ويلطخ يده بسفك أثيم ، وأنه يقدم على أعمال قبيحة دنيئة بغير مبالاة ودون استحياء .

أما إذا استسلم للنوم امرؤ دأبه الاعتدال والقناعه فى حياته وطعامه ، وقوته المفكرة الناطقة نزاعة إلى أمر مشروع ، فياضة بأنبل الأفكار ، وتكون القوة (الشهوية) التى تغذيها اللذات البهيمية لم يجهدها الإفراط ، ولم ينهكها التفريط — لأن القاعدة تقول : إن حد النطق لا يصح متى أدرك الطبيعة إفراط أو أصابها تفريط — وعند ماتفتر — إلى جانب هذا — وتلين فى مثل هذا الإنسان القوة الثالثة (الغضبية) التى تشتعل فيها نار الغضب ، وبهذا يحسن الإنسان ضبط القوتين اللاناطقتين ، عند مايحدث هذا كله ، تضىء القوة الناطقة المفكرة ، وتصبح مهيأة لتلقى الرؤى قادرة عليها ، وعندئذ تكون أحلامه هادئة صادقة موثوقا بها ، هذا هو نص الألفاظ التى قالها أفلاطون تماما .

= يحتمل المناقشة ، ثم إن أفلاطون يعبر — فى إحدى الجمل التى يحذفها « شيشرون » — عن الفكرة القائلة بأن النفس الناطقة تجاهد لكى ترى وتشعر بما تجهل فى غياهب الماضى والحاضر والمستقبل ، وهذا عندما تكون بمأمن من القلق الذى ينشأ عن السرور أو الأسف الناتج عن شهوة الحصول على شىء مرغوب فيه ، أى أن النفس تحاول معرفة الغيب عندما تكون نقية لا يعكر صفوها شىء ، ومعنى هذا بكل بساطة — فيما يلوح لنا — أن وظيفة العقل الحقيقية هى البحث عن الحقيقة . ويرى أفلاطون أن الرجل الظالم هو الذى تتحكم فيه شهواته الحيوانية بحيث تخفت صوت العقل ، ويضع فى مقابلة ذلك ، الرجل يظل على العكس ساكنا أمام شهوته لما يريد ، ولا يتسرع فى غضبه ، أى الرجل الذى لاينقاد عقله لغير نفسه ، ولا يعتقد صاحب هذا التعليق أن القطعة التى اقتبسها « شيشرون » عن « أفلاطون » تحمل دلالة غير هذا .

٢٩ — وهل نثق فى آراء « أبيقور » أكثر مما نثق فى آراء « أفلاطون »..؟ أما عن « كارنيادس » فقد كانت لذة الجدل تحمله على أن يقرر هذا الرأى حينا، وذاك الرأى حيناً آخر، وربما بدا لك أن ترد على هذا قائلا : « ولكن أبيقور يقول ما يعتقد » — إلا أنه لا يعتقد شيئاً يستند إلى العقل أو يجدر بفيلسوف . . ! فهل يجوز بعد هذا أن نعتبر هذا الرجل أعظم من « أفلاطون » و « سقراط » اللذين يتفوقان على هؤلاء الفلاسفة الصغار بجلال اسمهما، حتى وإن لم يقدما دليلا يبرر رأيهما . . ؟ إن النصيحة التى يسديها إلينا « أفلاطون » هى أن نتهيأ للنوم بأبدان مستعدة للاحتلام، بحيث لا يعترى النفس خطأ أو اضطراب .

رأى الفيثاغوريين :

ولهذا السبب يُظن أن الفيثاغوريين قد حُرم عليهم الإفراط فى أكل الفول [١] لأن هذا النوع من الطعام، يولد فى المعدة الرياح، ويؤدى إلى حال من الصراع يتنافى مع ماينبغى أن تكون عليه نفس تبحث عن الحقيقة، ولهذا فان النفس عند ما تتجرد عن طريق النوم من علائق الحس، تستدعى الماضى، وتدرك الحاضر، وتتنبأ بالمستقبل، إذ أن الجسم النائم وإن كان يشبه فى امتداده الجثة التى فارقتها الحياة، فان النفس فيه حية وقوية، وتكون أوفر حياة وأعظم قوة عند مايدركها الموت وتتجرد من علائق الجسم كل التجرد، وهكذا تعظم قدرتها على التنبؤ كثيراً بدنوها من الموت ، ونذكر على سبيل المثال هؤلاء الذين يعتريهم مرض شديد مهلك، إنهم يرون الموت وهو يوشك أن ينقضّ عليهم، وتتراءى لهم الموتى فى أحلامهم، ويشتد نزوعهم إلى الشهرة،

---

(١) قارن Tertul فى كتابه عن النفس، فى الفصل الثامن والأربعين، وبلوتارك . Sympos 9. 10 وبلايني H.N.XV111. 12 (لويب) وقارن رأى أفلاطون والفيثاغورية برأى مفكرى الإسلام فى كتابنا « الأحلام » ص ١٣٧ — ١٣٨ طبعة أولى .

وفى مثل هذه الفترة يشعر الذين عاشوا على غير ما ينبغى أن يعيشوا ، بأسف عميق لما قدموا من آثام .

الموتى وإدراك الغيب :

وقد دلل « بوسيدونيوس » Posidonius على قدرة المشرفين على الموت على التنبؤ بالغيب ، فى قصته المعروفة التى رواها عن رجل من أهل « رودس » ، ذكر وهو على فراش الموت أسماء ستة رجال من عمر واحد ، متنبئاً بموعد مماتهم على الترتيب .

ويرى « بوسيدونيوس » أن الرؤيا التى تكون من وحى إلهام إلهى ، تجىء عن ثلاث طرق : أولها أن تكشف النفس الأشياء بذاتها ، لاتصالها بالآلهة ، وثانيها أن الهواء ملىء بالنفوس الخالدة التى انطبعت فيها بجلاء آيات الحق ، وثالثها أن الآلهة تتحدث بنفسها مع الناس وهم نيام ، وعندما يدنو الموت — كما أسلفت من قبل — يسهل على الناس أن يميزوا شواهد المستقبل ، وتشهد بهذا تلك القصة التى رويتها عن « كالانوس » Callanus [1] ويؤيده وصف « هومير » لهكتور الذى تنبأ عند موته بأن « أشيل » سيموت مبكراً .

الطبيعة البشرية والهجس :

٣٠ — ومن البيّن أنا ما كنا لنستخدم فى حديثنا الجارى هذا الاستعمال المألوف للهجس السابق بما سيقع ، إذا كانت القدرة على هذا الهجس لاوجود لها إطلاقاً . وفى البيت التالى المعروف الذى نظمه « بلاوتوس » Plautus[3] ما يوضح استعمال الهجس :

(هجست النفس عند ما بارحت الوطن منبئة بأن رحيلى عبث لا طائل

---

(١) انظر الفقرة الثامنة والعشرين من الكتاب الأول هنا . ثم قارن هذا باتجاه مفكرى الإسلام فى كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » .

(٢) الإلياذة ج ٢٢ ص ٣٥٨ (لويب) .

(٣) Aulular 11.2.1. (لويب) .

تحته) ويراد بالهجس [١] أن يوهب المرء إدراكا حسياً حاداً ، ولهذا يطلق على بعض المسنات من النساء : الهاجسات [٢] ، إذ المفروض أنهن واسعات العلم بالأمور ، وأضيف الهجس للكلاب كذلك ، وقيل للمرء الذى يعرف شيئاً قبل وقوعه ، إنه صاحب هجس بما يقع ، أى أنه يدرك بحسه المستقبل قبل انكشافه .

وإذن فنى النفس الإنسانية ملكة ملازمة لها ، تمكنها من الهجس أو سبق النظر بالمستقبل ، وقد بطن الله النفس بهذه الملكة ، وجعلها بإرادته جزءا مكونا لها ، فاذا نمت هذه الملكة على غير قياس ، فانها تسمى « مسا أو إلهاما إلهياً » يقع عندما تفارق النفس البدن ، متأثرة تأثرا قوياً بدوافع إلهية ، كما نرى فى المثال التالى ، إذ تقول « هكيوبا» [٣] إلى ابنتها كساندرا Cassandra (لم هذا الجنون ، وما سر هذه العيون الملتهبة ، وأين ذهبت تلك الحشمة وذاك العقل الذى زانك إلى عهد قليل . . ؟)

وقد أجابت كساندرا قائلة : (أى أمى يا أنبل النساء طرا ، إنى مرسلة لألقى نبوءات ، لأن أبولو يدفعنى رغما عنى ، ويجعلنى مجنونة لأنبيء عن المستقبل ، أيتها العذارى قرينات الشبيبة إن رسالتى تشين أبى وهو خير الرجال ، أيتها الأم العزيزة ، إن الأسى والحزن يملأ قلبى من أجلك ، لقد أنجبت لبريام — سواى — خير الأبناء ، إنه ليؤلمنى أن يكونوا نافعين ، وأنا ضارة ، مطيعين وأنا عاصية) .

---

(١) أهمل « دعاريه » ترجمة هذه الفقرة ، وأشار فى تعليقاته إلى أنها مجرد شرح لبعض المصطلحات اللاتينية واشتقاقاتها ، وأن من العسير نقلها إلى الفرنسية ، وأن إهمالها لا يؤثر لحسن الحظ فى سياق الحديث . ولكن مترجم جارنييه قد نقلها إلى الفرنسية وكذلك فعل Falconer فى طبعة (لويب) الانجليزية .

(٢) كالساحرات (لويب) .

(٣) أنجبت « هكيوبا » من « بريام» ملك تروادة تسعة عشر طفلا ،منهم « كساندرا» وقد فقدتهم جميعا — على وجه التقريب — فى حرب « تروادة » وتقول الأسطورة إنها نسخت كلبة ، وقد وضع « ايرويبدس » مأساة عن « هكيوبا » (باشليه ودبزوبرى) .

ما أرق هذه القصيدة، وأبلغ تأثيرها فى العواطف، واتفاقها مع أخلاق ناظمتها [١]. وإن كنت أسلم بأنها لا تتمشى مع موضوعنا، ولكن الفكرة التى أريد أن أؤكدها — وهى أن النبوءات الصادقة تظهر فى حال المس — تعبر عنها الأبيات التالية:

(لقد أقبل، لقد أقبل هذا المشعال الخارق فى الدم والنار [٢]، بعد أن اختفى عدة سنوات، أيها المواطنون: النجدة النجدة لإطفائه).

وليست «كساندرا» هى التى تتكلم بعد هذا، ولكنه إله تمثل بشرا (فينيء عن هجوم أسطول الإغريق ورجالهم على تروادة لاسترداد هيلينا).

٣١ — إنى أعتمد فى شرح فكرتى — فيما يلوح — على أساطير مستمدة من شعراء المآسى، ولكنك كنت المصدر الذى استقيت عنه مادة من نفس النوع السالف الذكر، ومع ذلك فإنها ليست خرافة، ولكنها حادثة واقعية، ذلك أن «جايوس كوبونيوس Gaius Coponius» وهو رجل يمتاز بالكفاءة والمعرفة الملحوظتين، قد وفد عليك فى «دايرخيوم» Dyrrachium [٣] حينما كان — كحاكم لروما — يتولى قيادة الأسطول الرودسى، وأنبأك بتكهن رجل من أهل رودس، الذين كانوا يشتغلون فى سفن التجديف ذات الصفوف الخمسة التى يعلو أحدها الآخر، وكانت النبوءة تقول إن بلاد الإغريق ستغرق فى بحر من الدماء فى نحو ثلاثين يوما، وأن «دايرخيوم» ستنهب، ويلوذ المدافعون عنها فرارا، فإذا ولوا الإدبار رأوا خلفهم منظرا رهيبا

---

(١) هذا النص، والنصان التاليان ربما كانت مستمدة من «هكيوبا» لأكيوس أو ربما كانت مقتبسة عن «ألكسندرا» لأنيوس (لويب).

(٢) الأشارة هنا إلى «باريس» الذى أبعدوه فى جبال «أيدا» بآسيا الصغرى، فعاش راعيا هناك (ولويب) وفى سفح هذه الجبال تقوم مدينة تروادة وعلى قمتها حوكم باريس (باشليه وديزبرى).

(٣) فى أثناء الحرب الأهلية التى نشبت بين قيصر و «پومپى» وقبيل معركة «فارسالوس» (٩ أغسطس سنة ٤٨ ق. م) وانظر الفقرة الخامسة والخمسين من الكتاب الثانى.

لحريق مخيف ، بيد أن الأسطول الرودسى سيعجل بالعودة إلى وطنه سليما .
لم تثر هذه القصة قلقاً فى نفسك ، ولكنها أثارت إزعاجاً شديداً لهذين الرجلين المثقفين : « ماركوس ڤارو M. Varro » و « ماركوس كاتو M. Cato. » اللذين كانا فى « ديراخيوم » حينذاك . وبعد أيام قليلة وصل « لابينوس Labienus إلى ديراخيوم فارا من فارسالوس Pharsallus حاملا نبأ فقدان الجيش ، وسرعان ما تحققت بقية النبوءة ، فنهبت مخازن الحبوب ، وتبعثرت محتوياتها وانتثرت فى الشوارع والأزقة . وقد أبحرت فجأة مع رفاقك فى سفينة وقد تولاكم روع مخيف ، فلما سرحتم البصر فى المدينة التى خلفتموها وراءكم ليلا ، راعكم منظر اللهب ترسله السفن التجارية التى أشعل النار فيها الجنودُ الذين أبوا اللحاق بكم ، ثم تأكدت بأن النبوءة قد تحققت عند ماترك الأسطول أعوانك .

صدق التنبؤ رغم أخطائه :

لقد ناقشت موجزا — ما استطعت إلى الايجاز سبيلا — التنبؤ بالغيب عن طريق الرؤيا والمس ، وهما — كما أسلفت من قبل — لا يقومان على الصناعة (١) وكلاهما يعتمد على الاستدلال الذى يستخدمه عادة صديقنا كراتيپوس Cratippus (٢) حين يقول : إن النفس البشرية قد صدرت وأخذت — عن مصدر خارجى عنها — وعلى هذا تقوم خارج النفس الإنسانية نفس إلهية ، فاضت عنها النفس البشرية ، وفوق هذا فان هذا الجزء من النفس البشرية الذى وُهب الحس والحركة والشهوات البهيمية ، لا يمكن

---

(١) أنظر الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثانى (لويب) .

(٢) هو فيلسوف مشائى ، يتحدث عنه « شيشرون » على الدوام باحترام وتقدير . وقد أقام مدرسة فى أثينا . وقد تبعه ابن شيشرون (أو اعتبر من أتباعه) فيما يظهر من مقدمة De · Officiis ويلوح لنا أن استدلالاته المقتبسة من كتابه الذى وضعه عن التنبؤ عن طريق الأحلام ، غير منتجة ، ولم يجد شيشرون عناء فى إظهار ما تنطوى عليه هذه الاستدلالات من ضعف . كما يبدو فى الفقرة الثالثة والثانيـة والخمسين — بوجه خاص — من الكتاب الثانى (جارنييه) .

تجريده من علائق الجسم ، بينما نجد هذا الجزء الناطق الذى يفكر ، يشتد نشاطه كلما ابتعد عن علائق البدن ، وهكذا كلما ساق « كراتيبوس » المثل لنبوءات صادقة عن طريق الجنة والرؤيا اختتم أدلته فى العادة على النحو التالى :

« رغم أن المرء لا يستطيع أن يؤدى وظيفة البصر بغير العيون ، ورغم أن العيون قد تعجز فى بعض الأحيان عن أداء وظيفتها المعينة — الإبصار — إلا أن المرء الذى يستخدم عينه ولو لمرة واحدة ، فيرى فيها الأشياء على حقيقتها ، يعرف على وجه التحقيق ما هى الرؤية الصادقة ، وكذلك الحال فى التكهن بالغيب ، فإن من المستحيل أن يقوم التنبؤ وتؤدى وظيفته بغير ملكة التكهن بالغيب ، ورغم أن المرء الذى أوتى هذه الملكة قد يخطىء أحياناً فيصدر نبوءات باطلة ، إلا أن تنبؤ الكاهن تنبؤاً صادقاً ولو فى حالة واحدة ، كفيل بأن يقر وجود التنبؤ بالغيب ، ويستبعد افتراض المصادفة فى تأويله ، ولكن التكهن قد صدق فى الكثير من النبوءات ، وهذا يوجب التسليم بصحته .

تأييد التنبؤ الصنعى : منهجه وأساليبه :

٣٢ — ولكن أساليب التكهن الذى يعتمد على الحدس أو على الاستنباط من حوادث يقوم العرافون بملاحظتها وتسجيلها ، لا تعتبر طبيعية كما أسلفت القول [١] ، ولكنها صنعية . وهى تشمل النظر فى فحص الأحشاء ، وفن العيافة وتعبير الرؤيا . وقد أبى المشاؤون التسليم بها ، وتولى الرواقيون الدفاع عنها ، وبعض هذه الطرق قائم على معلومات مسجلة ومتعاقبة ، كما تشهد بهذا الكتب التى وضعها أهل « أتروريا » عن التنبؤ بوساطة النظر فى الأحشاء والرعد والبرق ، وكما تبينه الكتب التى وضعها ديوان العيافة التى تشترك أنت فى عضويته .

أما بعض ضروب التكهن الأخرى فإنه قائم على الحدس المفاجىء والسريع ، ومثال هذا ما يرويه « هومير » عن كالكاس Calchas. الذى تنبأ

(١) أنظر الفقرة السادسة من هذا الكتاب (لويب) .

بعدد السنوات التى تستغرقها حرب تروادة من عدد العصافير الدورية [١] .

وفى التاريخ الذى وضعه « سلا » Sulla نجد شرحاً آخر للتكهن بالحدس ، تمثله حادثة شهدتها بعينيك ، إذ بينما كان يقدم القرابين فى ديوان عمله فى إقليم نولا [٢] برز له فجأة ثعبان كان تحت المذبح ، فتوسل العراف « جايوس پوستوميوس Gaius Postumius إلى « سلا » أن يشرع فى الزحف توا ، فانتصح « سلا » بنصحه ، وغزا معسكر السمنيين Samnites الذى كان محصناً تحصيناً قوياً ، — وهو يقوم أمام مدينة نولا —

ونجد مثالا آخر للتكهن عن طريق الحدس ، فى حادثة وقعت لـ « ديونيسيوس » Dionysius قبيل توليه الحكم ، ذلك أنه قام برحلة فى إقليم ليونتاين وترك حصانه فى نهر فيه تيار دائرى ، فابتلع الحصان وأخفاه عن الأنظار ، واستنفد ديونيسيوس وسعه فى إنقاذه ، ولكن محاولاته ذهبت عبثاً ، فانصرف إلى حاله مضطرباً اضطراباً شديدا — فيما يقول « فيلستوس » ولم يمض فى طريقه إلا قليلا حتى سمع صهيلا ، فالتفت وراءه فوجد — والغبطة تملأه — حصانه يتبعه فى لهفة ، وقد اعتلى عرفه نحل يطن ، وقد تولى « ديونيسيوس » الحكم عقب هذا النذير بأيام قلائل .

٣٣ — ثم كم من النذر تلقاها الاسبرطيون قبيل هزيمتهم الفادحة فى معركة « ليوكترا Leuctra [٣] فقد قعقع السلاح فى معبد « هرقل » ، وتصبب تمثاله

---

(١) قارن الياذة « هومير » ج ٢ ص ٣٠١ — ٣٢٩ ، ثم الأشعار التى اقتبست عن « هومير » فى الفقرة الثلاثين من الكتاب الثانى من هذا المؤلف (لويب) وفيها مناقشة شيشرون لهذا المثال .

(٢) فى « كبانيا » ولا يزال يحمل هذا الاسم . وقد كانت الحملة فى الأعوام ٩١ — ٨٨ ق . م (لويب) ومناقشة شيشرون لهذا المثال فى الفقرة الثلاثين من الكتاب الثانى .

(٣) مدينة صغيرة فى بيوتيا ، اشتهرت بالانتصار الذى أحرزه الطيبيون سنة ٣٧١ ق . م بقيادة « ابامينوداس » Epaminodas على الاسبرطيين فى عهد الملك « كليمبروت » الذى قتل فى المعركة (لويب وديعاريه) .

عرقا ، وفى نفس الوقت كانت أبواب هذا المعبد فى « طيبه » ، وكانت مغلقة بقضبان — فيما يقول « كاليستانس Callisthenes فانفتحت فجأة من تلقاء نفسها ، ووجد السلاح الذى كان مثبتا على حوائط المعبد ، ملقى على أرضه ، وبينما كانوا يقدمون القرابين للآله « تروفونيوس · Trophonius [١] فى مدينة لباديا فى بيوتيا ، أخذت الديكة المجاورة تصيح فى نفس الوقت صياحا شديدا ، دون أن تكف عن الصياح ، وعندئذ أعلن عيافو « بيوتيا » أن الانتصار سيكون حليف الطيبين ، لأن من عادة الديكة أن تلتزم الصمت عند الهزيمة ، وترفع بالصياح صوتها عند الانتصار .

وقد تلقى « الاسبرطيون » فى هذا الوقت كثيرا من النذر الزاجرة التى تنبئهم بهزيمتهم الموشكة فى « ليوكترا » . فمن ذلك ظهور تاج من الحشائش البرية ذات الشوك الكثير ، تبدّى فجأة على رأس تمثال مقام فى دلفى تكريما لأوسع الاسبرطيين شهرة ، وهو « ليزاندر » Lysander ثم إنهم أقاموا فى معبد « كاستور » و « بولوكس » Castor. & Pollux. فى دلفى بعض نجوم ذهبية احتفالا بالانتصار الباهر الذى أحرزه « ليزاندر » على الأثينيين [٢] ، إذ قيل إن هذين الألهين قد شوهدا فى صحبة الأسطول الاسبرطى أثناء هذه المعركة ، ولكن هذه الرموز الألهية — أى النجوم الذهبية التى أسلفنا الإشارة إليها — قد سقطت قبيل معركة « ليوكترا » واختفت عن الأنظار فلم يرها أحد بعد . ولكن النذر الزاجرة التى تلقاها الاسبرطيون ، كان أكبرها خطرا هذا النذير :

---

(١) هو فيما تقول الأسطورة النحات الذى شيد معبد أبولو فى دلفى — تحت الأرض — وأقام بيت مال الملك « هيريئس » فى بيوتيا . وتذكر (لويب) و (ديماريه) أن مهبط وحى « زيوس تروفونيوس » كان مقاما فى كهف فى مدينة لباديا الصغيرة ، وأن الناس كثيراً ما كانوا يحجون اليه ، قارن : Athenaeus, 614 A,Aristoph. Nubes 508 وانظر رد شيشرون على مثال الديكة فى الفقرة السادسة والعشرين من الكتاب الثانى .

(٢) فى Aegospotami عام ٤٠٥ ق . م (لويب) .

أرسلوا فى استنباء وحى «جوبتر» فى «دودونا» بصدد احتمالات الانتصار ، وبعد أن أقام رسلهم الوعاء الذى يحوى الأنصبة[1] فى حينه بعثر الأنصبة قرد كان يحتفظ به ملك «مولوشيا» Molossia لتسليته ، وأخل بكل شىء كان يستخدم فى استنباء الوحى ، وبعثره فى كل الجهات . فقالت الكاهنة التى كانت منوطة بالوحى — فيما قيل لنا — ينبغى أن يفكر الاسبرطيون فى التماس السلامة ، لا فى طلب الانتصار .

هزيمة اثر استخفاف بنذر الزجر :

٣٤ — ثم ألم يؤد استخفاف «جايوس فلامينيوس G. Flaminius»[2] بالشواهد الزاجرة — عند ما كان قنصلا للمرة الثانية — إلى نكبة فادحة أصابت الجمهورية فى الحرب البونية الثانية . . ؟ إذ بعد أن استعرض جيشه ، نقل معسكره ومضى إلى «أريتيوم» Arietium ليلتقى بهانيبال ، فكبا به حصانه فجأة أمام تمثال «جوبتر ستاتور» : Jupiter Stator[3] لغير ما سبب ظاهر ، وقد اعتبر

(١) كانت الأجوبة فى بطاقات توضع فى جرة أو وعاء ، ويقوم بسحبها أحد الأطفال . وكانت معدة بحيث تجيب على الأسئلة . وكان ملك «مولوشيا» هو «نيوبتولم» وهو أبو «أوليمبياس» أم الاسكندر (دعاريه) ومناقشة شيشرون للأمثلة المذكورة فى هذه الفقرة تراها فى الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الثانى .

(٢) «جايوس فلامنيوس نبوس G. Flaminius Nepos» وقد هزمه هانيبال وذبحه عام ٢١٧ ق . م عند بحيرة ترازمين ، بعد أن فقد «فلامنيوس» خمس عشرة ألف فرقة . قارن : Livy XXI,57, 63 (لويب) . وانظر وصف هذه المعركة فى كتابى «قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة» ، طبعة أولى ص ١٢٥ ، ٢٦ وفى ص ١٢٨ صورة لبعض الهاربين من جيش «فلامينوس» وترى مناقشة شيشرون لهذا المثال فى الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الثانى .

(٣) هاجم السابين الرومان ، فأعاد الرومان الكرة عليهم ، ونذر «رميلوس» إلى «جوبتر» أن يقيم له معبداً فى نفس المكان باسم «جوبتر ستاتر» ، واستثمر الرومان بعد ذلك القوة . وبعد مضى أربعمائة عام ، نذر «م . أتيليوس رجيلوس» نذراً شبيهاً بهذا فى معركة ضد «السمنيين» ليوقف الرومان الذين يلوذون فراراً . وقد أصاب توفيقا مشابهاً (دعاريه) . هذا المثال ونحوه لا يزال موضع اعتبار فى نظر عامة المصريين الذين يعتقدون فى الفأل والطيرة إلى يومنا الحاضر . . !

العرافون هذا نذيرا إلهيازاجرا عن الأشتراك فى المعركة، ولكن فلامينيوس لم يعبأ بما قالوا ، ولما استنبأوا الفأل عن طريق الكتاكيت حين تطعم[١] نصح ولىّ الكتاكيت المقدسة بإرجاء المعركة ، ولكن فلامينيوس قال له « هب أن الكتاكيت قد كفت عن الطعام ، فبماذا تنصح فى مثل هذه الحال ..؟»

فأجابه قائلا . « يجب أن تبقى فى المعسكر » فقال « فلامينيوس » ما أجمله من فأل أو زجر ، ذلك الذى ينصح بالإقدام على العمل عند ماتكون حوصلة الكتاكيت فارغة ، وبالكف عنه متى كانت ممتلئة . . ! وأصدر أمره بأن تنشر الأعلام ، وأن يتبعه الجنود . ولما أخفق حامل علم الفريق الأول[٢] فى حل علمه ، تقدم لمعونته كثير من الجنود ، ولكن على غير جدوى . ولما أنبأوا بذلك « فلامينيوس » ، استخفّ بالأمر ، جريا على مألوف عناده ، فكانت النتيجة أن تمزق جيشه إربا إربا فى ثلاث ساعات ، وذبح هو نفسه فى المعركة .

ويضيف « كويليوس » Coelius حادثا أوسع من هذا شهرة فى نفس الوقت الذى كانت تثار فيه هذه المعركة المشئومة ، وقعت فى «ليجوريا» Liguria ببلاد الغال ، وفى كثير من الجزر وفى سائر أجزاء إيطاليا ، زلازل بلغت من الشدة والعنف حداً تصدع معه الكثير من المدن ، وانخفضت بقاع فى كثير من المناطق ، وغارت الأرض ، وعلت الأنهار فوق مجاريها ، وفاضت على ما يجاورها ، واقتحم البحر مجاريها .

٣٥ — « إن ضروب الحدس الموثوق بها فى التنبؤ بالغيب ، يحسنها الممتازون فى التكهن ، ومن أمثلة ذلك أن « ميداس » .Midas ملك « فريجيا » .Phrygia الطائر الصيت ، قد ملأت النمال فمه بحبوب الحنطة أثناء نومه وهو فى عهد الطفولة ، فتكهن العرافون استناداً إلى هذا الحدث ، بأنه سيكون ثريا عريض الثراء — وقد تحققت نبوءتهم .

(١) قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول ، والرابعة والثلاثين من الكتاب الثانى (لويب) .

(٢) قائد يتولى قيادة أربعمائة من المشاة (ديماريه) .

وكان « أفلاطون » طفلا مستغرقاً فى نومه ، فاستقر النحل على شفتيه ، وأوّل الكهان هذا بأن الطفل سيوهب حلاوة فى الكلام نادرة المثال [١]. تنبىء ببلاغته أثناء طفولته .

ثم ماذا ترى فى صديقك المحبوب الظريف « روسكيوس » Roscius.[٢] ..؟ هل كذب فياروى عن نفسه ، أو هل كذب أهل « لانوفيوم » : Lanuvium. عند ما قالوا عنه إنه كان طفلا فى مهده ، ونشأ فى « سولونيوم » Solonium. — وهو سهل فى إقليم لانوفيوم — واستيقظت مربيته أثناء الليل على غير انتظار ، لأنها رأت الطفل فى ضوء المصباح مستغرقاً فى نومه ، وقد التف حوله ثعبان ، فاحتواها الرعب من جراء هذا المنظر الرهيب ، ورفعت بالاستغاثة صوتها ، وأبلغ أبوه الحادثة إلى العرافين . فقالوا إن الطفل سيصيب شهرة ومجداً منقطع النظير ، وقد تحقق ماقالوه ، فنقش « بازيتيلس » : Pasiteles. هذا المنظر بالفضة ، وصوره صديقنا « أركياس » : Archias [٣] شعراً .

« ثم ماذا تنتظر » ؟ أتنتظر أن يتحدث معنا الآلهة المخلدون فى الأسواق العامة وعلى قارعات الطرق وداخل البيوت . . ؟ ومع أن من المحقق أنهم لايظهرون أمام العين سافرين ، فإنهم ينشرون قوتهم فى أرحب الآفاق ، وقد يرسلونها إلى مغاور الأرض حيناً ، ويمنحونها لبعض الكائنات البشرية حيناً

---

(١) يقول « أوليمبيودور » فى كتابه « حياة أفلاطون » إن أبويه قد وضعاه . على جبل « هيميت » عقب ولادته مباشرة ، كأنهما أرادا أن يثيرا فى نفسه القدرة على الهجس وهى التى يتحدث عنها « شيشرون » ولم يكن أفلاطون هو الوحيد الذى وقعت له هذه الحادثة فى طفولته (جارنييه) وانظر مناقشة شيشرون لهذا المثال وللمثال السابق له فى الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الثانى .

(٢) كان ممثلا هزلياً بارعا . وكان يضرب مثلا للتفوق وإتقان العمل ، ولشيشرون خطاب فى مواهبه « لويب » .

(٣) كان هذا الشاعر من أنطاكية . وقد أصاب فى روما تقديراً عظيما « دعاريه » وقد ولد سنة ١١٩ ق . م أو قبل ذلك بقليل . وكانت أنطاكية تلى الاسكندرية فى مجال العلم والثقافة ، ويصفه شيشرون بأنه شاعر وعالم ممتاز (مقدمة : H.G. Nall عن أركياس طبعة سنة ١٩٣٠) .

آخر . وقد كانت كاهنة دلفى فى أبولو ملهمة إلهاماً أرضياً [١] ، كما كانت كاهنة « سيبايل » ملهمة إلهاماً طبيعياً . ولماذا يثير هذا العجب فى نفسك ..؟ ألسنا نرى كيف تختلف تربة الأرض فى نوعها . ؟ فان بعضها مهلك مبيد ، كهذا الذى يقوم حول بحيرة « امبسانكتوس » Ampsanctus [٢] فى مملكة « هربينى » Hirpinii. والذى نراه فى (بلوتونيا) فى آسيا وقد شاهدت كلتيهما ، بل إنا لنرى إلى جوارنا بعض مناطق الأرض نافعاً للصحة وبعضها الآخر ضاراً بها ، وبعضها ينتج رجالا وهبوا الذكاء الوقاد وبعضها يلد رجالا يتصفون بالغباء والحمق وهذه الآثار المختلفة كلها يسفر عنها الاختلاف فى المناخ والتباين فى أنخرة الأرض [٣]. وكثيراً ما تهتز النفس اهتزازاً عنيفاً إذا رأت شيئاً معيناً . أو تأثر بنغم عميق أو غناء ، وكثيراً ما يكون للقلق أو الخوف هذا الأثر ...

فى تأييد التنبؤ الطبيعى والصنعى

إلهام الشعراء والخطباء عند ديمقريطس وأفلاطون

٢٦ — ويشهد الإلهام الشعرى بأن هناك قوة إلهية فى باطن النفس الإنسانية ، يقول « ديمقريطس » ليس فى وسع امرىء أن يكون شاعراً فحلا دون أن تعتريه الجِنة . ويرى أفلاطون نفس هذا الرأى [٤] . ولندع أفلاطون

---

(١) المفروض أن الالهام الإلهى كان يتصل بشق عميق فى جوف الأرض ، وكان يخرج منه بخار يزعمون أنه ينبىءعن الغيب . وكانت الكاهنة تجلس عند مدخل هذه الفتحة على مقعد ذى ثلاثة أرجل ، لتعلن نبوءاتها (ديعاريه ولويب) .

(٢) كانت هذه البحيرة فى « سامنيوم » واشتهرت بأنها كانت مدخلا لمناطق الجحيم قارن فرجيل : Aen VII. 563 (لويب) .

(٣) هذه ملاحظة طيبة تردد صداها عند ابن خلدون فى المقدمة ص وهى تنفى الدعوة التى روج لها حديثا أمثال رينان فى التفرقة بين الساميين والآريين .

(٤) يقول « كليمان الاسكندرى » فى (Stromates VI. 18) إن أفلاطون يرى أن الشاعر كائن رقيق مقدس ، وأنه لا يستطيع أن ينتج إلا إذا كان ملهماً إلهاما إلهيا أو مصابا بجنة . ويضيف « كليمان » هذا الرأى نفسه إلى « ديمقريطس » ويقول أفلاطون فى محاورة فيدروس (٢٤٥ هـ) إن سقراط بعد أن تحدث عن المس الذى يصدر عنه التنبؤ ، تناول الحديث عن الجنة التى تلهم ربات الوحى ، وأعلن أن شعر المؤلف العليم بأسرار الفن ، والمقتنع بأن هذه المعرفة هى التى جعلت منه شاعراً يحسن ضبط عقله عند القرض ، مثل هذا الشاعر سيأفل نجمه ، وينطمس شعره على الدوام أمام أولئك الشعراء المصابين بجنة (جارنييه) .

يسميه مساً أو جنة إذا شاء ، بشرط أن يثنى عليه كما أثنى عليه فى محاورة « فيدروس »(١) .

ثم ماذا ترى . .؟ أيمكن أن يكون خطابكم أيها المحامون مثيراً للنفوس ، كبير الخطر عند مستمعيه ، طلقا سلسا فى نظرهم ، إذا لم تهتز نفوسكم اهتزازاً عميقاً . . (٢) ؟ أقسم أنى رأيت فيك مراراً وقدة الانفعال تتبدى فى نظراتك وتتمثل فى حركاتك ، حتى ظننت أن قوة ما ، قد انتزعت منك وعيك ، وسلبتك الشعور بما تفعل ، وإذا سقت لك مثالا آخر لهذه الوقدة . فهذا هو صديقك «أيسبوس» Aesopus الذى رأيتها فيه ، وإن كانت عنده أقل اشتعالا .

وكثيراً ما تظهر الأطياف نفسها وكأنها مجسمة فى مادة ، وإن كانت فى الواقع مفارقة لها ، ويشهد بهذا ما قيل إنه وقع لـ « برنوس Brennus (٣) ولكتائبه من أهل الغال ، بعد أن قام بحملته الآثيمة على معبد « أبولو » فى دلفى ، فإن القصة تقول إن كاهنة المعبد قد قالت لبرنوس وهى تتحدث فى مهبط الوحى . (سأحتاط مع العذراوتان البيضاوتان لهذا الأمر(٤)) .

وكانت النتيجة أن شوهدت هاتان العذراوتان تقاتلان أهل الغال ، وقد غمر الجليد جيشهما . . !

---

(١) ص ٢٤٤ أ (لويب) وقد كان « كونتوس » أخو شيشرون شاعراً ممتازاً (دعاريه)

(٢) نلاحظ أن شيشرون فى الفقرة الخامسة والعشرين من الكتاب الرابع من Tusculanes يقرر عكس هذا تماما ، فيقول إن الخطيب كالممثل ، كلاهما يلعب بالعاطفة ، ويثير الغضب أو يبعث الألم وما يشبهه ولكنه لا يحسه ولا يشعر به (جارنييه) .

(٣) ليس هو « برنوس » الذى استولى على روما ، ولكنه غيره يحمل اسمه ، وعاش فى عصر متأخر . وقد فتح مقدونيا وقتل بها عام ٢٧٨ ق . م (لويب) .

(٤) « أتنا » و « أرتمس » (لويب) والأولى هى إلهة الحكمة والفنون والعلوم والحروب عند الرومان وهى تشبه « مينرفا » عند الاغريق . والثانية تحمل الاسم اليونانى الذى أطلق على ديانا . وكانوا فى دلف وسيراقوص يقيمون لهذه الآلهة أعيادا تكريما لها . (باشليه ودبزوبرى) .

تنبؤ المرضى عند أرسطو :

٣٧ — وقد ذهب « أرسطو [١] » إلى القول بأن الذين يهذون من جراء المرض والمصابين بالسوداء ، تقوم فى باطن نفوسهم قوة تمكنهم من سبق النظر والتنبؤ بالمستقبل ، أما أنا فانى أميل إلى الظن بأن مثل هذه القوة لاتعزى إلى المعدة المريضة ، ولا تنسب إلى المخ المضطرب ، بل على العكس، إنها النفس السليمة وليس الجسم المريض ، هى التى توحى القدرة على التنبؤ بالغيب [٢] .

أدلة الرواقية على قيام التكهن بالغيب :

والرواقيون ، على سبيل المثال — يقيمون وجود التكهن بالغيب على عملية الاستدلال العقلى التالى :

« إذا استقام وجود الآلهة من غير أن يكشفوا للانسان عن المستقبل المحجب ، كان هذا دليلا ينهض على أنهم لا يحبون بنى البشر ، أو أنهم هم أنفسهم لا يعرفون ماذا يخفى المستقبل المغيب عنا ، أو أنهم يظنون أن ليس للانسان مصلحة فى معرفة ماينطوى عليه عالم الغيب ، أو أنهم يظنون أن هذه النذر التى يرسلونها إلى الإنسان عن المستقبل ، أمر لايتفق مع كرامة الآلهة ، أو أنهم — أخيراً — وإن كانوا آلهة فانهم لا يستطيعون أن يقدموا شواهد معقولة على الحوادث المقبلة ، ولكن ليس صحيحاً أن الآلهة لا تحبنا ، لأنهم أصدقاء الجنس البشرى والمنعمون عليه ، وليس صحيحاً أنهم يجهلون ما أصدروا من أوامر وما رسموا من خطط — بشأن المستقبل — وليس صحيحا أن ليس لنا مصلحة فى معرفة ما ينتظر أن يقع لنا ، ما دام العلم يمكننا من اتخاذ الحيطة له ، وليس صحيحاً أن الآلهة يظنون أن الكشف عن النذر السابقه لما ينطوى عليه المستقبل ، أمر لا يتفق مع كرامتهم ، إذ ليس ثمة سجية أفضل من خدمة

---

(١) قارن أرسطو : Prob XXX ص ٧٤١ « لويب » .

(٢) هذا يناقض — فيما نرى — ما أسلفه كونتوس نفسه فى الفقرة التاسعة والعشرين من إثبات القدرة على التنبؤ للمصابين بمرض شديد مهلك .

الإنسانية ، وليس صحيحاً أنهم لم يؤتوا القدرة على معرفة المستقبل المغيب ، وإذن فليس صحيحاً أن هناك آلهة ، ورغم وجودهم فإنهم لا يكشفون للإنسان عن شواهد تنبيء عن المستقبل . ولكن هناك آلهة ، فهم إذن يقدمون مثل هذه الشواهد ، وما داموا يقدمونها فليس صحيحاً أنهم يضنون علينا بطرق فهمها ، وإلا كانت شواهدهم عديمة المنفعة ، وإذ هم أرشدونا إلى طرق فهمها ، فإن القول بعدم وجود التكهن بالغيب لا يستقيم ، وإذن فالتكهن بالغيب قائم فعلا(١) .

٣٨ — ومثل هذا الاستدلال يستند إليه « كريسبوس » و « ديوجانس » و « انتباتر » في البرهنة على التنبؤ بالغيب .

مبررات الاعتقاد في التكهن مع غموض أسبابه :

وإذن فأى مبرر للشك تراه فيما ينطوى عليه موقفى — إزاء التكهن — من حق لا ريب فيه . . ؟ إنى أستند في هذا الموقف إلى منطق وحقائق وشعوب وأجناس ، وأعتمد على رأى الإغريق والبرابرة وأسلافنا من الرومان معا ، وتؤيدنى فيه تلك العقيدة الثابتة التى اعتنقتها الأجيال ، ويبرره عندى ما دان به أعظم الفلاسفة والشعراء ، وأحكم الناس وبناة المدن ومؤسسو الجمهوريات . ألا يكفى لإقناعنا هذا الذى انعقد عنده إجماع الناس ، وهل تنتظر الحيوانات لتضيف شهادتها إلى الموضوع كذلك . ؟ في الحق ليس ثمة أى دليل يمكن أن يقدم للكشف عن بطلان ما أسلفنا الحديث عنه من مختلف أنواع التكهن بالغيب ، إلا أن يقال إن من العسير أن نقدم سببا أو نكشف علة لكل ضرب من ضروب التكهن . إنك تستفسر قائلا : « لماذا يوقف العراف تنفيذ مشروع ويرجئه إلى يوم آخر ، عندما يجد شقا في رئة الضحية ، ولو كانت الأحشاء الرئيسية صحيحة . . ؟ ولماذا يميل الكاهن إلى الظن بأن الفأل ميمون إذا طار غراب ميامنة أو غراب من نوع آخر مياسرة ؟ . ولماذا يعتبر المنجم اقتران

(١) ناقش شيشرون هذا الاستدلال في الفقرات ٤٩ — ٥١ من الكتاب الثانى .

القمر بالكوكبين : چوپتر وڤينوس عند مولد طفل فألا ميمونا ، واتصاله بزحل أو المريخ زجراً مشئوما ..؟ . ثم لماذا يزجرنا الإله ونحن نيام ، ويفوته هذا الزجر ونحن أيقاظ . ؟ (١) وأخيراً لماذا تكشف « كساندرا » المعتوهة عن الحوادث المقبلة قبل وقوعها ، ويعجز «بريام» بحكمته عما استطاعته بخبلها ..؟

إنك تسأل عن السبب الذى من أجله يحدث كل شىء . ؟ ولك مطلق الحق فى توجيه هذا السؤال ، ولكن ليس هذا هو موضوع بحثنا ، فان المسألة هى : هل تحدث هذه الأشياء فعلا أو لا تحدث . ؟ ولنقل على سبيل المثال أنى إذا أقررت بأن المغناطيس قد جذب الحديد وسحبه نحوه ولم أستطع أن أكشف لك عن سر هذا الجذب ، فانك تنكر كل الإنكار — فيما يخيل إلىّ — أن فى المغناطيس مثل هذه القوة . هذا يمثل — على أقل تقدير — طريقتك التى سلكتها بصدد قيام القدرة على التنبؤ بالغيب ، رغم أن هذا ما أثبتته تجاربنا ، وأيدته خبرات غيرنا ، وأقره ما قرأناه فى مختلف الكتب ، وما انحدر إلينا من تقاليد أجدادنا الأولين ، وهو أمر لم يرتق اليه الشك عند أوساط الناس قبل فجر الفلسفة التى كشفها الإنسان حديثاً ، ومنذ شيوعها لم يعتنق فيلسوف ما — أيا ما كانت شهرته — رأياً مخالفاً لما أسلفناه . وقد أبنت لك عن رأى « فيثاغورس » و « ديمقريطس » و « سقراط » ولم أستبعد من القدماء إلا « اكسانوفان » ، وقد أضفت إليهم رأى أهل الأكاديمية القديمة والمشائين والرواقيين . أما الفيلسوف الوحيد الذى تمرد على هذا الرأى فهو « أبيقور » ولكن لماذا يثير هذا القول العجب فى نفسك . . ؟ وهل الرأى الذى اعتنقه « أبيقور » فى التنبؤ بالغيب ، أدعى إلى عدم الثقة من رأيه الذى يقول بأن ليس ثمة فضيلة بريئة عن الهوى ... ؟ .

٣٩ — ولكن هل ثمة امرؤ لا تستميله تلك الشواهد البينة الصائبة التى

(١) فى وسع معتنق الرأى أن يجيبوا على هذا السؤال قائلين إن الإله لم يفته زجر الناس وهم أيقاظ ، ويستشهدون بالصوت الذى كان يزجر سقراط . ثم فى الأنبياء والرئين شاهد على ذلك .

سجلتها يد الزمان . . ؟ فقد قرر « هومير » — على سبيل المثال — أن « كالكاس » كان خير أهل العيافة بين الإغريق ، وأنه تولى قيادة الأسطول الإغريقى أمام تروادة ، وقد كانت قيادته للأسطول — فيما يلوح لى — ترجع إلى مهارته فى علم العيافة ، لا إلى براعته فى فن الملاحة ، وقد كان « أمفيلوكوس » : Amphilochus و « موپسوس » Mopsus ملكين فى « أرجوس » Argos ولكنهما كانا من أهل الكهانة كذلك ، وقد قاما بتشييد مدن يونانية على شواطىء سيليسيا ، بل لقد ظهر قبلهما « أمفياراوس » Amphiaraus و « تيرزياس » Tiresias[1] اللذان لم يكونا من طغام الناس ولا كانا نكرة بينهم ، ولا صدقت فيهم تلك الكلمة التى وصف بها « أنيوس » أولئك :

[الذين يؤيدون باطل الآراء طمعاً فى خدمة مصالحهم الشخصية] ولكنهما كانا يتمتعان بشهرة واسعة النطاق ، ويعتبران من أنبل الناس ، وقد كانا يتكهنان بالمستقبل مستنبئين الطيور فى تغريدها وتحليقها فى الجو .

ويقول « هومير » عند الكلام على « تيرزياس » إنه كان وحده حكيما عندما كان يقيم فى المناطق الجهنمية ، أما من عداه فكانوا مجرد ظلال ضالة[2] .

أما عن « أمفياراوس » فقد أصاب فى بلاد الاغريق شهرة أدت إلى تكريمه كما يكرم الآلهة ، وكان الناس يلتمسون رد الوحى على أسئلتهم فى المكان الذى ثوى فيه .

ثم ألم يكن للملك الأسيوى « بريام » ابن اسمه « هلنوس » Helenus وابنة تسمى « كساندرا » قد اشتغلا بالنبوءات ، فكان أولهما عيافاً ، وكانت أخته

---

(١) هو أبو « أمفيلوك » وقد عرف أنه سيذبح فى حصار الطيبيين ، فاختفى فترة ما ، ولكن زوجته كشفت أمره ، فتبع « بولينيكا » إلى طيبه حيث ذبح . أما الثانى تيرزياس فانه عثر فيما يقال على ثعبانين فى حالة اتصال جنسى (جماع) ، فقتل الأنثى ، فتحول من هذه اللحظة إلى امرأة ، ولكنه صادف بعد سبع سنين ثعبانين آخرين فى مثل الحال السالفة ، فقتل الأنثى كذلك ، وسرعان ما تحول رجلا . ثم استدعى حكما بين « جوبتر » و « جونون » ولما كان حكمه فى صالح الأول ، أفقدته « جونون » بصره ، فأراد جوبتر أن يعوضه عن فقد بصره خيراً ، فوهبه ملكة تمكنه من التكهن بالغيب — هكذا تقول الأساطير (ديماريه) .

(٢) قارن « هومير » فى الأوديسا ج ١ ص ٤٩٢ (لويب) .

تتكهن بالمستقبل عند ما يعتريها اهتياج أو جذب ينبعث عن إلهام سماوى ، وتدركها حال من يقظة النفس . ؟ وفى نفس هذا الصنف من الكهان — فيما عرفنا من التاريخ الذى خلفه لنا آباؤنا الأولون — هؤلاء الأخوة ذوو الصيت الذائع الذين انحدروا من أسرة « ماركيوس » النبيلة(١) .

وأليس يقول لنا « هومير » بأن « بوليدوس » Polyidus الكورنثى(٢) ، لم يكشف للناس عن الكثير من النبوءات فحسب ، بل أنه تنبأ كذلك بموت ابنه الذى اشترك فى حرب ترواده . . ؟ .

ولقد كانت القاعدة عند القدامى أن الذين يتولون الحكم فى الدولة ،

---

(١) لم تنجب روما — ولا إيطاليا بوجه عام — نبيا ملهما ، وقد أخذت عبادة أبولو تصبح شعبية فيما يقول بوشيه لوكليرك : Bouché—Leclereq ح ٤ ص ١٢ — فى القرن الثالث ، وكانت هذه العبادة قد دخلت منذ زمن طويل عن طريق كتب « سيبايل » ولما كانت اضطرابات الحرب البونية قد ضاعفت من ميل الناس إلى الخرافات ، فقد عانت روما إبان ذلك ضروب العلاج بالسحر ، وقاست من كثرة التنبؤات التى ذاعت فى مصنفات تولى نشرها الدجالون من الناس ، وفى سنة ٢١٣ ق . م قرر مجلس الشيوخ أن يضع يده على هذا الأدب الرخيص : (Tite—Live,XXV, I.) ولكن وجدت بين هذه الكتب التى صودرت نبوءتان لكاهن شعبي قديم يدعى «ماركيوس» وقد تحققتا فيما بعد ، أما النبوءة الأولى وهى التى سرعان ما عرف الناس صحتها — فهى التى تنبأت بالهزيمة اللاحقة فى موقعة « كانى » وقد تنبىء بها قبل وقوعها بثلاثة أعوام . وأما — الثانية فقد أشارت — لطرد القرطاجيين — بأقامة ألعاب سنوية تكريما لأبولو (Tite—Live XXV, 12) ومال مجلس الشيوخ إلى قبول هاتين النبوءتين اللتين عرفتا فى الوقت الملائم ، رغبة فى تقوية الروح المعنوية بين الرومان . وإذا شئنا أن نعرف عنهما أكثر من هذا قلنا — واليقين فيما نقول ضئيل — أن مجلس الشيوخ قد أمر بأن تحفظ هاتان النبوءتان إلى جانب كتب « سيبايل » .

ولا يزال الشك القوى قائما بصدد هذا الرئى « ماركيوس » فانا لا نعرف الوقت الذى عاش فيه . ويحدثنا شيشرون عن أخوين وهبا ملكة التنبؤ بالغيب ، ولا يعرف Tite—Live . إلا واحداً هو « ماركيوس » . ويذكر شيشرون فى الفقرة الخمسين رئيا آخر مع ماركيوس هو « بوبليكيوس » الذى لا نعرف عنه شيئا . ثم هل ثبت على وجه اليقين أن ماركيوس كان شخصية حقيقية . . . . ؟ إن هذا موضع نظر (جارنيه) وقد أشار مترجم اويب فى تعليقاته إلى أن « سرفيوس » قد ذكر هؤلاء الأخوة فى : Aen. VI 70 and 72. باعتبار أنهم يستنبئون الوحى الذى حفظته لنا كتب الكاهنة « سيبايل » .

(٢) قارن « هومير » فى الإلياذة ١٣ ص ٦٦٣ (اويب وجارنيه وديماريه) .

يهيمنون على شئون العيافة كذلك، لأنهم كانوا يعتبرون التنبؤ بالغيب كالحكمة أمراً يتفق مع كرامة الملوك[١] . وقد قدمت جمهوريتنا الشاهد العدل على صدق هذا، فكان ملوكها من أهل العيافة . وأخيراً فقد تولى المواطنون الذين قلدوا وظائف الكهنوت — وهبوا نفس القدرة على التنبؤ بالغيب — حكم الجمهورية مستندين إلى سلطة الدين[٢] .

٤٠ — وكذلك القبائل التي لم تصب من المدينة حظاً، كانت لا تستخف بممارسة التكهن بالغيب، فكان في بلاد الغال مثلا كهنة «الدرويديين» Druids[٣] وقد عرفت بنفسي واحداً منهم، وهو «ديوفياكوس» Divitiacus من قبائل «أيدوى» Aedui ضيفك ومقرظك، وقد ادعى بأنه أوتي هذا الضرب من معرفة الطبيعة — ذلك الذي يسميه الإغريق «فسيولوجيا»، وكان يلقى بتكهنات مستخدما العيافة حينا، والحدس حينا آخر .

وكان قسس الفرس هم أهل العيافة وأرباب التنبؤ بالغيب بينهم، وكانوا يجتمعون بانتظام في معبد للعبادة والتشاور، كما كنتم تجتمعون يا أهل الكهانة قديما في أيام الـ Nones[٤] . ومن المحقق أن ليس في وسع امرىء أن يتولى ملك الفرس، إلا إذا عرف عمل هؤلاء الكهان نظريا

---

(١) كان لليونان ملوك مدربون على فن العيافة، وقد ذكر كونتوس أسماء بعضهم مثل Amphiaraiis وقد كانت وظائف الكهانة في ديوان العيافة بروما يتقلدها الملوك كما يظهر من كثير من نصوص هذا الكتاب (جارنييه) .

(٢) كانت الوظائف الكهنوتية التي يشغلها الملك يمارسها فيما بعد ملك مقدس : Rex. Sacrorum (لويب) .

(٣) الدرويديون كانوا عند الكلت القدماء من أهل الغال وبريتانيا وألمانيا . وكانوا يتعبدون تحت أشجار السنديان .

(٤) كانت Ides. في تقويم السنة عند الرومان القدامى هي اليوم الخامس عشر من شهر مارس ومايو ويوليه واكتوبر، والثالث عشر من بقية شهور العام، أما Nones فكانت في الخامس من يناير وفبراير وابريل ويونيو وأغسطس وسبتمبر ونوفمبر وديسمبر واليوم السابع من بقية شهور السنة .

وعملياً (١). وقد نجد أسراً وقبائل كاملة يقف أبناؤها حياتهم على مزاولة هذا الفن ، فمن ذلك أن مدينة « تلمسوس » Telmessus فى « كاريا » .Caria قد ذاع عن أهلها أن فن العرافة أصيل فيهم . وفى مدينـــة « أليس » .Elis فى « بلوبونيسوس » Peloponnessus توجد أسرتان قد تسامع الناس زماناً طويلا بشهرتهما فى هذا الفن ، هما : « الياميديون » Iamidae والـكلوتيديون .Clutidate وكانتا تمتازان بالمهارة الفائقة فى ممارسته .

وكان الكلدانيون فى سوريا أقدر من عرفوا فى علم الهيئة وحدة الذهن (٣).

وكان أهل أتروريا كذلك يمتازون بالبراعة فى ملاحظة الصواعق وتأويل معانيها ، ومعرفة المغزى الذى يحمله كل رمز ، وينطوى عليه كل نذير زاجر. وهذا هو السبب الذى من أجله كان مجلس الشيوخ حكيما عندما قرر وهو فى أوج قوته أيام أجدادنا ، أن يسلم ستة (٤) من أبناء البارزين من رجالنا إلى كل قبيـلة من القبائل فى أتروريا لدراســة التكهن بالغيب ، مخافة أن ينتهى الأمر بهذه المهنة الجليلة إلى أن تفقد جلالهـا الدينى بمرور الزمان ، وتتحول إلى

---

(١) يتحدث سقراط فى « القبياد » عن التعليم الذى يتلقاه ابن الملك الأكبر فى فقرة قيل فيها إن هذا الأمير إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره ، عهد به إلى أربعة معلمين يختارون من صفوة الناس . أولهم أعلم الناس ، والثانى أعدلهم والثالث خيرهم سلوكا والرابع أشجعهم . والأول يعلم ابن الملك سحر زرادشت بن هروماز [القبياد ١٢١ هـ] (جارنييه) .

(٢) قارن هيرودوت جـ ٩ فى الفصل الثالث والثلاثين (لويب) ويقول مترجم جارنييه إن لهؤلاء ذكراً فى « هيرودوت » (والألياذة جـ ١١ ص٣٠٢ والأوديسا جـ ١٥ ص ٣٦٠) .

(٣) يقول « بوشيه لوكليرك » Bouché-Lecbercq (ج ١ ص ٢٠٧) إن رواج علم أحكام النجوم ظهر فى عالم البحر الأبيض المتوسط فى اليوم الذى افتتح فيــه الكاهن الكلدانى « بيروس » Bérose الذى عاصر « أنتيوكس سوتر » و « بطليموس » الفيلادلفى الذى افتتح مدرسة فى « كوس » وعلم فيها التعاليم السرية للتنبؤ عند أهل بابل (جارنييه) .

(٤) يقول : Val. Max إنهم عشرة لا ستة ، ويختلف فيما إذا كان هؤلاء الشبان (الذين يسلَّمون) من أهل روما أو أهل أتروريا ، أنظر Moser De div.p. 106 هامش و Missowa, relig. und Kult.p. 548 (لويب) .

وسيلة للارتزاق (١) .

وقدكان «الفيريجيون» Phyrigians. و«البيسيديون» Pisidians و«الكيليكيون» Cilicians » و « العرب » يعتمدون من جهة أخرى اعتماداً كلياً على الشواهد التى يدل عليها انطلاق الطيور فى فضاء السماء .

وكان « الأومبريون » : Umbrians يحتذون هذا المثال — فيما هو متواتر .

البيئة تحدد نوع التكهن

٤١ — وأنا من جانبي أعتقد بأن خلق الأمة هو الذى كان يحدد نوع التكهن الذى يعتنقه أهلوها ، فالمصريون والبابليون الذين يقيمون فى رحاب السهول الفسيحة التى لا تتخللها تلال تحجب عن عيونهم منظر السموات ، قد وقفوا انتباههم كله على أحكام النجوم .

أما أهل أترووريا فان طبيعتهم تتميز بمزاج دينى حاد ، وكان من عادتهم أن يكثروا من تقديم القرابين ، ولهذا وجهوا كل انتباههم إلى دراسة أحشاء الحيوانات . والملحوظ أن شواهد السماء كثيرة وشائعة بينهم ، ثم إن حالة الجو — فضلا عن هذا — تؤدى إلى كثير من ظواهر الأرض والسماء ، وإلى

(٢) فى الفقرة الثامنة والخمسين من الكتاب الأول ما يشير إلى أن روما قد حفلت — إلى جانب التكهن الرسمى — بكثير من الكهان والكاهنات الذين يمارسون هذا الفن توسلا إلى اكتساب المال ، باستغلال ما جبل عليه الناس من سرعة التصديق ، وقد حاول الحكام ومجلس الشيوخ عدة مرات أن يضعوا حداً لهذه التجارة التى كانت موضع احتقار من الناس ومصدر خطر فى بعض الأحيان . وفى عهد « كاتون لانسيان Caton L'Ancien » الذى دافع عن عبيده باستشارة الطيور والأحشاء والنجوم ، قرر مجلس الشيوخ نفى الكهان الشرقيين ، وفى سنة ١٣٩ ق . م طرد الكاهن المتغرب « كورنليوس هيسبالوس » Cornelius Hispallus الكلدانيين ، وطالبهم بأن يبرحوا ايطاليا فى عشرة أيام . وإن كانت كل هذه الاجراءات لم تنته إلى نتيجة حاسمة فى مقاومة هذه الأساليب . وفى الوقت الذى كان يضع فيه شيشرون هذا الكتاب كانت روما مكتظة بدعى القدرة على التكهن من طغام الناس . وبعد بضع سنوات نفى « أجريبا » Agrippa الذى كان منوطا بالشرطة فى روما أهل السحر والنجامة (Dion G' Cassius. XLIX,43) (جارنييه) .

وقوع بعض الخوارق فى الحمل والولادة عند الآدميين والماشية ، ولهذا أدت هذه الأسباب الى تفوق «الاترورين» فى تأويل النذر الزاجرة [١] . ونريد أن نلاحظ أن القوة الكامنة فى مثل هذه الطرق التى تستخدم فى التكهن ، توضحها تمام التوضيح تلك الكلمات التى وضعها أجدادنا فى دقة للدلالة عليها [٢] .

أما العرب والفيريجيون والكليكيون فانهم انصرفوا إلى تربية المواشى ، ولهذا كانوا يتجولون على الدوام فى السهول والجبال صيفاً وشتاء ، فمكنهم هذا من دراسة الطيور فى تغريدها أو تحليقها فى فضاء الجو ، ويصدق هذا على البيسيديين وعلى مواطنينا الأومبريين .

أما أهل « كاريا » — ولا سيما « التلمسيين » منهم — وقد أسلفنا الإشارة اليهم ، فانهم يقيمون فى بلاد تمتاز تربة أرضها بالغنى والخصوبة غير المألوفة ، ولهذا وجهوا اهتمامهم إلى دراسة الخوارق .

أثر التكهن فى توجيه الحكومات والشعوب قديما

٤٢ — ولكن من ذا الذى فاته أن يلاحظ أن استنباء الطيور وسائر أساليب التكهن بالغيب ، تزدهر أيما ازدهار فى أعظم الأمم نظاماً ؟ وأى ملك أو شعب لم يستخدم التنبؤ فى شئونه ؟ لست أقصر الحديث على عهود السلم ، بل أخص أوقات الحروب عند ما يشتد النزاع ويقوى الصراع ابتغاء الطمأنينة ، ولنغفل الحديث عن مواطنينا الذين لا يقدمون على عمل أثناء الحرب ، إلا إذا سبقوا إلى النظر فى أحشاء الحيوانات ، ولا يحققون أمراً إبان السلم إلا إذا التمسوا الفأل والطيرة من سانح الطيور وبارحها .

---

(١) قارن شيشرون فى طبيعة الآلهة (N.D.ii, 3.7.) فهذه الفقرة تكاد تكون تكراراً لها (لويب) .

(٢) يرد فى النص بعد هذه الجملة الكلمات التى وضعها الرومان للدلالة على طرق التكهن ، ومن الممكن أن نغفل ترجمتها إلى العربية كما أهمل ترجمتها (دعاريه) وإن ترجمها مترجما (جارنييه) و (لويب) .

ولنمض إلى البلاد الأجنبيـــة لنعرف كيف تزاول التنبؤ بالغيب : فالأثينيون — على سبيل المثال لا يعقدون اجتماعا عاما إلا حضره أهل التنبؤ من الكهان الذين يعتبرون التكهن جزءا من الدين ويسمونهم Mantreis

وقد خصص الأسبرطيون رجلا من أهل العيافة ليتولى نصح الملوك، ويكون بمثابة المستشار القضائى لهم، وقرروا أن يحضر الجلسات التى يعقدها مجلس الشيوخ — وهذا هو اسم مجلس الأعيان عندهم — وكانوا فى المسائل ذات الخطر، لا يهملون استشارة « وحى دلفى » أو « جوبتر أمون » Jupiter Hammon أو « دودونا » : Dodona وقد سن « ليكورجوس » : Lycurgus — وهو الذى تولى حكم الأسبرطيين مرة — قوانينه بسلطة وحى أبولو فى دلفى . ولما همّ « ليزاندر » بنقضها منعه الشعب من ذلك، تهيبا من السلطة التى أوحت بها . ثم إن حكام أسبرطة لم يقنعهم البصر بأمورهم إبان اليقظة ، فكانوا ينامون فى معبد فى « باسيفاى Pasiphaë » ، أقيم فى معقل على كثب من المدينة ، لتتراءى لهم الأحلام وهم نيام ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الوحى يصدق إن تلقوه وهم نيام مستريحون .

وإنى لأعود الآن إلى الأحداث التى وقعت فى بلادنا : كم من مرة أمر مجلس الشيوخ الحكام العشرة ذوى الحكم المطلق ، أن يستوحوا كتب الكاهنة فى دلفى ؟ وكم مرة أصاخ فيها لإجابات العرافين فى شئون لها خطرها ؟ وإليك هذه الأمثلة .

عندما شاهد الناس شمسين مرة وثلاثة أقمار مرة أخرى ، وعندما تبدت الشهب ، وعندما أشرقت الشمس مجلجلة ، وعندما لاحت السماء وكأنها تنشق ملقية بكرات من النار[١] كانت كامنة فى جوفها ، وعندما هوت الأرض فى

(١) أشار مترجم لويب إلى أن من المحتمل أن تكون كلمة : ignei قد سقطت من النص اللاتينى الذى ينقل عنه . قارن : Gen Net. Quaesti 1.14 .

« بريفرنوم » Privernum وحمل النبأ إلى مجلس الشيوخ ، وعندما زلزلت « أبوليا » Apulia زلزالها العنيف ، وغارت الأرض إلى عمق لا يتصوره العقل — فى كل هذه الأحداث المنذرة التى زجرت الشعب الرومانى عن شر الحروب الفتاكة والثورات المهلكة الجارفة ، كانت إجابات العرافين على وفاق مع أشعار كاهنة دلفى .

ثم ماذا ترى فى هذه الأحداث الأخرى ؟ عندما تصبب عرقا تمثال « أبولو » فى « كوماى » Cumae وتمثال الانتصار فى « كابيوا » . وعندما وقع هذا الخارق المنحوس ، وهو مولد الخنثى (٢) ، وعندما جرى نهر « أتراتوس » دما ، وعندما أمطرت السماء فى فترات وجيزة الأمد — وابلا من الحجارة حينا والدم حينا آخر ، والتراب تارة بل اللبن تارة أخرى(٣) . وأخيرا عندما أبرقت السماء على تمثال « سنتاور » Ceutaur المقام على تل « كابتولاين » Capitoline وسطعت على الأبواب ، وبهر ضوؤها بعض الناس فى « أفنتاين » Aventine وفى معبدى « كاستور » Castor و « بوللوكس » Pollux فى « توسكولوم » Tusculm وعلى معبد التقوى فى روما — ألم يتكهن العرافون فى كل هذه الأحداث بأمور تحققت بعد ... ! وألم تتضمن الكتب التى خلفتها لنا الكاهنة « سيبايل » كل هذه النبوءات ؟

٤٣ — وفى أثناء حرب المارسى (٤) التى وقعت فى العصر الحديث ، لجأ

---

(١) لا شىء يعرف الآن عن هذا النهر فيما يقول مترجم لويب ولكن (دعاريه) يقول إنه كان على كثب من روما ولكنه كان صغيراً جداً حتى نسى اسمه بمرور الزمن ، ولا نعرف الآن عنه شيئاً .

(٢) يشير « يوليوس أوبسكونس » أكثر من مرة فى كتابه « الخوارق » الى مولد الأطفال المخنثين أو الذين يصعب تمييز جنسيتهم ، وكان النظر فى الأحشاء يشير بقتل هذه المخلوقات الشاذة فى أغلب الأحوال ، وذلك بإلقائها فى الماء . . . (جارنييه) .

(٣) تجد فيضا من مثل هذه الأمثلة فى كتاب « الخوارق » لمؤلفه « يوليوس أوبسكونس » (جارنييه) وتجد مناقشة شيشرون لهذه الأمثلة فى الفقرة السابعة والعشرين وغيرها من الكتاب الثانى .

(٤) خلال الأعوام ٩١ — ٨٩ ق م (لويب)

الناس إلى معبد « جونوسسبيتا » Juno Suspita من جراء حلم رأته « كايكيليا » Caecilia ابنة « كونتوس كايكيليوس متللوس » Q. Caecilius Metellus وهو نفس الحلم الذى عرض لمناقشته « سيسنـــا » : Sisenna باعتباره رؤيا معجزة ، من حيث إن نبوءاتها قد تحققت بتفاصيلها . ومع ذلك فقد ناقض نفسه فى آخر الأمر — متأثرا من غير شك بأحد صغار الأبيقوريين — وقرر فى غير منطق بأن الأحلام لا تستحق أن تكون موضع ثقة من الناس ، ولكن هذا الكاتب نفسه لا يجد ما يقوله طعنا فى الخوارق ، وهو يروى على التحقيق أن حرب المارسى عندما اشتعل أوارها ، تصببت تماثيل الآلهة عرقا ، وجرت الأنهار بالدماء ، وانشقت السماء ، وسمع الناس أصواتا تدوّى من مصادر مجهولة منذرة بحرب ضروس ، ثم شوهدت أخيرا تلك الآية التى يعتبرها العرافون أكثر الشواهد دلالة على الطّيرة ، وهى قرض الجرذان للأتراس فى « لانيفيوم » .

ثم ماذا ترى فى القصة التالية التى تجدها فى حولياتنا ؟ إذ فى أثناء الحرب التى ثارت بيننا وبين أهل « فى » Veii[1] فاضت بحيرة « البانوس » Albanus وعلت المياه فوق شواطئها ، لجأ إلينا أحد أشرافهم ، وقال لنا إن النبوءات التى تتضمنها كتبهم ، تقول إن مدينتهم لا يمكن أن تستسلم للأعداء والبحيرة فى فيضان ، وإذا أمكن أن تفيض مياهها وأن تتجه شطر البحر ، فان نتيجة الحرب تكون شؤماً على الشعب الرومانى ، أما إذا صرفت المياه بحيث لا تبلغ البحر ، فان نهاية الحرب تكون فى صالحنا ، واستناداً إلى هذه الأنباء حفر أجدادنا الأولون هذه القناة العظيمة لتصرف المياه من بحيرة « ألبانوس »[2]

(١) بعد حصار امتد عشرة أعوام من ٤٠٦ — ٣٩٦ ق . م سقطت « فى » فى يد « كاميلوس » Camillus قارن : Plutarch Camil 4; Livy V. 15. (لويب) ومناقشة المثال تراها فى شيشرون فى الفقرة الثانية والثلاثين من الكتاب الثانى .

(٢) قارن Plutarch, Camillus, ch. 3 ff. لترى وصفا يوضح كيف بدأ مشروع الرى المشار اليه هنا (لويب) .

ولما ضاق أهل « فيي » بالحرب آخر الأمر ، وأرسلوا الرسل إلى مجلس الشيوخ فى طلب السلام ، قيل إن أحدهم قد أعلن بأن الهارب — السالف الذكر — لم يجرؤ على أن يعلن بقية النبوءة التى يتضمنها كتب أهل « فيي » لأنها — فيما يزعم — قد تكهنت كذلك بغزو الغاليين لروما مبكرا . وقد وقع هذا — فيما نعلم — بعد سقوط مدينة « فيي » بستة أعوام[1] .

٤٤ — وقد ترامت إلينا الأنباء بأن الحيوانات الريفية ، حماة الرعاة — عند الرومان — ، كثيرا ما سمعت أصواتها أثناء المعارك ، وأن الناس كانوا أوقات الفتن يتلقون نبوءات صادقة من أماكن مجهولة — ولدى من هذا النوع مثل كثيرة ، حسبك منها مثالين رائعين :

« قبيل غزو الغاليين لروما ، سمع صوت صادر من ممر « فستا Vesta المقدس » الذى ينحدر من سفح تل « بلاتاين » ماضياً إلى الطريق الجديد وقال هذا الصوت : يجب أن ترمم حوائط المدينة وتصلح أبوابها ، فاذا أهملتم أمرها ، سقطت المدينة فى يد الأعداء[2] . ولكن هذا النذير لم يصادف اهتماما ، رغم امكان الاستجابة إليه ، فكفروا عن هذا الإهمال بعد وقوع النكبة الكبرى ، بأن أهدوا إلى « أيوس » Aius المتكلم مذبحا ، نراه الآن محوطاً بسياج وملاصقاً للممر — السالف الذكر —

وأما المثال الثانى فقد ساقه كثير من الكتاب ، فعند وقوع الزلزال ، سمع الناس صوتاً صادرا من معبد « جونو » المقام فوق القلعة ، وقد أوجب الصوت أن تقدم خنزيرة حبلى قربانا للتكفير . ومن هنا سميت الإلهة « جونو » بالناصحة ، فهل تجرو بعد هذا على أن تستخف بهذه النذر التى أرسلها الآلهة واعتبرها أسلافنا موضع ثقة وتقدير ؟

---

(١) يصور : Tite—Live V, 15 هذه القصة فى صورة تختلف عن هذه الصورة اختلافا يسيراً (جارنييه) .

(٢) قارن « ليفى » جـ ٥ ص ٣٢ ، ٥٠ (لويب) .

الفأل والطيرة عند الفيثاغوريين وغيرهم :

وكذلك لم يخلع الفيثاغوريون اهتمامهم على صوت الآلهة وحدها ، بل أدركت عنايتهم أحاديث الناس التى يسمونها بالطيرة والفأل . وقد كان على هذا التقدير أسلافنا ، ولهذا فقد كان من عادتهم أن يقولوا قبل البدء بتنفيذ عمل ما : « اللهم سدد خطانا فى أعمالنا وهبنا السعادة والتوفيق » وقد كانو يبدءون الاحتفالات العامة بالشعائر الدينية قائلين : « الزموا الصمت » وكان المألوف فى العيد اللاتينى أن يقال : « فليمسك الناس عن النزاع ، وليكفوا عن الشجار[١] ، وكذلك كان الحال فى احتفال التطهير المقدس الذى كان يعقده من يشرع فى تأسيس مستعمرة ، كما كان هذا حال القائد حين يستعرض جيشه والرقيب حين يحصى الناس ، كانت العادة عند هؤلاء جميعا أن يتخيروا أناساً يحملون أسماء ميمونة ليقودوا الضحايا ، بل إن هذا هو نفس ما يفعله القناصل عند تعبئة الجيش ، إذ يلاحظون أن يحمل الجندى الأول اسما ميمونا ، وقد فطنت أنت نفسك إلى اتخاذ أعظم حيطة عندما كنت قنصلا وحينما توليت القيادة ، وقد اهتم أجدادنا كذلك بأن يكون الصندوق الأول فألا ميمونا فى انتخاب جدير بالثقة[٢] .

٤٥ — والآن فلأقدم لك أمثلة للطيرة والفأل ، قد أصابت من الشهرة حظاً موفورا : « كان لوكيوس باولوس » Lucius Paulus : قنصلا للمرة الثانية ، واختير ليشعل نار الحرب فى وجه الملك « پيرزس Perses ولما عاد إلى بيته

---

(١) كانت أيام العيد أيام سلام ، فيها يتوقف الصراع من أجل الحياة ، وكانت طبقات الشعب على اختلافها — وطبقة العبيد من بينها — تنسى الفوارق التى تفصل بينها — وكانت المدن التى يقاتل بعضها بعضا تحتفل مشتركة فى أيام هذه العطلة بتقديم القرابين . (جارنييه) .

(٢) قارن : Pro Murena 18.38 omen praerogativae وكان نظام التصويت يقوم على القرعة ، وكان صوت أول من فى جماعة المائة يؤخذ كفأل لصوت التالى — فيما يقول : Heitland (لويب) .

فى مساء اليوم الذى عين فيه ، لاحظ حين قبّل ابنته الصغرى « تيرتيا » Tertia — وكانت لم تزل بعد طفلة صغيرة — أن الحزن كان يغلب عليها ، فقال لها : « مابك ياعزيزتى « تيرتيا » . . . ؟ فيم هذا الحزن ؟ فأجابته قائلة : واآسفاه يا أبتاه ، لقد مات « بيرزا » فضم « باولوس » طفلته إلى صدره فى حرارة وقوة وقال لها : سأعتبر هذا فألا يا بنيتى — وقد كان « بيرزا » اسم كلب صغير أدركته المنية .

وقد سمعت « لوكيوس فلاكوس » Lucius Flacuus [1] الكاهن الكبير لاله الحرب ، يروى القصة التالية :—

رغبت « كايكيليا » Caecilia ابنة « متللوس » Metellus فى أن تهيىء زواجا لابنة أختها ، فمضت إلى معبد صغير لتتلق فألها — جريا على عادة القدامى — ومرت فترة طويلة قبل أن تجلس الفتاة الشابة ، واستوت خالتها على أحد المقاعد وقد ساد المكان الصمت ، وأخيرا ضاقت الفتاة بهذا الانتظار ، وقالت لخالتها : « دعينى أجلس قليلا فى مكانك » .

فقالت الخالة « من المؤكد يا طفلتى أنك ستأخذين مكانى » وقد كان هذا فألا ميمونا يبشر بما وقع بعد ذلك ، إذ ماتت « كايكيليا » بعد مدة وجيزة ، وبنت الفتاة بزوج خالتها .

أنا أعلم يقينا أن ضروب الفأل السالفة قد تكون موضع استخفاف ، بل قد تثير السخرية ، ولكن الاستخفاف بالشواهد التى ترسلها الآلهة للناس ، ليس أقل من عدم الاعتقاد فى وجود الآلهة .

تأييد فن العيافة مع غموض أسبابه :

٤٦ — وما حاجتى إلى الكلام عن أهل العيافة ؟ إن هذا عملك ، وأرى أن واجب الدفاع عن استنباء الطيور سانحة وبارحه معاق فى عنقك ،

---

(١) ربما كان « ل . فاليريوس فلاكوس » حاكم روما عام ٦٣ ق . م وقد تولى شيشرون « الدفاع » عنه فى قضية اختلاس عام ٦٠ ق . م (لويب) وقد ناقش شيشرون القصة التى رواها فى الفقرة الأربعين من الكتاب الثانى .

فقد أنبأك الكاهن « أبيوس كلوديوس » Appius Claudius عند ما كنت قنصلا ، بأن الطيور قد أنبأت إبان السلام (١) ، بأن حربا أهلية عنيفة ضروسا توشك أن تحتدم، وقد اشتعلت هذه الحرب بعد ذلك بأشهر قليلة ، ولكنك أخمدتها فى أيام قلائل . وإنى لأثق فى تكهنات هذا الرجل ثقة كبيرة ، إذ لم يقنع بترداد العبارات الترتيلية فى فن العيافة ، فوضع وحده نظاما صحيحا للتكهن بالغيب ، مستعينا فى ذلك بالشواهد التى خلفتها الأعوام الطوال ، وأنا أعلم أن زملاءك يستخفون به ويعتبرونه موضع سخرية ويسمونه « بيسيديا » Pisidian حينا و « سوراويا » Soran (٢) حينا آخر ، ويأبون أن يسلموا بأن العيافة قوة تمكن من سبق النظر أو معرفة المستقبل معرفة صحيحة ، ويزعمون بأن العيافة مهنة خرافية ، وقد اخترعها أهلوها بمهارة لخداع الجهلة والسذج ، ولكن الحقيقة على خلاف ما يزعمون ، فلا أولئك الرعاة الذين تولى « روميلوس » حكمهم ، ولا روميلوس نفسه ، قد أوتوا من الدهاء ما يكفى لاختراع المعجزات التى يضللون بها الناس . . ! إنه العناء والعمل المرهق الذى يتعرض له طلاب هذا الفن (العيافة) فى تعلمه تعلما صحيحا ، هو الذى أغرى المنكرين بهذا الاحتقار البليغ ، لأن الناس يؤثرون أن ينكروا فى ذلاقة استنباء الطيور سانحة وبارحة ، على أن يتحملوا مشاق تعلمه .

والآن أى شيء أوضح فى دلالته على الأصل الإلهى أو استنبا الطيور من قصيدتك التى نظمتها عنه ، وجعلت عنوانها « ماريوس » Marius

---

(١) لعيافة السلام قارن : Dio Cass. XXXVII. P. 40, Tac. Annal. xii,23 وكان يمكن إجراؤها فى أوقات السلام وحدها . والظاهر أنها كانت تنبىء عن إمكان صلاحية الصلاة للدولة أو عدم صلاحيتها ، ويشار هنا إلى مؤامرة « كاتيلاين » Catiline (لويب) .

(٢) أى كفلد للبيسيديين وأهل سورا والثانية مدينة صغيرة فى « لاتيوم » فى توسكانيا — أى أتروريا — أما البيسيديون فكانوا يقفون حياتهم على استنباء الطيور . قارن الفقرة الأولى فى الكتاب الأول هنا ، أما أهل سورا فقد اشتهروا بالخرافات (لويب وديماريه) .

إنى بهذا أستشهد بك — على قدر استطاعتى — كمرجع لى فى تأييد الرأى الذى أعتنقه (١).

٤٧ — أما عن فن العيافة الذى يعزى إلى « روميلوس » والذى أسلفت الحديث عنه ، فإنه كان فنا ريفيا وليس مدنيا ، ولم يبتدعه « روميلوس » ليخدع به الجهلة ، بل تلقاه عن رجال موثوق بهم ، وقد سلموه إلى ذرياتهم من بعدهم، ولهذا فإن « انيوس » يروى القصة التالية عن « روميلوس » وأخيه « ريموس » وقد كان كلاهما عيافا [ذلك أن كليهما قد احتكم إلى الآلهة عند تأسيس مدينة روما ، ولكن الشواهد التى رآها « روميلوس » قد تغلبت على شواهد أخيه](٢)

٤٨ — فلنعد إلى مناقشة الرأى الذى جنح بنا الجدل بعيدا عنه : هب أنى لا أستطيع أن أقدم سببا يبرر ما أسلفت ذكره من أحداث التكهن بالغيب ، وأنى لا أقوى إلا على بيان أنها وقعت على وجه التحقيق ، فأليس هذا جوابا كافيا « لأبيقور » و « كارنيادس » ! وماذا يهم إذا كان شرح التنبؤ الصنعى سهلا ميسورا ، وتأويل التكهن الطبيعى عسيرا نوعا ما ، لأن النتائج التى انتهت اليها ضروب التكهن الصنعى عن طريق النظر فى الأحشاء والبرق ونذر الزجر والتنجيم ، قد أسفرت عنها ملاحظات استغرقت زمانا طويلا ، وهذا الوقت المديد الذى تستغرقه الملاحظات المتصلة ، يمدنا فى كل ميدان من ميادين البحث ، بثروة تتجاوز الحد فى مجال المعرفة التى يمكن اكتسابها دون تدخل الآلهة أو وساطة إلهامهم ، مادام تكرار المشاهدة يوضح المعلول الذى يتبع كل علة ، ويبين عن الشاهد الذى يسبق وقوع الحادثة .

---

(١) نظم شيشرون هذه القصيدة الصغيرة فى شبابه المبكر — فى أهل العيافة — وقرظ فيها « مارنوس » الذى ولد — كشيشرون — فى « أربنيوم » قارن شيشرون De leg 1.1. وقد تكلم عنها فى الكتاب الأول من قوانينه (لويب وديماريه) وخلاصة الشعر الذى أغفلنا ترجمته ، أن نسراً نشب أظفاره فى ثعبان وطار به ، وأخذ الثعبان يتلوى وينهش لحم النسر حتى يضطره الى تركه — وهو شعر سخيف يردده شيشرون طمعاً فى تخليد اسمه كشاعر ، (فيجمع بين الشعر والنثر والخطابة والفلسفة) .

(٢) أنظر كتابى « قصة الكفاح بين روما « وقرطاجنة » ص ٢٨—٢٩ طبعة أولى ؟
المترجم

تأثير التنبؤ الطبيعي

أما الصنف الثاني من ضروب التنبؤ بالغيب فهو التكهن الطبيعي — كما قلت من قبل —[١] وهو — استنادا إلى التعاليم الدقيقة فى الفيزيقا — يجب أن يعزى إلى الطبيعة الإلهية التى صدرت عنها نفوسنا وفاضت فيما يقرر أحكم الفلاسفة، والكون تغمره النفس الأبدية والعقل الإلهى، ولهذا وجب أن تكون النفوس متأثرة باتصالها بالنفوس الإلهية. ولكن القاعدة تقرر بأن الناس عند ما يكونون أيقاظا تستبد بنفوسهم مطالب الحياة اليومية، فتبتعد النفوس بهذا عن الاتصال بالآلهة، لأنها تكون مقيدة بحاجات البدن ومطالبه.

استبعاد التدليل العقلى من مجال التكهن.

ومع هذا فان هناك فئة من الناس — وإن قل عديدهم — يجردون أنفسهم من علائق البدن وشهواته، ويتولاهم ميل قوى إلى التأمل فى الشئون الإلهية، وبعض هؤلاء الناس يلقون نبوءات ليست نتيجة لإلهام سماوى مباشر، ولكنها صدى استدلالاتهم العقلية، فمن ذلك أنهم يتنبأون — استنادا إلى قانون الطبيعة — بحوادث بعينها، كالفيضان أو ما ينتظر أن يقع من تخريب النار للسماوات والأراضين.

أما أولئك الذين غمرتهم شئون الحياة العامة بفيض تياراتها — كسولون الأثينى[٢] Solon، فيما يصفه التاريخ — فانهم يكشفون ظهور البغى والعدوان قبل وقوعه بزمان طويل، وقد يطلق على هذا الصنف من الناس «الذين أوتوا سبق النظر فى المستقبل»، أى «القادرون على معرفة المستقبل قبل تكشفه» ولكننا لانستطيع أن نسميهم «كهانا» كما أننا لا نستطيع أن نسمى «طاليس»

---

(١) فى الفقرة السابعة عشرة والثامنة عشرة من الكتاب الأول «لويب» وانظر مناقشة شيشرون للرؤيا فى الفقرة الثامنة والخمسين من الكتاب الثانى.

(٢) قارن: Val Mex V.3.3, Diog Laert 1.48 (لويب).

Thales الملطى كاهنا ، لأنه — فيما تقول القصة المتواترة — أراد أن يثير حيرة نقاده ، وأن يبرهن لهم على أن الفيلسوف قادر على جمع المال إن رأى ذلك مناسباً له ، فابتاع محصول الزيتون فى إقليم ملطية قبل أن يزهر[١] وربما تراءى له استنادا إلى بعض معلوماته حول الموضوع ، أن غلة المحصول ينتظر أن تكون وافرة . ونقول بهذه المناسبة إنهم يقولون عنه إنه كان أول من تنبأ بكسوف الشمس الذى وقع فى حكم « استياجس » Astyages[٢] .

٤٩ — وفى الكثير من الحالات يتنبأ الأطباء وأدلاء السفن والفلاحون بأمور تتكشف بعد ، ولكنى لا أسمى تكهناتهم جميعا تنبؤاً بالغيب ، ثم هذا الفيلسوف الطبيعى « أناكسيماندر » Anaximander قد أنذر الاسبرطيين بأن يبارحوا مدينتهم ، ويتركوا بيوتهم ، ويناموا فى الحقول مسلحين ، لأن زلزالا يوشك أن يقع ، ووقع الزلزال بعدئذ ، وأصاب بالتخريب المدينة كلها وهدم جزءاً من جبل « تايجتوس » Taygetus كما تحطم مؤخر سفينة وسط زوبعة عاصفة ، بل إن « فريكايدس » Pherecydes صاحب الصيت الطائر الذى علم

---

(١) قارن أرسطو Polit 1.11 ويروى « بلاينى » هذه القصة نقلا عن ديمقريطس . قارن Pliny Hist. Nat. 11. 28 « لويب » ويضيف مترجم جارنييه أن « بلوتارك » يقول فى كتابه « حياة سولون » إن هذا المشرع قد تنبأ بطغيان « بيزاستراتوس » وأن « فاليروس مكسيموس » يقول إن سولون كان الوحيد الذى جرؤ على أن يعلن ضرورة منعه بقوة السلاح من تنفيذ مشروعه ، وأن هذا يتفق مع ما يقوله « بلوتارك » ومع ما يرويه ديوچانس اللايرتى « ج ١ ص ٤٩ » — وأما فيما يتصل بالنظر العقلى الذى يضاف إلى « طاليس » الملطى فإن المؤلف الذى احتذاه شيشرون ربما كان « أرسطو » فى السياسة — كما أشرنا فى تعليق مترجم لويب فى مستهل هذا الهامش . إلا أنه لم يكن دقيقا فيما نقل ، فإن « أرسطو » لم ير أن طاليس قد ابتاع محصول الزيتون كله ، بل أجره سلفا بإعطائه عربونا بسيطا .

(٢) إن الكسوف الذى تنبأ به « طاليس » والذى يحتمل ألا يكون قد استخدم لمعرفة حساب العلماء ، بل اعتمد فى اكتشافه على الخبرة والتجربة ، يبدو أنه هو ذاك الذى وقع عام ٥٨٥ ق . م . ويقول « هيرودوت » فى الفصل الرابع والسبعين من الكتاب الأول إن طاليس قد تنبأ للأيونيين بالعام الذى يمكن أن تقع فيه هذه الظاهرة السماوية (جارنييه) .

« فيثاغوراس » Phythagoras لا يعتبر نبيا ، بقدر ما يعتبر فيلسوفا طبيعيا، لأنه تكهن بوقوع زلزال استنادا إلى ظهور مياه تنفجر من بئر لا تغيض[١] .

التفسير العقلي للتنبؤ بالمس (الجنة)

ومن المحقق أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تتكهن بالغيب تكهنا طبيعيا إلا إذا كانت من الحرية وعدم التقيد بحيث لا تتصل بالجسم إطلاقا ، كما يقع ذلك فى حالتى المس والأحلام . ولهذا قرر هذين النوعين من التكهن « ديكياركوس» Dicaearchus وكذلك صديقنا «كراتيپوس» Cratippus فيما ذكرت من قبل .

فلنسلم بأن هاتين الطريقتين أسمى ما عرف من ضروب التكهن بالغيب ، لأنهما تصدران عن الطبيعة رأسا ، بيد أنا لا نسلم بأنهما كل ما عرف من ضروب التنبؤ . ولكن إذا كان « ديكياركوس » و « كراتيپوس » يعتقدان من جهة أخرى بأن التكهن القائم على الملاحظة لغو وعبث ، فانهما يقرران بذلك نظرية تهدم الأساس الذى يقوم عليه الكثير من شئون حياتنا اليومية . بيد أن هذين الرجلين يسلمان معنا بعض التسليم بالتكهن عن طريق المس والأحلام ، وليس هذا بالشيء الهين العسير ، ولهذا فانى لا أجد مبررا يحمل على إثارة المناقشة الحارة العنيفة فى وجههما ، ولاسيما وأن هناك فلاسفة يأبون التسليم بكل ضروب التكهن بالغيب ، مهما يكن أمرها .

وإذن فهؤلاء الذين تتجرد نفوسهم من علائق أجسادهم ، يحلقون بأجنحتهم خارج أبدانهم ، وقد اضطرمت نفوسهم واهتاجت بنوع من العاطفة ، أقول إن هؤلاء الناس يرون على وجه التحقيق الأشياء التى يتكهنون بها فى نبوءاتهم، مثل هـــذه النفوس لا تعلق بالأبدان ، وهى تضطرم بكثير من مختلف التأثيرات ، فمن ذلك أن بعضها تهيجه بعض الألحان ، كالأغانى التى يترنم بها أهل « فريجيا » ، والكثير منها تهيجه الغابات والأحراج ، وبعضها تهيجه الأنهار والبحار ، وأنا أعتقد بأن هناك أبخرة تكمن فى باطن الأرض ، تلهم الناس الوحى ، وفى كل هذه الحالات ترى النفس التى اعتراها المس المستقبل

(١) دل مظهر المياه على الاضطراب الباطنى . قارن بلايني فى : Hist. Nat. 11.83 .

قبل تكشفه بزمان طويل، كما رأته « كساندرا » فى حادثة باريس وعودة هيلين (١).

فى مثل هذه الحالة من سمو النفس، قيل الكثير من ضروب النبوآت ولم يتبدّ فى النثر وحده، ولكنه ظهر كذلك.

[شعرا كانت تغنيه قديما آلهة الرعاة وينشده الكهان] (٢).

ونلاحظ أيضا أن «ماركيوس» Marcius و«بوبليكيوس» Publicius (٣) قد أعلنا نبوءاتهم شعرا — فيما تقول القصة المتواترة — وبنفس هذه الطريقة قد أعلنت نبوءات « أبولو » الخفية (٤).

التفسير العقلى للتنبؤ عن طريق الرؤيا

٥٠ — « هذا هو التفسير النظرى العقلى للتنبؤ عن طريق المس، أما التنبؤ عن طريق الرؤيا فانه لا يختلف عنه كثيرا، لأن الوحى الذى ينزل بالرئين وهم أيقاظ، يهبط علينا ونحن نيام، فعندما ننام ويسجى الجسم كأنه جثة هامدة فارقتها الحياة، تكون النفس فى أعظم حالاتها، لأنها تكون عندئذ قد تحررت من علائق الحواس البدنية، وتخلصت من الشئون الدنيوية التى تثقل كاهلها. ولما كانت النفس قديمة أزلية، وكان يعرض لها الحديث مع نفوس أخرى لا يحصيها العد، فانها ترى كل ما يجرى فى الطبيعة، بشرط

---

(١) تتحدث « كساندرا » فى أبيات قد أهملنا ترجمتها لسخافتها عن حكم « باريس » وعودة « هيلين ». وناظم الأبيات غير معروف (لويب) وانظر الفقرة الخامسة والخمسين من الكتاب الثانى.

(٢) من « أنيوس » فى حولياته جـ ٧ ص ٢ (لويب).

(٣) ذكر « بوبليكوس » مرة أخرى فى الكتاب الثانى فى الفقرة الخامسة والخمسين ولا شئ يعرف عنه سوى هذا (لويب).

(٤) ربما كانت « نيمفس » Nymphes : إلهة المياه والغابات هى مصدر الالهام الرئيسى عند المجاذيب من الرئين والرئيات معا، وإلى جانبها « ديونيسيوس » رفيقها ورضيعها — إذا جاز أن نقول ذلك — وهو ابن زيوس والأرض (جارنييه) وأنظر الفقرة الخامسة والخمسين من الكتاب الثانى.

أن يلتزم المرء الاعتدال وكبح شهواته فى المآكل والمشرب، فإن النفس تكون عندئذ فى حالة يقظة، بينما يعترى الجسم النوم — هذا هو تفسير التكهن عن طريق الرؤيا .

نظرية أنتيفون Antiphon

تعبير الرؤيا

ومن الملائم أن نذكر الآن نظرية « أنتيفون »[١] الشائعة فى تأويل الأحلام ، وهو يرى أن التأويل يعتمد على المهارة الفنية ولا يستند إلى الإلهام . وكان يعتنق مثل هذا الرأى بصدد تأويل النبوءات التى يكشف عنها الوحى أو ينطق بها من اعتراهم المس ، إذ لكل من هذه الصور مؤولون ، كما أن للشعراء شراحاً .

مبررات تعبير الرؤيا : غموضها

ومن البين أن الطبيعة الإلهية لا تكون قد أدت عملا مجدياً ، إذا كانت قد اقتصرت على خلق الحديد والنحاس والفضة والذهب ، دون أن تكشف لنا عن العروق التى تجثم فيها هذه المعادن ، إن نعمة غلات الحقول وفاكهة الحدائق ، كانت تصبح عديمة النفع للبشر إذا لم نكن على علم بطريقة زراعتها ، وكيفية إعدادها للطعام ، ولا يفيد الناس شيئاً من مواد البناء (الخشبية) ، إذا لم تحولها صناعة النجار إلى خشب مهيأ للاستعمال ، وهكذا الحال مع كل شىء منحته الآلهة لمصلحة الجنس البشرى ، فإنهم منحونا فناً أو صناعة تمكننا من استخدامه لصالحنا ، ومثل هذا يقال فى الأحلام والنبوءات والوحى ، إذ أن الكثير منها يشوبه الغموض ، ويعترينا الشك فى أمره ، ولهذا وجب أن نلجأ إلى مهارة المحترفين من المؤولين .

---

(١) قارن الفقرة العشرين من الكتاب الأول (لويب) وانظر هامش الفقرة السبعين من الكتاب الثانى عن انتيفون .

العناية الألهية بأفراد الشعب :

وثمة مشكلة عويصة بصدد الطريقة التى بها يتمكن الأنبياء وأهل الرؤيا الصادقة من أن يروا الأشياء التى لا يكون لها فى نفس الوقت وجود فعلى فى مكان ما ، ولكن هذه المشكلة يسهل حلها متى استقصينا بعض المسائل التى تتطلب التبصر بادىء الأمر ، لأن النظرية التى تناولتَ فيها طبيعة الآلهة ، وأحسنتَ مناقشتها فى الجزء الثانى من كتابك الذى وضعته عن هذا الموضوع ، تتضمن هذه المشكلة كلها ، فاذا قررنا هذه النظرية ، فإنا نقر نفس النقطة التى أحاول الآن علاجها ، وهى : « أن هناك آلهة ، وأنهم يهيمنون على الكون بما لهم من سبق النظر فى المستقبل ، وأنهم يدبرون شئون الناس ، ولا أعنى الناس جملة فحسب ، بل أقصد كل فرد منهم على حدة » فاذا وفقنا فى تقرير هذا الرأى — وهو رأى متماسك فيما أظن — أسفر هذا — على وجه التحقيق — عن الاعتقاد بأن الآلهة تقدم للناس شواهد تنبىء عن الحوادث المقبلة .

٥١ — ولكن من الضرورى — فيما يلوح — أن نقرر الأساس الذى تستند إليه هذه الشواهد ، إذ أن الآلهة — فيما تقرر نظرية الرواقيين — لا يحملون مباشرة تبعة كل شق يجرى فى كل كبد ، أو كل أغنية يترنم بها طائر ، إذ أن من البين أن هذا أمر لا يليق بالإله ولا يتفق مع جلاله ، ثم إنه فوق هذا أمر مستحيل ، ولكن الكون قد خلق أول الأمر على هذا النحو ، حتى أن بعض النتائج ينبغى أن تسبقها شواهد بعينها ، تكشف عنها الأحشاء والطيور حينا ، ويبين عنها البرق ونذر الزجر وأحكام النجوم حينا آخر . وتوضحها الرؤيا الصادقة تارة ، ونبوءات من تعتريهم الجِنة تارة أخرى ، وهذه الشواهد فى أغلب حالاتها لا تخدع الذين يلتزمون الدقة فى ملاحظتها ، فاذا تحقق كذب النبوءات التى تستند إلى استدلالات فاسدة ، وتأويلات باطلة ، فان الخطأ فى هذا لا يعزى إلى الشواهد ، ولكنه يرجع إلى نقص فى مهارة المؤول .

موقف الآلهة من التكهن الصنعي :

فاذا افترضنا صحة القضية التي تقرر وجود قوة إلهية تتغلغل فى حياة الناس ، فليس من العسير أن نتصور المبدأ الذى يهيمن على ما نلاحظ وقوعه من شواهد منذرة ، فقد تشرف على اختيار الضحية التي تقدم قربانا ، قوة عاقلة تشيع فى الكون كله ، أو ربما يقع فى اللحظة التي تقدم فيها الضحية تغيّر يصيب أحشاءها ، وقد يضاف إليها أو ينزع منها شيء ما ، يشهد بهذا ما نلاحظه من وقوع مثل هذه التغيرات فى لحظة قصيرة ، وأعدل شاهد يمكّن لهذه الحقيقة ويرفعها فوق كل شيء ، يبدو فى حوادث وقعت قبيل مصرع قيصر Caesar إذ كان يقدم القرابين فى اليوم الذى استوى فيه لأول مرة على عرش ذهبي ، وظهر فى بداية الأمر أمام الجمهور فى ثوب أرجوانى ، فلم يجدوا أثناء ذلك قلبا فى أحشاء الثور الذى تذروه[١] ، فهل تظن أن من الممكن لأى حيوان يجرى الدم فى شرايينه أن يعيش بغير قلب ؟ ولكن قيصر لم تثره الحادثة ، بل لم يكترث بنذير « سبورينا » Spurinna[٢] الذى حذره ليأخذ حيطته ، مخافة أن ينضب معين فكره ويغيض فيض حياته ، وكلاهما — فيما قال — يصدر عن القلب . وفى اليوم الثانى لم يجدوا لكبد الضحية رأسا ، وقد بعث الآلهة المخلدون بهذه النذر المشئومة إلى « قيصر » ليرى مصرعه قبل وقوعه ، لا ليتمكن من اتقاء شره ، وعلى هذا فان هذه الأعضاء التي لا تستطيع أن تعيش الضحية بدونها ، إذا عزّ وجودها فى الأحشاء ، وجب أن نفهم من هذا أن هذه الأعضاء قد اختفت فى نفس اللحظة التي يذبح فيها الحيوان قربانا .

٥٢ — إن الإرادة الإلهية تؤدى فى حالة الطيور إلى نتائج مماثلة للنتائج السالفة ، فتنتهى بالطيور التي تكشف بطيرانها عن الفأل والطيرة ، إلى أن

---

(١) قارن « بلايني » Hist. Nat.XI. 71 وفاليروس ماكسيموس Plut., Val. Max Caes 1.6.13 (لويب) .

(٢) كان العراف الذى أنذر قيصر أن يحذر منتصف شهر مارس . قارن : Suet. Iul. Caes. 81 (لويب) .

تحلق فى فضاء الجو هنا وهناك ، وتختفى فى هذا المكان حيناً ، وفى ذاك حيناً آخر ، وهذه الإرادة نفسها هى التى تفضى بالطيور التى تكشف بصياحها عن الزجر(١) ، إلى أن تغرد على اليسار حيناً ، وعلى اليمين حيناً آخر ، إذ لو كان كل طائر يتيامن فى طيرانه أو يتياسر حسب إرادته ، أو يندفع إلى الأمام أو يتراجع إلى الوراء وفقاً لرغبته ، لكان يثنى أعضاءه وينحرف بها ، ويبسطها ويقبضها كيفما بدا له ، ولكان يؤدى هذه الحركات المختلفة بطريقة تكاد تكون آلية ، ولكن ما أسهل أن يهيمن على هذه الحركات إله ، ينصاع لإرادته الإلهية كل شىء . ! وهذه الإرادة نفسها ترسل إلينا شواهد قد حفظ منها التاريخ كثيراً ، فمن هذا الذى سجله التاريخ تلك الأحداث :

خسف القمر قبيل طلوع الشمس عند برج الأسد ، فدل هذا على أن « داريوس » Darius والفرس سينهزمون فى معركة أمام المقدونيين الذين يتولى إمرتهم الإسكندر(٢) ، وأن داريوس سيلقى حتفه .

---

(١) الطيور التى تكشف الطالع بطيرانها (alites) كالنسر والصقر والباز الأصلع ونحوه أما التى تكشف الطالع بأصواتها(Oscines) فكالغراب والبوم ونحوه — قارن Festus ص١٩٣ فيما يقول مترجم لويب ويضيف مترجم جارنييه إلى هذا القول أن النظرية التى يعرضها « شيشرون » فى هذه الفقرة تكاد تشبه نظرية سقراط التى يرويها اكسانوفون (Memorable, 1,1,3) حين يقول : إنها ليست الطيور نفسها هى التى تعرف وجه النفع ، وليست الأحداث العرضية هى التى تنطوى بنفسها على معرفة شىء ما ، ولكنها الآلهة ، تستخدم شواهد مختلفة ، وربما استخدمتها بلغة ملائمة لتحذير الناس . ويتحدث « كليمان الأسكندرى » (فى Protreption) عن الأشقياء الذين يعتقدون بأن الله يمكنهم من العلم بالأمور عن طريق طيور بعينها . ويقول : Contra Celsum IV, 360 إن القائلين بهذا ليسوا على اتفاق فيما بينهم ، إذ يعتقد البعض بأن آلهة أو شياطين تشرف على حركات الطيور بطريقة ما (وهذا هو رأى كونتوس) أو تضطرها إلى إخراج أصوات معينة بطريقة تمكن الناس من العلم بأمور بعينها . ويعتقد غير هؤلاء أن نفوس الحيوانات تنطوى على شىء إلهى يجعلها قادرة على المعرفة المفيدة ، ويضيف أوريجان Origène إلى هذا قائلا إن هذه النظرية لا أساس لها من الحقيقة فيما يلوح .

(٢) تستطيع أن تربط مايقوله « كونتوس » هنا بالفقرة التى ذكر فيها Quinte—Curce (فى الكتاب الرابع فى الفصل العاشر) أن الأسكندر قد توقف يومين على ضفة نهر النيجر ، ونشر خسوف القمر الرعب فى جيشه ، فاستدعى الملك كهنة مصريين يحسنون معرفة العلة الطبيعية لكل ظاهرة طبيعية ، ولكن المصريين أرادوا أن يطمئنوا المقدونيين فقالوا لهم : إن الشمس للأغريق ، والقمر للفرس ، وخسوف القمر يهدد الفرس بنكبة تحيق بهم (جارنييه) .

ومن هذه الأمثلة أن طفلة ولدت برأسين ، فكان هذا تنبؤاً بفتنة تثار بين الشعب، وغواية وزنى يقع فى بيتها .

ومن هذا أيضاً أن امرأة رأت فى منامها أنها وضعت أسداً ، فكان تأويل هذا أن المملكة التى وقع فيها حلمها ستغزوها شعوب أجنبية عنها .

ومن أشباه هذا حادثة يرويها « هيرودوت »[1] ، ذلك أن ابن « قارون » Croesus. قد تكلم وهو لا يزال فى المهد صبياً ، فكان تأويل هذا الخارق أن أباه سيفقد مملكته ، وأن أسرته ستتقوض .

وأى مؤرخ فاته أن يسجل تلك الحقيقة التى تقرر بأن «سرفيوس توليوس» : Servius Tullius عندما اعتراه النوم اشتعل رأسه ناراً . ؟ وكما أن الإنسان تكون أحلامه صادقة واضحة متى تهيأ للنوم وقد غذت الأفكار النبيلة عقله ، واتخذ كل حيطة تكفل راحته ، فكذلك يكون عند يقظته ، أكثر استعداداً لإجادة التأويل الصادق فى تنبؤات الأحشاء والنجوم والطيور وسائر الشواهد متى كانت نفسه نقية غير مدنسة .

الوحى الإلهى عند سقراط يؤيد التكهن الطبيعى :

٥٣ — وليس من شك فى أن هذا الصفاء الذى تمتاز به النفس، هو الذى يفسر لنا هذه الكلمة المشهورة التى يعزوها التاريخ إلى « سقراط »، والتى كثيراً ما يصوره تلامذته فى كتبهم وهو يرددها مكرراً : « إن هناك شيئاً إلهيا — ذلك هو الذى أطيعه دواما ، ورغم أنه لا يدفعنى إلى عمل ما ، فانه كثيراً ما يمنعنى من الإقدام على عمل ما » .

وقد كان سقراط نفسه — وأى مصدر أوثق منه نستطيع أن نقتبس عنه — كان هو الذى استشاره « اكسانوفون » Xenophon [2] فى أن يذهب فى إثر « كايروس » Cyrus وبعد أن أشار سقراط بما بدا له خيراً ، قال له : ولكن

(١) هيرودوت ج ١ ص ٨٥ (لوب) .

(٢) قارن اكسانوفون فى Anab. III. 1.4: (لوب) .

رأى ليس إلا رأى بشر ، وإنى أنصح بأن يستشار وحى أبولو فى الأمور التى تثير الشك وتدعو إلى الحيرة . وقد كان هذا الوحى كثيرا ما يستشيره الأثينيون فى شئونهم العامة الجدية .

ويروى عن سقراط أنه رأى ذات يوم صديقه « أقريطون » Criton وقد عصب عينه برباط ، فقال له مستفسراً : « ماذا دهاك يا أقريطون ؟» فأجابه هذا قائلا :

« بينما كنت أتجول فى الريف ، إذ بغصن شجرة مُنحن قد انطلق وأصاب عينى » فقال سقراط : « هذا معقول ، لأنك أبيت طاعتى عند ما أرسلت فى طلبك لتعود من حيث كنت ، استناداً إلى النذير الإلهى الذى اعتاد زجرى » .

ويروى عن « سقراط » كذلك أنه فر فى ركاب قائده بعد انتهاء المعركة المشئومة التى وقعت فى « دليوم » Delium تحت إمرة « لاشز » Laches فلما بلغوا مفرق طرق ثلاث ، أبى سقراط أن يسلك الطريق التى اختارها الآخرون، ولما سئل عن سبب رفضه أجاب قائلا : « إن الله يزجرنى عن ذلك » . أما الذين سلكوا الطريق الأخرى فقد وقعوا أسرى فى يد فرسان العدو[١] . وقد جمع « أنتيباتر » Antipater مجموعة من النذر المعروفة التى كان « سقراط » يتلقاها ، ولكنى سأهمل ذكرها لأنك على علم بها ، وليس من المجدى أن أعيد روايتها . ولكن الكلمة التالية [٢] التى أعلنها هذا الفيلسوف عند ما صدر الحكم الأثيم بموته ، تعتبر مثالا نبيلا ، أكاد أعتبره إلهيا ، إذ قال :

« إنى لمغتبط لهذا الموت كل الاغتباط ، إذ أن الله لم يعطنى شارة عندما بارحت دارى ، ولا عند ما اعتليت هذه المنصة لأتولى الدفاع عن قضيتى ، ومن عادة الإله أن يعطينى هذه الشارة كلما هددنى الشر » .

---

(١) يلاحظ أن بلوتارك فى مؤلفه الوجيز الذى يتحدث فيه عن شيطان سقراط ، يسهب فيما يوجز فيه « شيشرون » هنا (لويب) .

(٢) قارن أفلاطون ، فى الفقرة الحادية والثلاثين من محاورة الدفاع (لويب) .

٥٤ — ولهذا فانى أرى أن القدرة على التكهن بالغيب قائمة ، مع أن من المحقق أن هؤلاء الذين يعتمدون على الصنعة أو الحدس . كثيرا ما يعتريهم الخطأ ، ولكنى أعتقد أن الناس كما يستهدفون للخطأ فى شتى الحرف ، فكذلك حالهم إزاء التنبؤ بالغيب ، فقد يحدث أن يقبل الكاهن شاهدا مشكوكا فى أمره ، باعتباره شاهداً يقينياً ، ومن الممكن كذلك أن تفوت الكاهن ملاحظة الشاهد ، أو إهمال شاهد آخر يلغى الشاهد الذى كان قد لاحظه .

ولست محتاجا إلى إقرار القضية التى أناقش فى أمرها ، إلى كثير من المثل ، بل حسبى أن أجد القليل منها ، يصور نبوءات ونذرا كانت صدى لإلهام إلهى ، فانى إذا عثرت على مثال واحد من هذا النوع ، وكان الاتفاق بين التكهن والشيء المتنبأ به قويا بحيث يستبعد معه كل احتمال للمصادفة أو الاتفاق العرضى ، فانى لا أتردد فى أن أقول فى مثل هذه الحال : إن التكهن بالغيب قائم لا محالة ، وأن من واجب كل امرىء أن يسلم بوجوده .

مصادر التكهن :

ولهذا فان من الضرورى فيما يلوح — أن نقتدى بـ « بوسيدونيوس » Posidonius ، ونرد المبدأ الجوهرى الذى يقوم عليه التكهن بالغيب إلى ثلاثة مصادر :

أولها : الإله ، وقد أسلفنا ما فيه الكفاية فى مناقشة علاقته بهذا الموضوع . وثانيهما : القدر[1] ، وثالثها : الطبيعة .

القضاء والقدر فى مجال التكهن :

وإن العقل ليحملنا على التسليم بأن كافة الأشياء تحدث قضاء وقدراً ، وأقصد بالقضاء ما يعتبره الإغريق : « تتابعا منظما للعلل ، وارتباطاً يقوم بين كل علة

---

(١) وللقدر كذلك ثلاث إلهات عند القدماء هن « كلوتو » و « لاشيزوس » و « أتروبوس » وهن اللائى يحددن مولد الناس وحياتهم وموتهم .

وأخرى ، وتفضى كل منها فى ذاتها إلى معلول ، وتلك حقيقة أبدية أزلية . وعلى هذا فان شيئا لم يحدث إلا وكان وقوعه أمراً لا مناص منه ، ولن يقع فى مقبل الأيام أمر ، دون أن تكون له فى الطبيعة علة تكفى فى تبرير وقوعه ، ونحن نعلم بالتالى أن القدر هو الذى تسميه لغة العلم — لا لغة الجهل — العلة الأزلية الأبدية فى وقوع الأشياء « فهى علة الأشياء فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل » . ومن ثم فقد يتمكن المرء بالملاحظة من أن يعرف أن معلولا بعينه يتبع فى حالات كثيرة علة بعينها ، وإن لم تتضح العلة فى بعض الحالات ، إذ أن من الإسراف القول بوضوح هذه العلة فى كل حالة ، ومن المحتمل أن يدرك الذين يعتريهم المس أو تتراءى لهم الأحلام وهم نيام ، تلك العلل عند ما تفضى إلى وقوع الأحداث المقبلة .

٥٥ — ثم مادامت جميع الأشياء تقع قضاء وقدراً — كما سنبين فى مكان آخر (١) — فانه متى وجد إنسان تستطيع نفسه أن تميز الحلقات التى تربط العلل بعضها بالبعض ، فان من المؤكد أنه لا يخطىء فى أى تكهن يحتمل أن يقوله ، لأن الذى يعرف العلل التى تفضى إلى الأحداث المقبلة ، يعرف بالضرورة ماذا تكون كل حادثة قادمة ، ولكن مثل هذه المعرفة لا تتهيأ لغير الله ، وما يتبقى للإنسان بعد هذا إنما هو الحجس بالمستقبل استناداً إلى شواهد خاصة ، تنبىء بما يتبعها من أحداث ، والأشياء التى لا مناص من وقوعها لا تظهر إلى الوجود على غير انتظار ، فتطور الزمان يشبه فك أسلاك التف بعضها حول بعض ، فان هذا التطور لا يخلق شيئاً جديدا ، ولكنه يرتب كل حادث فى مكانه .

« وهذه العلاقة القائمة بين العلة والمعلول ، واضحة لصنفين من مدركى الغيب ، لأولئك الذين وهبوا التكهن الطبيعى ؛ وأولئك الذين يعرفون مجرى

---

(١) حقيقة النص اللاتينى هنا مشكوك فى أمرها لسببين : (١) أن فيما بقى لنا من كتاب (شيشرون) عن « القدر » نجد عكس ما يقال فى هذا النص السالف (٢) ولأن ألفاظ النص تدل على أن ماركوس شيشرون يتصور أنه هو نفسه المتكلم ، وينسى — مؤقتا — أن المتكلم إنما هو كونتوس ، إلا أن المخطوطات تؤيد هذا النص (لويب) .

الأحداث بملاحظة شواهدها ، وقد لا يرون العلل نفسها ، ولكنهم يرون شواهدها ، ويتبينون آيات عللها ، والملاحظ أن الدراسة الدقيقة مع جميع هذه الشواهد ، والاستعانة بالأدلة التى خلفتها العصور القديمة ، قد أبانت عن هذا النوع من التكهن المعروف بالصنعى ، وهو الذى يقوم على معرفة الغيب عن طريق النظر فى الأحشاء والبرق والنذر الزاجرة والظواهر السماوية .

ولهذا فليس بدعا أن يحس مدركو الغيب بأشياء لا وجود لها فى العالم المادى إطلاقا ، لأن جميع الأشياء موجودة ، وإن غابت عن الوجود فى فترة معينة ، وكما أن البذر قد كمنت فيه نواة ما ينتجه من نبات ، فكذلك الحال فى العلل ، قد كمنت فيها حوادث المستقبل التى يكشف العقل أو الحدس وقوعها قبل حدوثه ، أو تراه النفس متى أدركها الإلهام عن طريق المس ، أو عند ما تتحرر من قيودها إبان النوم ، والذين لاحظوا مرارا أن الشمس والقمر وسائر الكواكب تجرى فى مستقر لها ، وعرفوا شروقها وغروبها ودورانها [١] ، يستطيعون أن يتنبأوا بموقع كل كوكب من هذه الكواكب فى وقت محدد ، قبل أن يستقر الكوكب فى موقعه بزمان طويل ، ومن الممكن أن يقال هذا نفسه عن أولئك الذين تناولوا جريان الحقائق وعلاقة الحوادث بالدراسة والملاحظة فترة طويلة من الزمان ، لأنهم يعرفون على الدوام كيف يكون المستقبل ، أو إذا كان هذا التعبير أقوى مما ينبغى ، فلنقل إنهم يعرفون ذلك فى معظم الحالات ، فاذا لم تسلم بهذا التعبير أيضا ، فمن المؤكد أنهم يعرفون فى بعض الأحايين على أى وجه سيكون المستقبل ، وقد أحدث وجود التهكن بالغيب — مع حجج قليلة أخرى من نفس النوع — هذه الدلالة التى قامت على فكرة القدر .

طبيعة النفس الإنسانية كمصدر للتكهن :

٥٦ — ثم إن التنبؤ بالغيب يجد سندا قويا آخر فى الطبيعة ، التى تبين

(١) كان المعتقد عند صدور هذا الكتاب — فى القرن الأول قبل الميلاد أن الأرض ثابتة لأنها مركز الكون ، وأن الشمس وسائر الكواكب تدور حولها .

عن مقدرتها على التهكن بالغيب عند ما تتجرد من علائق الجسد، وذلك ما نراه بوجه خاص إبان النوم، أو فى الأوقات التى يعترى النفس فيها مس أو إلهام. وكما أن نفوس الآلهة يفهم بعضها بعضا، وتدرك ما يفكر فيه كل منهما، دون الاستعانة بعين أو أذن أو لسان، إلى حد أن الناس لا يشكون فى أن الآلهة تعلم أمرهم حتى عند ما يؤدون لها الصلوات الصامتة ويقدمون النذر فى غير جلبة، فكذلك الحال فى نفوس البشر، فهى عند ما تتحرر بالنوم من علائق البدن، أو حينما يحركها الإلهام، وتتخلص من أهوائها، ترى الأشياء التى كانت لا تقوى على رؤيتها وهى مقيدة بروابط الجسد، وقد يتعذر علينا أن نطبق مبدأ الطبيعة هذا، فى تفسير ذلك النوع من التهكن الموسوم بالصنعى، ولكن «بوزيدونيوس» الذى يتعمق فى دراسة الموضوع ما استطاع إنسان إلى ذلك سبيلا، يظن أن الطبيعة تقدم للإنسان شواهد معينة تنبىء عن حوادث المستقبل، ولهذا يروى «هراقليدس» — من أهل بونتوس Hiraclides of Pontus — أن العادة قد جرت عند أهل «كويس Coes» بأن يلاحظوا — ملتزمين الدقة فى ملاحظتهم — ظهور نجم الشعرى مرة فى كل عام، ويحدسون استنادا إلى هذه المشاهدة بما إذا كانت السنة التالية ينتظر أن تدر على الناس صحة وعافية، أو تنزل بهم أمراضا مهلكة، إذ أن النجم إذ ظهر كدرا محوطا بالضباب، دل هذا على ما ينتظر من جو ثقيل كثيف يبعث أبخرة لا تلائم الصحة إطلاقا، فاذ ظهر النجم واضحا مضيئا، كان هذا شاهدا على أن الجو سيكون خفيفا ونقيا، وبالتالى سيكون مؤديا إلى الصحة الجيدة.

ويوضح «ديمقريطس» — الذى عبّر عن رأيه بأن القدماء كانوا حكماء حين أقروا النظر فى أحشاء الضحايا — أن لون الأحشاء وحالتها العامة — فيما يظن «ديمقريطس» — تنبىء بالصحة تارة وبالمرض تارة أخرى، وتكشف فى بعض الأحايين عما إذا كانت الحقول سيصيبها المحل والإجداب، أو تدركها الخصوبة والإنتاج، ثم إذا كانت المشاهدة والتجربة تقرران بأن هذه الطرق

تنحدر فى أصلها إلى الطبيعة ، فينبغى أن تكون المشاهدة التى استغرقت مدة طويلة ، والأدلة التى خلفها لنا الزمان المديد ، قد أضافت إلى معلوماتنا عن الموضوع شيئا كثيرا ، ومن ثم يبدو أن هذا الفيلسوف الطبيعى الذى قدمه « باكوفيوس » Pacuvius فى روايته « كرايزس » Chryses كان يعوزه فهم قوانين الطبيعة فهما صحيحا عند ما قال :

« إن الذين يفهمون حديث الطيور ، ويعرفون من أكباد الحيوانات أكثر مما يعرفون من أكبادهم[1] ، كانوا يحسنون صنعا — فيما يلوح — لو أنهم استمعوا لكل ما يقال فى ذلك دون أن يعملوا به » .

ولست أدرى لماذا يقول هذا الشاعر مثل هذا الكلام ، مع أنه يقول فى وضوح تام بعد ذلك بأبيات قليلة :

« مهما تكن حقيقة هذه القوة[2] أو كنهها ، فانها تهب الحياة وتخلق وتشكل الأشياء ، وتزيدها وتغذيها ، وإليها مرجع كل شىء ، فهى أصل كل الأشياء جميعها منها يخرج كل شىء وإليها يعود كل شىء » . . .

وقال كونتوس : « هذا هو كل ماينبغى أن أقوله عن التكهن بالغيب » .

مهاجمة الدجالين والمرتزقة من مدعى الكهانة :

٥٧ — ولكنى أعلن فى نهاية حديثى أنى لا أقر الذين يتكهنون بحظوظ الناس ، ولا الذين يتنبأون طمعا فى المال ، ولا الوسطاء ولا الذين يستدعون أرواح الموتى ويستفسرون منها عن الغيب[3] . وإن كان صديقك « أبيوس »

---

(١) كثيراً ما يتحدث عنها كمركز للانفعالات ، ولكنه يتحدث عنها هنا كمركز للعقل (لويب) .

(٢) يشير هنا إلى الأرض ، ويخلع عليها شخصية إله العالم الأرضى . قارن « شيشرون » N.D. 11.26.68 (لويب) .

(٣) حفلت روما بأهل التنجيم والكهانة ممن كانوا يستغلون سرعة التصديق عند طغام الناس — ويرى « شيشرون » ألا يخلط بين أخيه « كونتوس » وأولئك الذين ينخدعون بدجل المرتزقة ومدعى الكهانة (جارنييه) .

Appius (١) يستعين بهم ، لأن هؤلاء لا يعتبرون من مدركى الغيب لا بالمعرفة ولا بالمهارة(٢) .

[لا قيمة عندى لعراف مارسى أو عياف قروى أو منجم يختلف إلى الملعب أو مفسر أزيسى أو معبر أحلام] لأن هؤلاء لا يتنبؤون عن علم أو صناعة [ولكنهم كهان خرافات ، وعرافون قد ذهب ماء وجوههم ، فهم كسالى أو مجانين أو أرباب عوز وحاجة ، إنهم لا يعرفون الطريق ، ولكنهم رغم هذا يرشدون إليه الناس ، يعدون الناس بالثراء ، ومع ذلك يسألونهم درهما ، فليأخذوا الدرهم من الثروة التى وعدوا ، وليردوا ما بقى منها بعد ذلك..!]

ذلك هو نص ما يقوله « إنيوس » الذى يشرح قبل هذا بأبيات قليلة(٣) الرأى الذى يقرر وجود الآلهة ، ومع ذلك يقول بأن الآلهة لا تعبأ بما يفعل البشر .

وأما من جهتى فانى أعتقد أن الآلهة تهتم بالإنسان لا محالة ، وأنها تلقى اليه بالنصح والتحذير ، ولهذا فانى أعتقد بالتكهن الجدى الصادق ، ذلك الذى خلا من التزييف ، وبرىء من الخداع والاحتيال .

فلما فرغ « كونتوس » من حديثه قلت له : إنك جئت يا عزيزى « كونتوس » معداً للكلام إعداداً طيباً باهراً .

---

(١) هو « أبيوس كلوديوس » زميل « شيشرون » فى ديوان العيافة . قارن الفقرة السادسة والأربعين فى الكتاب الأول (لويب) وانظر كتابى قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٣٨ — ٤١ (طبعة أولى) .

(٢) ونظم « Giese » و « دايفز » و « موزر » هذه الكلمات شعراً فى أربع أبيات ولكن « مولر » وضعها نثراً (لويب) وقد نقلها مترجما لويب وجارنييه ، ونقلها دعاريه نثراً ، ولخصناها نحن نثرا .

(٣) قارن الفقرة الخمسين من الكتاب الثانى ، ثم الفقرة الثانية والثلاثين فى الجزء الثالث من كتاب « طبيعة الآلهة » لشيشرون كذلك (لويب) .

الكتاب الثانى

ويتضمن رد شيشرون Cicero

أحد أتباع الأكاديمية الجديدة على أدلة كونتوس Quintus الرواقى

فى تفنيد الاعتقاد بفنون التكهن

مؤلفات شيشرون الفلسفية :

١ — فكرت ملياً فى تعرف الطريقة التى أؤدى بها الخير لأكبر عدد ممكن من المواطنين ، حتى لا تنقطع خدماتى للدولة ، فوجدت خير السبل فى إرشاد مواطنىّ إلى الطرق المؤدية إلى أنبل العلوم ، وأعتقد أنى أديت هذا الواجب بما وضعت من عديد المؤلفات ، فمن ذلك أنى تحريت فى كتابى الذى جعلت عنوانه Hortensius [١] أن أدعو إلى دراسة الفلسفة ما استطعت إلى التبشير سبيلا . وفى كتابى Academics الذى يقع فى أربعة أجزاء ، عرضت المنهج الفلسفى الذى ظننت أنه أقل المناهج صلفا ، وأكبرها فى نفس الوقت اتساقا فى التفكير وتهذيبا . ولما كانت الفلسفة تقوم على التمييز بين الخير والشر ، فقد استنفذت الجهد فى معالجة هذا الموضوع فى خمسة أجزاء [٢] ، بحيث نستطيع أن نتبين تطاحن الآراء التى ذهب اليها مختلف الفلاسفة . وبعد هذا أبنت فى خمسة أجزاء أخرى عن Tusculan Disputations الطرق التى لا تستقيم الحياة بدونها ، لأنى عالجت فى الجزء الأول الاستخفاف بالموت ، وتناولت فى الثانى احتمال الألم ، وعرضت فى الثالث إلى تخفيف الأحزان ، ودرست فى الرابع سائر الاضطرابات النفسية ، وضمنت الخامس بحثا يلقى أسطع ضوء على مجال الفلسفة كله ، لأنه يعلم المرء أن الفضيلة تكفى بذاتها لأن تسلم أصحابها إلى السعادة .

ولما فرغت من نشر هذه المؤلفات السالفة الذكر ، وضعت كتابا من ثلاثة أجزاء عن « طبيعة الآلهة » ، وناقشت فى ثناياها كل مسألة تدخل فى نطاق هذا العنوان ، ورغبة فى تبسيط الموضوع الذى تناولته فى الجزء الأخير وتوسيع آفاقه ، شرعت فى كتابة الجزء الراهن عن التكهن بالغيب ، وفى نيتى

---

(١) قارن August Confess iii.4.7 (Hortensius) (لويب) .

(٢) عنوانه : De finibus bonorum et melorum (لويب) .

أن أضيف إليه كتابا عن القدر ، فاذا نشرت هذا المؤلف ، فانى أكون قد استوفيت مناقشة هذا الفرع الخاص من الفلسفة فى مختلف صوره .

وإلى هذا الثبت من المؤلفات ينبغى أن نضيف الأجزاء الستة التى وضعتها عند ما كنت أدير سياسة الدولة ، وجعلت عنوانها : حول الجمهورية De republica ، وهو موضوع له خطره ، ثم هو يلائم الجدل الفلسفى ، وقد استوفى علاجه « أفلاطون » و « أرسطو » و « ثيوفراسطوس » Theophrastus وأتباع مدرسة المشائين جميعا . ولست فى حاجة بعد هذا إلى أن أقول شيئاً عن رسالتى التى وضعتها عن السلوي ، فهى مصدر راحة عظمى لى ، وستكون — فيما يلوح — عونا لغيرى من القراء . وقد وضعت منذ عهد قريب كتاباً عن الشيخوخة ، بعثت به إلى صديقى « أتيكوس » Atticus. ولما كانت الفلسفة هى التى تجعل المرء على فضيلة وقوة ، كان كتابى « كاتو » Cato[1] خليقا بأن يجد مكانا بين الكتب التى أسلفت بيانها .

وقد ربط « أرسطو » و « ثيوفراسطوس » كذلك بين البيان والفلسفة ، وكلاهما معروف بحدة الذكاء ، وطلاقة اللسان على وجه الخصوص ، ولهذا فانه يبدو من الصواب أن أضع كتبى عن البلاغة فى نفس هذا الثبت ، وعلى هذا فانا نذكر فى هذا الصدد الأجزاء الثلاثة التى وضعتها عن الخطابة والجزء الرابع الذى جعلت عنوانه : « بروتس » والجزء الخامس الذى أسميته : الخطيب .

مكانة الفلسفة عند شيشرون

اتصال الفلسفة بتهذيب النفوس :

٢ — أسلفت الآن ذكر المؤلفات الفلسفية التى وضعتها منذ زمن بعيد . وقد حدتنى الرغبة الحارة لأن أتم الحلقات الباقية فى هذه السلسلة ، ولولا ما جد من أسباب بالغة الخطورة[2] ، لشرحت اليوم كل ما فاتنى شرحه ،

(١) Latus Catonis الذى فقد ، وقد كتب له « شيشرون » رداً . قارن Ad. Att. XII, 40 (لويب) .

(٢) يشير « شيشرون » إلى الفوضى التى أصابت الشئون العامة بعد مصرع قيصر (لويب) .

وأوضحته وجعلته سهل التناول فى لغتنا اللاتينية ، إذ أى خدمة أستطيع أن أؤديها للصالح العام أعظم أو أنبل من أن أعلم الشباب وأهذب نفوسهم ، ولاسيما وأنهم قد ضلوا اليوم ضلالا مبينا ، من جراء هذا الانحلال الخلقى الراهن الذى يتطلب بذل أعظم الجهود حتى يرتدوا عن غيهم ، وينقادوا إلى سبيل الرشاد .. ؟ ومن المحقق أنى لست على يقين من أنهم سيتجهون إلى هذه الدراسات الفلسفية جميعاً ، وليت القليلين منهم ينصرفون إلى دراستها ، فإن دارسيها وإن قلّ عديدهم ، قد يكون نشاطهم بعيد الأثر فى نفع الدولة ، ومن المحقق أنى أجنى ثمار ما غرست ، وأتلقى الجزاء حتى من رجال تقدمت بهم السن ، لأنهم يجدون فى كتبى عزاء وسلوى ، وحماستهم للقراءة تضاعف من رغبتى فى مواصلة العمل ، وإن عددهم ليربى — فيما علمت — على ما كنت أقدر ، وإنه لما يزيد فى شهرة الرومان ، ويرفع من مجدهم ، أن يستقل كتابهم فى دراسة الفلسفة عن مؤلفى الإغريق ، ومن المؤكد أنى سأبلغ هذه الغاية متى أتممت إنجاز مشروعاتى الراهنة .

أسباب اشتغاله بالفلسفة :

والسبب الذى أدى بى إلى عرض الفلسفة وشرحها ، يرجع إلى الاضطرابات التى أصابت الجمهورية إبان الحرب الأهلية ، عندما أدركنى العجز عن حماية الجمهورية على غير ما ألفت ، ولما وجدت أن من المستحيل أن ألبث على خمول ، لم أجد شيئاً جديراً بى ، أو ثره على دراسة الفلسفة لأقوم بعمله ، وإذن فليغفر لى أهل وطنى ، والأحرى أن يزجوا الشكر لى ، لأنى أبيت — حين استبدّ بأمر الدولة رجل واحد — أن أخفى نفسى ، أو أن أتخلى عن مكانى ، أو أذعن لليأس ، ولم أقبل أن أتمرد على الطاغية المستبد ، أو أثور على الزمن ، وفوق هذا فانى لم أتملق ثريا ولم أغبطه على جاهه ، حتى أرثى لحظى فى الحياة ، إذ أن خير ماتلقيت من « أفلاطون »(١) والفلسفة شىء

(١) Plats Rep. VIII.2. 545 (لويب).

واحد، هو أن من الطبيعي أن تقوم الثورات فى شئون الحكم، فيتـولاه الملوك حيناً، والشعب حيناً آخر، والغاصبون حيناً ثالثاً، ولما نزل بالوطن القضاء الذى أسلفت ذكره، وكففت عن مواصلة نشاطى السابق، شرعت فى أن أستأنف هذه الدراسات الفلسفية من جديد، فإنها — لا بشىء سواها — أستطيع أن أخفف عن عقلى همومه، وأن أخدم فى نفس الوقت أهل الوطن، كأحسن ما تكون الخدمة فى هذه الظروف، وبناء على هذا سدت مؤلفاتى الفلسفية مسد خطبي السياسية والقضائية، لأنى ظننت أنى قد استبدلت الفلسفة بالسياسة إلى غير رجعة، ولكنهم قد عادوا مرة أخرى إلى استشارتى فى الشئون العـــامة، ولهذا وجب أن يكرس وقتى لخدمة الدولة، أو ينبغى بالأحرى أن ينصرف اليها فكرى واهتمامى اللذان لا يتجزءان، وأن أنفق فى دراسة الفلسفة من الوقت ما لا يتطلبه أداء واجبى الذى أقوم به فى سبيل الصالح العام، ولنرجىء الإسهاب فى بيان هذا إلى فرصة أخرى، ولنعد الآن إلى الموضوع الذى شرعنا فى مناقشته من قبل :

منهج شيشرون — أى الأكاديمية الجديدة — فى مباحثه :

٣ — بعد أن أعلن أخى «كونتوس» Quintus آراءه عن التكهن بالغيب، كما أبانها فى الكتاب السالف، تمشينا طويلا حتى اتخذنا مجلسنا فى المكتبة التى تقوم فى «الليكيوم» Lyceum، وقلت له «من المحقق أنك يا عزيزى «كونتوس» قد أسلفت دفاعا دقيقا عن مذهب الرواقية، كما يدافع عنه أحد أتباعهم، ولكن الشىء الذى اغتبطت له كثيرا، هو أنك زودت مناقشتك بكثير من الأمثلة استمددتها من المصادر الرومانيـة، وهى أمثلة من نموذج ممتاز نبيل، ومن واجبى الآن أن أجيب على ما أسلفت بيانه، ولكن ينبغى أن ألتزم الشك وعدم الثقة بالنفس فى كل ما أقول، وألا أعلن أمراً على

سبيل اليقين ، وأن أستفسر عن كل شيء[1] ، لأنى إذا زعمت أمراً وقلته على سبيل التأكيد ، كنت قد مثلت بهذا دور الكاهن الذى يتنبأ بالغيب ، مع أنى أقول أن ليس ثمة شيء اسمه تكهن بالغيب .. ! .

التكهن لا يستقيم فى مجال العلم والفن والفلسفة :

إنى متأثر بوجاهة الأسئلة التى كان « كارنيادس Carneades » يبدأ بها مناقشاته : « ما هى الأشياء التى تدخل فى مجال التكهن بالغيب . ؟ أهى أشياء تدرك عن طريق الحواس .. ؟ إن هذه مدركات تراها العين وتسمعها الأذن ويذوقها اللسان ويشمها الأنف وتلمسها اليد ، وإذن فهل ثمة فى هذه المدركات صفة معينة تجعل إدراكها بمعونة النبوءات ومساعدة الإلهام ، أسهل من إدراكها بمعونة الحواس وحدها[2] .. ؟ وهل ثمة كاهن على ظهر الأرض يستطيع إذا كان كفيف البصر — مثل تيرزياس — أن ينبىء عن الفرق بين الأبيض والأسود .. ؟ أو يستطيع إذا كان مصاباً بالصمم أن يميز بين مختلف الأصوات وشتى الأنغام .. ؟ ينبغى أن نسلم الآن بأن التنبؤ بالغيب لا يكون فى الحالات التى تكتسب فيها المعرفة عن طريق الحواس .

« وليس بنا من حاجة إلى التنبؤ بالغيب حتى فى الأمور التى تدخل فى ميدان العلم والفن ، لأن الناس إذا أدركتهم الأمراض ، لا يستدعون فيما جرت العادة نبياً أو رئياً ، ولكنهم يلتمسون طبيبا يداوى أمراضهم ، وكذلك الحال مع أولئك الذين تجنح بهم الرغبة إلى تعلم العزف على العود أو الناى ، فانهم لا يتلقون دروسا على يد عراف ، بل يتلقونها على يد موسيقار ، وتنطبق

---

(١) كانت هذه هى الخاصة التى تميز الاتجاه العقلى الذى عرف عن أتباع الأكاديمية الجديدة فى كل مباحثهم فيما يشير مترجم « لويب » . وقد أبان شيشرون منهجها فى آخر الفقرة الثانية والسبعين من الكتاب الثانى — وانظر هامش ٣ ص ١٤٤ .

(٢) لم يكتب « كارنيادس » شيئاً . و « شيشرون » نفسه لم يعرف نظريته إلا عن طريق « كليتوماك » ويمكن القول بأن الرأى المشار اليه هنا يشبه الرأى الذى يؤلف الجزء الأول من جورجياس (جارنييه) .

هذه القاعدة نفسها على مجال الآداب وسائر ميادين العلم ، إذ هل نعتقد حقاً أن الذين أوتوا القدرة على التكهن بالغيب ، يستطيعون استناداً إلى هذه القدرة أن يتنبأوا بأن الشمس أكبر من الأرض ، أو أنها تبلغ من الحجم النحو الذى تبدو لنا عليه .. ؟ أو بأن القمر مضىء بنفسه أو يستمد من الشمس ضوءه . . ؟ أو هل نظن أنهم يفهمون حركات الشمس والقمر والكواكب الخنس الموسومة بالشهب . . ؟ إن كهانك المشهورين لا يدعون بأنهم يستطيعون الإجابة على إحدى هذه المسائل ، ولا هم يعترفون بأنهم يعرفون إذا كانت الإشكال الهندسية قد أحسن رسمها أو أسىء ، لأن هذا من عمل الرياضيين وليس من عمل الرئين .

٤ — « فلنعرض الآن للحديث عن المسائل التى تدخل فى نطاق الفلسفة : إذا أردنا أن نتبين الصواب أو الخطأ فى مجال الأخلاق ، أو أن نعرف أن أمراً ما ، ليس بالخطأ ولا بالصواب ، هل جرت العادة بأن يكون الكهان هم الذين يزيلون شكوكنا بصدد هذه المسائل .. ؟ وهل نتجه فعلا إلى استشارتهم فى مثل هذه الحال ..؟ كلا على التحقيق ، لأن الحكم فى مثل هذه المسائل يتولاه الفلاسفة . وكذلك الحال فيما اتصل بواجباتنا ، منذا الذى يستشير عرافا فيما ينبغى أن يكون عليه سلوكه إزاء والديه واخوته ، أو حيال أصدقائه .. ؟ أو فى كيف ينبغى أن يتصرف فى ثروته ، وكيف يؤدى واجبات منصبه أو يستخدم قوته . . ؟ إن مثل هذه الأمور قد جرت العادة بأن يفصل فيها الحكماء لا الكهان .

« وهل من الممكن أن نحل بالتنبؤ بالغيب مسألة من مسائل الجدل أو الطبيعة .. ؟ فهل نستطيع مثلا أن نعرف عن طريقه إذا كان فى الوجود عالم واحد أو مجموعة عوالم ، أو ما هى العناصر الأولية التى صدرت عنها الكائنات جميعاً .. ؟ إن مثل هذه المسائل يفصل فيها علم الطبيعة ، وهب كذلك أن امرأ

أراد أن يعرف الطريقة التى بهـا يكشف عن مغالطة الكاذب[١] أو أن يعالج مغالطة الـكومة[٢] التى أطلق عليها الإغريق «Sorites» (وإذ احتجنا إلى ما يقابلها فى اللاتينية فهو acervalis ، وما نظن بنا من حاجة إلى ترجمتها الى لغتنا ، فان لفظة الفلسفة وغيره من عديد الألفاظ يونانى الأصل ، وقد جرت العادة باستعمالها كما نستعمل الألفاظ اللاتينية ، وهكذا الحـال فى لفظ Sorites الذى تلقيناه عنهم) إن الكلمة فى كلتا هاتين المغالطتين للمناطقة ، وليست لأهل التـكهن بالغيب .

« ثم هب أنا نريد البحث فى خير أنواع الحكومات ، أو فى أى القوانين أو العادات نافع لأهله أو ضار بهم .. ؟ هل نستدعى العرافين من أتروريا أو نسلم بمـا يراه رجال نصطفيهم لخبرتهم بادارة المدينة .. ؟ [٣] ولـكن إذا لم يكن ثمة مجال للتكهن بالغيب فى الأشياء التى تدرك عن طريق الحواس أو فى

---

(١) أشيع الصيغ التى توضح هذه المغـالطة قولهم : يقول إبمنيدس Epimenides الـكريتى : جميع أهل كريت كذابون ، وهو نفسه من أهل كريت ، فهل صدق فيما قرر أم كذب ؟

قارن Gellius XVIII. 2. 10, Cic. Acad. II, 29.95 (لوبب) وقد عرض المناطقة لبيان هذه المغالطة كثيراً ، قارن مثلا Keynes : Formal Logic. p. 457 طبعة رابعة .

(٢) أشيع الصيغ التى توضح هذه المغالطة تبدأ بهذا السؤال : هل تـكفى الحبة الواحدة لأن تنشىء كومة . . ؟ الجواب بالسلب ، ولـكن المعروف أننا إذا أضفنا حبة إلى حبة ، وكررنا هذا وصلنا أخيرا إلى عدد (س) من الحبات ، او أضيفت اليه حبة لأصبح كومة وهذا يناقض الجواب الأول وهو أن الحبة لا تنشىء كومة قارن : Reid's Acad. 11.16.49 note (لويب) . وقد عرف هذا النوع من المغالطات أوبوليدس Eubulide الملطى ، حين عارض منطق أرسطو « وكان هذا خصما لدودا له » فمن ذلك قوله : كم شعرة يجب أن تسقط من رأسك حتى يقـال إنك أصلع ؟ إلى آخر مغالطاته فى الجمع والطرح ، ومن أمثلة هذه المغالطات ما ورد فى مذهب المنفعة لجون ستورت مل J.Stewart Mill وقد أبان Mackenzi عن هذه المغـالطات (قارن : Welton & Monahan Intermediate Logic ص ١٥٣ الطبعة الثالثة) .

(٣) كانت إدارة المدينة عندهم تشمل شئون الحـكم بأوسع معانيه ، من سياسة وعلم وفن وأخلاق ونحو ذلك .

معرفة الأمور التى تدخل فى نطاق الفنون أو فى باب الفلسفة ، أو تتصل بشئون الحكم ، فإنى لا أرى بنا من حاجة إطلاقا إلى هذا التكهن فى أى مجال آخر ، لأنه إما أن يكون مفيداً نافعا فى كل حالة من هذه الحالات ، أو ينشأ على الأقل علم يمكن أن يستخدم فيه هذا التكهن ، ولكنا رأينا فيما أسلفته من وجوه الاستدلال ، أنه لا يصلح لكل حالة — من الحالات السالفة — وليس من الممكن كذلك أن ينشأ مجال أو مادة بحث يهيمن عليها التكهن بالغيب .

٥ — « ومن أجل هذا فانى أميل إلى الظن بأن ليس ثمة شيء اسمه تنبؤ بالغيب، وهاك شعراً من نظم اليونان كثيراً مايقتبس للدلالة على هذا الذى أقوله:

[إن خير من يتكهن ، بالغيب هو أقدر الناس على التخمين أو الحدس] (١)

وهل تظن أن نبيا يستطيع أن يحدس باقتراب هبوب العاصفة خيراً مما يحدس بذلك ربان السفينة .. ؟ أو يكون حدسه فى تشخيص المرض أدق من حدس الطبيب .. ؟ أو مهارته فى قيادة الحرب أعظم من مهارة القائد الحربى .. ؟

« ولكنى لاحظت — يا كونتوس Quintus — أنك كنت لبقاً حين استبعدت التكهن بالغيب من حالات الحدس التى تقوم على المهارة والخبرة بالشئون العامة ، ومن تلك التى تستمد من استخدام الحواس ، ومن هاتيك التى تصدر عن أهل الحرف » (٢) .

---

(١) عن « ايروبيدس » واقتبسه بلوتارك .De orac defect 432 e (لويب) .

(٢) قارن الفقرة الثامنة والأربعين فى الكتاب الأول (لويب) وانظر تشابه هذا برأى جمهرة مفكرى الإسلام فى كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » .

تفنيد معنى المصادفة فى التعريف

مناقشة تعريف التكهن عند كونتوس :

ولاحظت كذلك أنك تحد التكهن بالغيب بأنه « المعرفة السابقة والتنبؤ بالأحداث التى تقع على سبيل المصادفة » (١) وأول ما يلاحظ على هذا التعريف أنه يناقض ما سلمت به من قبل ، لأن المعرفة السابقة التى تتهيأ للطبيب وربان السفينة والقائد الحربى ، تكون عن أمور تقع على سبيل المصادفة ، ثم هل يستطيع رجل من أهل العرافة أو العيافة أو النبوة أو الرؤيا الصادقة أن يحدس خيراً مما يحدس الطبيب بأن مريضا سيبلّ من مرضه ، أو خيراً من ربان السفينة حين يحدس بأن سفينته ستتقى خطراً يهددها ، أو خيراً من القائد عند ما يحدس بأن جيشاً سيتجنب مكمناً (٢) ..؟

وذهبت إلى القول بأن هـــذه المعرفة السابقة بالزوابع والأمطار التى توشك أن تقع ، ليست تكهنا بالغيب متى سبقتها شواهد معينة ، واقتبست بهذه المناسبة مجموعة أشعار من ترجمتى لـ « أراتوس Aratus » ، ولكن مثل هذه المصادفات تقع اتفاقا ، لأن وقوعها وإن تكرر فانه لا يحدث دواما . فما هو إذن هذا الذى تسميه تكهنا بالغيب ..؟ أى « ما تلك المعرفة السابقة بأحداث تقع على سبيل المصادفة ..؟ » وفيم يستخدمها أهلوها ..؟ إنك تظن بأن « كل ما يمكن معرفته قبل وقوعه عن طريق العلم والعقل والتجربة والحدس ، تكون الكلمة فيه للخبراء والإخصائيين وليست للكهان ، وعلى هذا يكون التكهن « بالأحداث التى تقع على سبيل المصادفة » غير ممكن إلا فيما لا يمكن إدراكه

---

(١) قارن الفقرة الخامسة من الكتاب الأول (لويب) ويشير مترجم جارنييه إلى خلاف بين هذا التعريف وتعريف « كونتوس » الذى ورد فى الفقرة الخامسة .

(٢) الرأى عندنا أن مثل هذه الأحداث لاتقع مصادفة ، لأن لها مقدمات تبرر وقوعها عند الطبيب وربان السفينة ومن اليهما ، فهى لا تعتبر فى رأينا تنبؤاً بالغيب .

من قبل عن طريق المهارة والحكمة، ومن ثم إذا أعلن أمرؤ بأن «ماركوس مارسللوس» Marcus Marcellus [(١)] صاحب الصيت الطائر الذى تولى القنصلية ثلاث مرات، سيلقى حتفه فى سفينة تتحطم فى عباب اليم، ووقع هذا التنبؤ قبل تحققه بعدة أعوام، فان هذا وفقاً لتعريفك لا يكون تكهناً بالغيب أبداً، إذ لم يكن من الممكن أن تعرف النكبة من قبل بالحكمة أو بمهارة من نوع آخر، وهذا هو السبب الذى من أجله تقول بأن التكهن بالغيب هو المعرفة السابقة لمثل هذه الأحداث التى تعتمد على المصادفة [(٢)] .

٦ — وإذن فهل ثمة معرفة تسبق وقوع الأشياء ولا تستند إلى سبب يبررها ..؟ إننا لا نطلق هذه الحدود: «مصادفة — حظ — طارىء — إلا على حادثة تقع ولم يكن من المحتمل أن تحدث أبداً، أو كان من الممكن أن تقع على نحو آخر، وإذن فكيف يكون من الممكن أن يتنبأ أمرؤ أو يتكهن بحادثة تقع عفواً، كنتيجة لمصادفة متغيرة أو لطارىء أعمى.؟ إن استخدام العقل يمكن الطبيب من أن يعرف من قبل بأن المرض يوشك أن يستفحل، كما يتكهن القائد بمايعده عدوه من خطط، وكما يعرف ربان السفينة دنو العاصفة، ومع هذا فإن هؤلاء الذين يرتقون إلى نتائجهم على سلم الاستدلال العقلى الدقيق، كثيرا ما تعتريهم الأخطاء، فمن ذلك أن الفلاح إذا رأى شجرة

---

(١) ابن «ماركللوس» الذى غزا «سيراقوس» وابتلعه اليم فى بحر أفريقيا قبل الحرب البونية الثالثة بقليل (دعاريه) .

(٢) يراد بهذه الفقرة أن الأحداث التى تقع على سبيل المصادفة يمكن معرفتها عن طريقين: (أ) الاستعانة بالخبرة الماضية والتفكير والذكاء ونحوه — أى الاعتماد على مقدمات تسلم إلى نتائج — وهذا هو مارجح جمهرة مفكرى الاسلام تسميته بالعرافة ونحوها (ب) معرفة هذه الأحداث بغير مقدمات تبرر الوصول إليها — أى بالوحى والالهام — وقد تجلى هذا عند مفكرى الاسلام فى النبوة والولاية والرؤيا ونحوها . وقد كان كونتوس «يأبى أن يسلم بالتنبؤ الذى يصدر عن مهارة وخبرة بالشئون العامة (فقرة ٩ ؛ من الكتاب الأول) فأغنى «شيشرون» بهذا عن مناقشته ودحضه وبقى على شيشرون أن يدحض غير هذا من أساليب التنبؤ، وسيبدأ بهذا فى الفقرة التالية (السادسة) .

الزيتون قد بدأت تزهر ، توقع لها أن تنتج ثمراً ، دون أن يكون هذا التوقع بغير مبرر ، ولكن ظنه قد يخيب اتفاقا . فاذا كان هؤلاء الذين لا يرون رأياً إلا أقاموه على حدس معقول ومحتمل ، ليسوا فى عصمة من الخطأ ، فماذا تظن بحدس هؤلاء الذين يتنبأون بالمستقبل اعتمادا على النظر فى أحشاء حيوان أو تحليق طير فى الجو أو تغريده وصياحه ، أو نذير زاجر أو وحى أو رؤيا ..؟ على أنى غير مستعد لأن أتناول التكهن بالغيب فى شتى صورة واحدة بعد أخرى ، وأبين أن الشق فى كبد الضحية ، وصياح الغراب ، وطيران النسر وسقوط النجم ، ونبوءات الذين يعتريهم المس ، والأنصبة والرؤيا ، ليس لها قيمة فى التنبؤ بالغيب ، بالغاً ما بلغ أمرها ، وسأناقش كلا منها فى دوره ، أما الآن فحسبى أن أناقش الموضوع جملة :

افتراض المصادفة يمنع من تعقل الإدراك الغيبي :

كيف يمكن أن يتنبأ امرؤ بحادثة ليس لها سبب يبرر وقوعها ، ولا يميزها شاهد سابق ينبىء عنها ..؟ لقد تنبأ فرمون بكسوف الشمس وخسوف القمر قبل وقوعهما بأعوام طويلة مستندين إلى استخدام الرياضيات فى دراسة مسالك الأجرام السماوية ومعرفة حركاتها ، معتمدين على قوانين الطبيعية الثابتة التى تساعد على تحقق نبوءاتهم ، فيعتمد علماء الهيئة على حساب حركات القمر فى نظامها الدقيق لمعرفة الوقت الذى يكون فيه القمر مقابلا للشمس وفى ظل الأرض — الذى يكوّن مخروط الليل (١) — واكتشاف الوقت الذى يرى فيها بالضرورة ، وعلى هذا النحو يعرفون الوقت الذى يقع فيه القمر بين الأرض والشمس تماماً ، ومن ثم يخفى ضوء الشمس عن عيوننا ، ويعرفون الشكل الذى يتخذه كل كوكب فى وقت معين ، والوقت الذى تظهر فيه أو تختفى كل مجموعة نجمية فى كل يوم ، ومن هذا ترى طريق الاستدلال الذى يُتبع فى الوصول إلى هذه التكهنات .

---

(١) قارن ; Pliny, N. H. ii. 7 « لويب » .

٧ — ولكن أى منطق ذلك الذى يستند اليه الذين يتنبؤون بالعثور على كنز أو وراثة ضيعة . . ؟ وعلى أى قانون من قوانين الطبيعة تعتمد مثل هذه النبوءات .. ؟ ثم إذا كانت النبوءات السالفة وغيرها مما يدخل فى بابها ، يهيمن عليها قانون طبعى ثابت ، كهذا الذى ينظم حركات النجوم ، هل فى وسعنا أن ندرك شيئاً يقع مصادفة أو عرضاً .. ؟ إذ من المحقق أن ليس ثمة شىء يخالف العقل ولا يساير اضطراد القاعدة كالمصادفة ، ولهذا فليس فى مقدور أحد ، حتى الله نفسه — فيما يبدو لى — أن يعرف حادثة توشك أن تقع عرضاً أو مصادفة ، لأن الله إذا عرف ذلك ، كان من المؤكد وقوع الحادثة ، ولكن إذا كان من المؤكد وقوعها ، فإن المصادفة لا يكون لها وجود ، ومع ذلك فان المصادفة قائمة لا محالة ، وإذن فليس ثمة معرفة تسبق الأحداث التى تقع على سبيل المصادفة .

وإن أنت أنكرت وجود المصادفة ، وزعمت بأن الطريق الى معرفة كل شىء حاضر أو مقبل ، قد تحدد منذ الأزل تحديداً لامناص منه ، للزم عن هذا أن تعدل حدك للتكهن ، الذى زعمت فيه أنه « المعرفة السابقة » للأحداث التى تقع على سبيل المصادفة » لأنه إذا لم يكن فى الإمكان وقوع شىء أو حدوث أمر غير الذى تحددت منذ الأزل ضرورة وقوعه ، فكيف يمكن أن يكون للمصادفة وجود ..؟ وإذا لم يكن للمصادفة وجود ، فأى مجال تراه لهذا التنبؤ(١) الذى عرفته بأنه «المعرفة السابقة لأحداث تقع على سبيل المصادفة » ..؟

---

(١) يستبعد مذهب القدر عند الرواقية كل مايكون وقوعه ممكنا ، ولما كان « شيشرون » يحاول أن يقيم التكهن على أساس التعريف الذى وضعه له « كونتوس » ، فانه يطبقه على أحداث تقع اتفاقا ، بمعنى أن من المستحيل التنبؤ بها حتى ولو كان المتنبىء كائنا عليما بكل شىء ، وعلى هذا تكون نظرية الرواقيين عقيمة ، لأنها تحمل على أحداث يستحيل معرفتها — فيما هو مفروض — ولكن كونتوس — شارح الرواقية — يتناول أحداثا يعتقد المرء أنها تقع اتفاقا ، وبهذا لاتكون نظرية الرواقية عقيمة . على أن فكرة هؤلاء فى القدر قد رفض التسليم بها مفكروا المسيحية والأفلاطونية الجديدة لأنها لاتتفق مع الدين ، إنه بارادة الله — أو الآلهة ، يقع كل شىء ، لا بفضل هذا القدر الذى يعوزه العقل . (جارنييه) .

وقد ناقضت نفسك تناقضاً بيّناً عند ما زعمت بأن القدر[١] يهيمن على كل شيء فى الماضى والمستقبل معاً . ! فإن تحت القدر يندرج الشيء الكثير من الخرافة وخزعبلات المسنات من النساء ، ومع هذا فإن الرواقية قد أطالوا الحديث فى قضاتك هذا ، على أنى سأرجىء مناقشة القدر إلى فرصة أخرى ، ما الآن فحسبي أن أتحدث عنه على قدر ماتدعو الضرورة :

افتراض القدر يمنع من الانتفاع بالتكهن :

٨ — ثم ما نفع التكهن بالغيب إذا كان القدر يتحكم فى كل شيء ..؟ وعلى هذا الفرض تكون تكهنات الكاهن لامناص من وقوعها ، ولهذا فلست أدرى ما قيمة الزعم القائل بأن نسراً قد أعاد صديقنا الحميم « ديوتاروس » Deiotarus من رحلته ، فانه لو لم يعد منها ، لكان من المؤكد أنه سينام فى الحجرة التى تداعت فى الليلة التالية ، ويسحق بهذا فى الأنقاض ، ومع هذا فلو أن القدر أراد ذلك ، لما نجا صديقنا من هذه النكبة ، والعكس فى هذا صحيح ، ولهذا فانى أكرر ما قلته : ماقيمة التكهن بالغيب ..؟ أو ما هذا الشر الذى تحذرنى لاتقائه طرق التكهن من أنصبة أو أحشاء أو غيرها ..؟ فإن إرادة القدر لو شاءت أن يتحطم الأسطولان الرومانيان فى الحرب البونية الأولى ، فيروح أحدهما غرقا وثانيهما دمارا على يد القرطاجيين ، لكان من المؤكد أن يتحطم ويلقى نفس المصير الذى لقيه ، حتى ولو طابت نبوءة الكتاكيت المقدسة فى عهد القنصلين « لوكيوس چونيوس » Lucius Junius و« بوبليوس كلاديوس » Publius Cladius[٢] وإذا كانت الاستجابة للطيور سانحة وبارحة ، تمكن الأسطولين من اتقاء الدمار ، لما تحطما استجابة لإرادة القدر ، مع أنك تقول فى إصرار إن جميع الأشياء تقع قضاء وقدرا ، وإذن

---

(١) قارن الفقرة الرابعة والخمسين من الكتاب الأول « لويب » .

(٢) قارن الفقرة الخامسة عشرة من الكتاب الأول « لويب » .

فليس ثمة شيء اسمه تكهن بالغيب . ثم إذا كانت إرادة القدر هى التى قضت بأن يهلك الجيش الرومانى عند بحيرة « ترازمينوس » Trasminus فى الحرب البونية الثانية ، أكان من الممكن اتقاء المصير إذا استجاب القنصل « فلامينوس » Flaminus للشواهد ، وأصاخ للطيور التى زجرته عن الاشتراك فى القتال ..؟ كلا على التحقيق ، وإذن فإما أن يكون الجيش لم يهلك لأن إرادة القدر قد قضت بنجاته ، وإما أن يكون قد هلك بارادة القدر — ومن المؤكد أنك كرواقى مضطر الى التسليم بهذا — وتكون النتيجة لا مفر من وقوعها حتى ولو استجاب القنصل لنبوءات الطيور ، لأن قرارات القدر لا تقبل التغيير أبداً . وبعد ، فماذا تكون حقيقة هذا التكهن الذى تفاخرون به أيها الرواقيون ..؟ فان القدر إذا كان يتحكم فى جميع الأشياء ، لما أدى لنا التكهن بها خيراً بتحذيرنا منها ، لنتقى شرها ، ما دامت الأحداث التى ستقع ، لا مناص من وقوعها ، أياً ما كان موقفنا حيالها ، ثم إذا كان من الممكن تغيير وجه الأحداث التى ستقع ، لما كان هنالك شيء اسمه قدر ، وبالتالى فليس ثمة شيء اسمه تنبؤ بالغيب ، مادام التكهن ينصب على أحداث لامفر من وقوعها ، ولكن ليس ثمة شيء يتحتم وقوعه ، ما دام هنالك من الطرق ما يؤدى إلى تجنب حدوثه(١) .

مضار العلم بالغيب :

٩ — وفوق هذا فانى أظن أن معرفة الأحداث المقبلة لا فائدة من ورائها ، فانظر ماذا كانت تكون حياة « بريام » Priam ، لو أنه عرف منذ شبيبته الأحداث المروعة التى تنتظره فى كهولته ؟ ولكن فلنتخط عصر الأساطير ، ولنتكلم عن أحداث تتصل ببلادنا :

لقد جمعت فى كتابى عن « السلوى » حوادث موت فاجع وقع لبعض

---

(١) Procuratis اصطلاح فنى يراد به استخدام وسائل بتقديم القرابين أو نحوها لمنع وقوع طيرة أو نذير زاجر « لويب » .

مشاهير الرجال فى حكومتنا ، فلنتخطَّ رجال العهد القديم ، ولنتحدث عن « ماركوس كراسوس » M. Crassus : خبرنى أى فائدة كان ينتظر أن يجنيها عند ما كان فى أوج قوته وطائل ثروته ، لو أنه عرف أن القدر كان يقضى بموته موتا ذليلا فيما وراء نهر الفرات ، بعد أن يكون ابنه قد قضى نحبه وجيشه قد تحطم .. ؟ أو هل تظن أن « جنايوس بومبى » Gnaeus Pompey كان يمكن أن يستشعر اللذة فى قنصلياته الثلاث وانتصاراته الثلاثة ، وإبان أعماله المجيدة التى حلقت شهرتها فى كل مكان ، لو أنه كان يعرف بأنه سيذبح فى مجاهل صحارى مصر ، بعد أن يفقد جيشه ، ويتبين أن مصرعه ستعقبه تلك الأحداث المروعة التى لا أستطيع أن أتحدث عنها دون أن تذرف عيناى الدموع ..؟

أو ماذا تظن بقيصر لو أنه عرف أن مصرعه سيكون بين أعضاء مجلس الشيوخ الذى يرجع إليه الفضل فى انتخاب معظمهم وفى ردهة بومبى[1] ..؟ أجل ، وأمام تمثال بومبى ، وعلى مرأى كثيرين من قادة المائة من أتباعه ، وأن مصرعه هذا سيكون على يد أنبل مواطنيه الذين كان بعضهم يدين له بكل ما أصابوا من مجد ، وأن الموقف سيكون من المهانة بحيث لا يقترب من جثته صديق — لا بل ولا حتى عبد — فأى ألم نفسانى مرير كان قيصر يقضى به حياته ، لو أنه عرف هذه الأحداث قبل وقوعها . ؟

« وإذن فإن من المحقق أن الجهل بمتاعب المستقبل أجدى على الإنسان من معرفتها ، لأننا إذا زعمنا بأن الناس كانوا يعرفون المستقبل ، لما جاز فى حكم العقل — وإن خالفنا الرواقية فى ذلك — أن يمتشق بومبى حسامه ، وأن يعبر « كراسوس » نهر الفرات ، أو أن يخوض قيصر غمار الحرب الأهلية . وإن صح هذا فإن الموت الذى أصاب هؤلاء الرجال ، لم يكن — على هذا — استجابة لقدر محتوم ، ولكنك تقول بأن كل شىء يخضع لحكم القدر ، وبالتالى فان معرفة المستقبل لم تكن لتؤدى خيراً لهؤلاء الناس ، بل إن من

---

(١) شيدها « بومبى » واستخدمت مكانا لاجتماع مجلس الشيوخ (لويب) .

المحقق أنها كانت تجرد المرحلة الأولى فى حياتهم من كل متعة ولذة ، إذ كيف كان من الممكن أن يستشعروا السعادة بتفكيرهم فيما سينتهى إليه مصيرهم . . ؟ وعلى هذا فهما أجهد الرواقية أنفسهم ، فان كل حذقهم لا بد أن ينتهى إلى غير نتيجة ، إذ لو أن شيئاً ينتظر وقوعه ، قد يقع على نحو ما ، بغير قاعدة تحدد طريقة وقوعه ، لكانت المصادفة تلعب فى هذه الحالة دورها ، وإذا كان ماينتظر أن يقع لى بصدد أية مسألة ، وفى أى ظرف أمراً مؤكداً ، فكيف يعتبر تنبؤ العرافين بأنكد ضروب النحس التى تنتظرنى ، خدمة يقدمونها إلىّ . . ؟

١٠ — ويجيب الرواقيون على النقطة الأخيرة بأن « كل شر لا مناص من وقوعه ، تخفف وطأته الطقوس الدينية » ولكن إذا لم يقع شىء إلا إذا كان متفقاً مع أحكام القدر ، فليس من الممكن أن تخف وطأة الشر بهذه الطقوس . ويعلن « هومير » تقديره لهذه الحقيقة عندما يصور « جوبتر » شاكياً من عجزه عن إنقاذ ابنه « ساربدون » Sarpedon من براثن الموت[١] حينما قضى القدر بعجزه ، ويوضح هذه الفكرة البيتان التاليان المنقولان عن شاعر يونانى[٢] :

[إن جوف نفسه وهو على كل شىء قدير ، لا يستطيع أن يمنع ما قضى به القدر المحتوم][٣] .

إن فكرة القدر فى أرحب آفاقها هى — فيما أظن — موضع سخرية ، حتى فى روايات « أتللا » Atella العابثة الماجنة[٤] ، ولكن السخرية لا مكان

---

(١) الألياذة جـ ١٦ ص ٤٣٣ « لويب » .

(٢) لايعرف الشاعر الذى نظمها ، وكثيرا ماتتردد هذه الفكرة . قارن Aesch. Prom. 527 وهيرودوت جـ ١ ص ٩١ ، أفلاطون فى « النواميس » : (De leg. V. 10) « لويب » .

(٣) فكرة القدر الذى لا مفر منه ، لها مكان كبير فى الأدب اليونانى ، ونراها كثيرا فى أشعار هومير (جارنييه) .

(٤) نشأت خرافات « أتللا » فى مدينة « أتللا » وتقع بين كابيوا ونابلى . وكثيرا ماتسمى هذه القصص العابثة : osci ludi. قارن : Livy vii. 2,x, 208. وشيشرون : Ad. fan. IX. 16.7. « لويب »

لها فى مناقشة موضوع جدى كهذا الموضوع. وإذن فلنلخص أدلتنا فيما يلى :

إذا كان من المستحيل أن نتنبأ بالأشياء التى تقع على سبيل المصادفة لأن وقوعها غير مؤكد، فليس ثمة شيء اسمه تكهن بالغيب، وإذا كان من الممكن على عكس هذا — أن نتنبأ بالأشياء، لأن القدر قد سبق إلى تعيينها وتحديدها، فليس ثمة رغم هذا شيء اسمه تكهن بالغيب (١). فان حدك للتكهن يجعله ينصب على «الأشياء التى تقع على سبيل المصادفة»، ولكن هذا الجزء التمهيدى فى مناقشتى، ليس إلا مناوشة تناولت هامش الموضوع، فلأنفذ الآن إلى صميمه، وسترى أن تحطيم حججك لا يعجزنى .

مهاجمة أساليب التنبؤ — صنعية وطبيعية :

١١ — لقد فرّعت التنبؤ بالغيب إلى ضربين : صنعى وطبعى (٢)، وقلت إن الصنعى يقوم بعضه على الحدس، ويستند بعضه الآخر إلى الملاحظة الطويلة المتصلة، وجعلت التنبؤ الطبيعى هو الذى تحتويه النفس، أو بالأحرى تكسبه عن مصدر خارجى عنها هو الله، الذى صدرت عنه كل النفوس البشرية وفاضت، ودرجت تحت التكهن الصنعى سائر التكهنات التى تنشأ عن النظر فى الأحشاء وتستمد من البرق ونذر الزجر، وتستعار من نبوءات أهل العيافة، ومن يعتمدون على شواهد النذر الزاجرة اعتمادا، تاما أو ضمنته من ناحية عملية طريقة للتنبؤ يستخدم فيها الحدس .

أما التكهن الطبيعى فانه يكون — فيما تقول أنت — نتيجة إفراط فى التهيج العقلى — الجذب — أو قدرة على التنبؤ تؤتاها النفس إبان النوم، عندما تتجرد من حواس البدن ومشاغل الحياة الدنيا. ثم إنك استمددت كل ضروب التكهن

---

(١) «شيشرون» يغالط — فيما يلوح — لأن ماسبق القدر إلى تعيينه، يعتبر وقوعه مصادفة بالقياس إلى كل من يجهل ماقضى به القدر، فمعرفته قبل وقوعه تعتبر تكهنا يدخل فى تعريف «كونتوس» للتنبؤ بالغيب .

(٢) قارن الفقرة السادسة والسابعة عشرة من الكتاب الأول «لوبب»

بالغيب من مصادر ثلاثة : الله والقدر(١) والطبيعة . ورغم أنك لم تستطع أن تقدم سببا يبرر ضربا من هذه الضروب ، إذ أنك — مع هذا — قد قدمت فى دفاعك مجموعة من الأمثلة الخرافية التى تثير الدهشة (٢) . وهذا هو الذى يدعونى إلى أن أؤكد لك بأن ليس من الملائم لفيلسوف أن يسلم بدليل يتفق صدقه عفواً ، أو يكون باطل الدلالة أو صيغ من نسيج الخبث . وقد كان ينبغى أن تقدم أدلة وعللا تبين بها صدق قضاياك كلها ، وما كان ينبغى أن تلجأ إلى ما يسمونه أحداثاً ، ولا شك أنى أقصد تلك التى لا تستحق أن تكون على التحقيق موضع اعتقاد .

١ — مناقشة أساليب التنبؤ الصنعى

أسباب العرافة :

١٢ — ولنناقش الآن شتى ضروب التكهن بالغيب ، كلا منها على حدة ، مبتدئين بالعرافة ، وقيامها — فيما انتهى إليه بحثى وتفكيرى — تبرره دواعٍ سياسية ، وتدعو إليه الرغبة فى أن يكون للحكومة دين تمكن له فى نفوس الناس . ولكننا الآن على انفراد ، ولهذا فان فى وسعنا أن نناقش كل ما يقال فى صدق العرافة ، دون أن يثير نقاشنا ضغينة أو حقداً فى نفس أحد من الناس ، وفى وسعى أن ألتزم هذا على وجه التحقيق ، لأن فلسفتى تعتمد على الشك فى معظم الحالات(٣) .

---

(١) قارن الفقرة الرابعة والخمسين من الكتاب الأول «لويب» .

(٢) نرى مثالا لهذا فى الفقرة الحادية والعشرين وغيرها فى الكتاب الأول .

(٣) كان « شيشرون » من حواريى الأكاديمية الجديدة . ولهذا فقد احتفظ لنفسه بحق التناقس فى أية قضية دون اعتناقها . قارن الفقرة الرابعة من الكتاب الأول (لويب) . انظر هامس ١ س ١٣١ . وينبغى أن نلاحظ بأن هذه الفقرة عظيمة الدلالة على حقيقة مقوف شيشرون من العرافة .

١ — مناقشة التكهن بالنظر فى الأحشاء

وإذن فلنتناول النظر فى الأحشاء بالبحث أولا : أيمكنك أن تغرى أمراً بالاعتقاد بأن النبوءات التى قيل إنها نتيجة فحص أحشاء الضحايا ، قد اهتدى إليها العرافون ، بعد ملاحظات تكررت خلال زمان مديد ؟ خبرنى ، كم من الزمن استغرقته هذه الملاحظات ؟ وكيف أمكن أن تستمر زمانا طويلا ؟ وكيف اتفق العرافون فيما بينهم على جزء الأحشاء الذى يعتبر بشير خير ، وجزئها الذى يعد نذير شر ؟ أو أى شق فى الكبد يحمل دلالة الخطر ، وأيّة ينبىء عن خير مقبل ؟ وهل بين عراف «أترووريا» و «إليس» و «مصر» و «قرطاجنة» اتفاق بصدد هذه المسائل . ؟ إن مثل هذا الاتفاق مستحيل على وجه التأكيد ، وفوق هـــذا فان من المستحيل أن يتصوره الأنسان . والملحوظ أن بعض الشعوب يفسر الأحشاء بطريقة ما ، وبعضها يلتزم فى تأويلها طريقة أخرى ، وإذن فليس ثم اطراد فى طريقة التأويل فيما بينهم .

» ومن المحقق أن الأحشاء إذا كانت تحمل دلالة على التنبؤ ، فان هـذه الدلالة بالضرورة إما أن تكون على وفاق مع قوانين الطبيعة ، أو تكون إرادة الآلهة وقدرتهم قد صاغتها على نحو ما ، ولكن أية علاقة يمكن أن تقوم بين ما فى نظام الطبيعة الإلهى من قوانين مجيدة عظيمة ، تهيمن على كل مكان ، وتنظم كل حركة ، وبين الكبد والقلب والرئتين فى ثور يقدم قربانا للآلهة ، ولست أقول بين هـذه القوانين وبين مرارة الكتاكيت التى يزعم البعض أن أحشاءها تبين عن المستقبل إبانة واضحة ، وأى صفة طبيعية تتوافر فى الأحشاء وتساعد على كشف المستقبل المحجب ؟

موقف ديمقريطس من النظر فى الأحشاء :

١٣ — ومع ذلك فان « ديمقريطس » يمزح — وصدور هـذا المزاح أو تلك الدعابة عن فيلسوف طبيعى يجعلها طريفة — وليس ثمة أكثر تبجحا

من الفلاسفة الطبيعين فيقول : [إن امرأ لا يرى الأشياء التى تقع عند قدميه ، ولكنه يرى فى دقة عالم السماء](١) .

ومع ذلك فان « ديمقريطس » يسلم بالتكهن بالغيب عن طريق الأحشاء، فى حدود الاعتقاد بأن حالتها ولونها ينبىء بالكلأ والغلات ، من حيث مدى وفرتها أو مبلغ قلتها ، بل يذهب به الظن إلى أن الأحشاء تحمل الدلالة على الصحة أو المرض فى مقبل الأيام « ياله من رجل سعيد لم تفته النكتة ! » وهذا أمر مؤكد لا ريب فيه ، ولكن أكان « ديمقريطس » يتلهى بهذه السفاسف إلى حد أن فاته أن يدرك أن نظريته لا تكون معقولة ، إلا إذا فرضنا أن أحشاء جميع المواشى كانت تتخذ لونا واحدا وحالة واحدة فى وقت واحد ؟ ولكن إذا كان كبد ثور يبدو ناعما ومنتفخا ، بينما يبدو كبد ثور آخر فى نفس اللحظة خشنا ومتقلصا ، فأى استدلال يمكن الوصول إليه من « حالة الأحشاء ولونها ؟»

ومن دواعى التسلية كذلك ، تلك القصة التى رويتها عن « فرسايدز » Pherecydes ذلك الذى تطلع الى مياه أخرجت من بئر ، ثم تنبأ على أثر ذلك بوقوع زلزال(٢) . وإنه لمما يثير الدهشة — فيما يلوح — أن يحاول الفلاسفة الطبيعيون شرح سبب الزلزال بعد وقوعه . ولكن هل يستطيع هؤلاء العلماء أن يتنبئوا اعتمادا على النظر إلى ماء عذب ، بأن زلزالا يوشك أن يقع ؟ مثل هذا الهذر كثيراً ما يتردد عنه العلماء، ولكنا لسنا مطالبين بأن نعتقد الصدق فى كل شىء نسمعه . ومع التسليم بصحة الحماقات التى ذهب اليها « ديمقريطس » متى يمكن أن نستشير الأحشاء لنعرف منها شيئا عن الغلات أو الصحة ، ومتى نستمد العلم بهذه التفاصيل من عراف بعد أن يقوم بفحص الأحشاء ؟ إن العرافين يستندون إلى النار أو الفيضان حينما ينذرونا بالأمطار ، وقد يتنبئون بوراثة مال حيناً ، وضياعه حيناً آخر ، إنهم يبحثون فى الشق الذى يبشر

---

(١) النكتة المنسوبة هنا إلى ديمقريطس قديمة جداً فيما يشير مترجم جارنييه .

(٢) قارن الفقرة التاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب وجارنييه) .

بالخير أو ينذر بالشر ، إنهم يلتزمون الدقة البالغة عدما يفحصون رأس الكبد فى مختلف نواحيه ، فاذا امتنع وجود هذا الرأس مصادفة ، كان هذا عندهم أعظم شاهد يمكن أن ينذر بالشر المقبل .

هذا التكهن لا يستند إلى قوانين طبيعية :

١٤ — ومن المحقق أن مثل هذه الشواهد ، لا يتضمنها — فيما أبنت من قبل — تصنيفك لضروب التكهن : « الذى يعتمد على المشاهدة » وإذن فاستعمالنا لها لا يرجع إلى ماض سحيق ، ولكنها من مبتكرات الفن — إن جاز أن يكون فى الأمور الخفية المجهولة فن — ولكن ما العلاقة التى تربط هذه الشواهد بقوانين الطبيعة ؟ وإذا افترضنا أن جميع ظواهر الطبيعة تنتظم فى كلٍّ متسق ، ويرتبط بعضها بالبعض الآخر ارتباطا قويا — وهذا فيما أرى رأى الفلاسفة الطبيعيين ولا سيما أولئك(١) الذين يقررون بأن الكون وحدة — فأية علاقة يمكن أن تقوم بين الكون واكتشاف كنز ؟ وإذا أنبأت الأحشاء بنمو فى ثروتى ، واتفق هذا مع قانون من قوانين الطبيعة ، فأن هذا يشهد أولا بوجود علاقة بينها وبين الكون ، ثم يدل ثانيا على أن ربحى المالى تهيمن عليه قوانين الطبيعة ، أليس يشعر الفلاسفة الطبيعيون بالحياء من إعلان مثل هذا الهذر ؟ ومع هذا فقد يسلم بوجود علاقة معينة تربط بين أجزاء الطبيعة المختلفة ، وأنا ممن يسلمون بهذا الرأى ، وقد جمع الرواقيون كثيرا من الأدلة ليبرهنوا بها على صحة هذه الحقيقة ، فمن ذلك أنهم يدعون بأن أكباد الجرذان تنمو فى فصل الشتاء ، وأن الحبق (الريحان) الجاف يزهر فى نفس يوم الانقلاب الشتوى ، وأن قربان الحبوب فى هذا الحبق تمتلىء هواء وتنفجر ، فتنتثر البذور التى بداخلها فى شتى الجهات ، وأن بعض أوتار القيثارة قد يقرع أحيانا فيصيب غيرها من الأوتار ، وأن من عادة المحار وكافة الصدف أن يتمشى مع القمر

---

(١) بين الذين يقصدهم « شيشرون » اكسانوفان من أهل كولوفون . قارن شيشرون فى Acad 11.37.118 (لويب) .

طردا فى نموه وتناقصه، وأن قطع الشجر أيسر فى فصل الشتاء وفى محاق القمر، إذ يجف الشجر عندئذ من عصير النبات.

ليس بنا من حاجة للأسباب، ولا لذكر البحار والمضايق التى تهيمن حركات القمر على جزرها ومدها، فإن من الممكن أن نقدم أمثلة من هذا النوع لا يحصيها العد، للدلالة على وجود علاقة طبيعية تقوم بين الأشياء التى يلوح أنها على غير اتصال، فلنسلم بأن هذه العلاقة قائمة، فإن التسليم بها لا يتعارض مع الرأى الذى أقرره، فى أن شقوق الكبد ليس فيها ما يحمل الدلالة على ربح مال مقبل، إذ أى اتصال طبيعى، أو كما يقال أى إيقاع موسيقى أو أية مشاركة وجدانية — كما يقول الإغريق — يمكن أن تكون قائمة بين شق فى كبد، ومبلغ طفيف من المال يجدّ على كيس نقودى؟ أو أية علاقة بين اخفاق فى إقتناء المال من جهة، وبين السماء والأرض وقوانين الطبيعة من جهة أخرى؟

دحض الاحتجاج بالإرادة الإلهية:

١٥ — ولكنى سأسلم حتى بهذا إن شئت، ولو أن التسليم بوجود علاقة بين الطبيعة وحالة الأحشاء، يضعف من قضيتى إلى حد كبير، ولكن هبنى سلمت بذلك، فكيف نعلم بأن الانسان فى بحثه عن شواهد تبشر بالخير، يجد ضحية تحقق مطلبه وتلائم غرضه؟ إن هذا أمر عسير المنال، ولكن أى حل بديع ذلك الذى قدمته لتحقيقه؟ إنى لا أجد معرة فى موقفك فإن ذاكرتك تثير الدهشة فى نفسى، ولكنى أستشعر الخجل من موقف «كريسبوس» Crysippus و «أنتباتر» Antipater و «بوسيدونيوس» Posidonius الذين يقررون هذا الرأى الذى قلته أنت من قبل، وهو أن «اختيار الذبيحة التى تقدم قربانا للآلهة، تشرف عليه القوة الإلهية المدركة التى تهيمن على الكون كله».

« بل إن تصريحهم الذى سلمت أنت به ، كان أكثر من هذا تناقضا ، وهو أن تغيرا يطرأ على الأحشاء فى اللحظة التى تقدم فيها الضحية ، فتظهر أشياء كانت فى طى العدم ، وتختفى أخرى كانت فى عالم الوجود ، ذلك لأن كل شىء فى الكون يخضع للارادة الإلهية » . أقسم أن ليس فى الدنيا امرأة شمطاء بلغ من تسرعها فى التسليم بصحة الأمور ، أن تعتقد فى صدق هذا الأمر . . ! وهل تظن أن الثور الصغير إذا تخيره أمرؤ كان كبده بغير رأس ، فإن تخيره غيره كان لكبده رأس ؟ وهل من المعقول أن يظهر رأس الكبد فجأة ، وأن يختفى على غير انتظار ، حتى تتلاءم الأحشاء مع مطلب الشخص الذى يقدم الضحية ؟ وهل فاتكم أيها الرواقيون أن تدركوا أن اختيار الضحية فى أغلب حالاته يكون كرمية النرد (محض اتفاق) ، ولا سيما وأن الحقائق تؤيد ذلك ؟ فأن أحشاء الضحية الأولى متى كانت بغير رأس — وذلك عندكم أكبر الشواهد إنذارا بالشر — فإن الذى يحدث بعد ذلك ، أن تحمل الذبيحة فى الضحية الثانية بشائر الخير إجمالا ، فخبرنى ماذا يكون مصير نذر الشر فى أحشاء الضحية الأولى ؟ وكيف تهيأت نعمة الآلهة على هذا الوجه الكامل ، وعلى غير انتظار سابق ؟

السخرية من استشهادات الرواقيين :

١٦ — ولكنك تقول « إن قيصر كان ذات مرة يقدم ثورا قربانا للآلهة ، فلم يجد فى أحشائه قلبا (١) ، ولما كان من المستحيل للثور أن يعيش بغير قلب ، فلابد أن يكون القلب قد اختفى فى اللحظة التى ذبح فيها » فكيف ساغ عقلك القول بأن الثور ما كان ليعيش بغير قلب ، ولا تعرف أن القلب ما كان يمكن أن يختفى فجأة إلى حيث لا أدرى ؟ أما عن رأيى فإن من المحتمل أن أكون على جهل بالوظيفة الحيوية التى يؤديها القلب ، ولو أنى عرفت ذلك لاشتبهت فى أن يكون قلب الثور قد أصابه الضنى وأدركه التقلص

(١) قارن الفقرة الحادية والخمسين من الكتاب الأول (لويب) .

إثر مرض اعتراه حتى فقد تشابهه بالقلب. وإذا فرضنا أن القلب كان فى الثور الذى يضحى قبيل ذبحه بلحظة، فلماذا تظن أنه اختفى فجأة فى نفس اللحظة التى ذبح فيها ؟ أليس الأحرى أن نقول إن الثور قد فقد قلبه عندما رأى قيصر فى ثوبه الأرجوانى وقد فقد رأسه . . ! [١].

« إنى لأقسم أيها الرواقيون أنكم تسلمون حصن الفلسفة نفسه أثناء دفاعكم عن استحكاماتها الخارجية ! (تتمسكون بالفروع وتتسامحون فى الأصول) لأنكم بإصراركم على صدق العرافة، تهدمون علم وظائف الأعضاء هدما كاملا، ففى الكبد رأس وفى الأحشاء قلب، ولكن سرعان ما يختفيان، فجأة وفى نفس اللحظة التى تنثر فيها عليهما الدقيق والنبيذ ! أجل إن إلهاً ما، قد اختطفهما بغتة، إن قوة ما غير مرئية، ستحطمهما أو تلتهمهما فجأة » ! وعلى هذا يكون كون الأشياء وفسادها جميعا لا يرجع إلى نواميس الطبيعة، فإن فى الوجود أشياء تظهر من العدم، أو تصبح بعد كونها عدما، فجأة وعلى غير انتظار، فهل ذهب لى هذا الرأى فيلسوف طبيعى . . ؟ إنك تقول إن « العرافين قد قالوا به » فهل تظن أن العرافين أجدر بالثقة والتقدير من الفلاسفة الطبيعيين ؟

١٧ — ثم إذا قدمت الضحايا لأكثر من إله فى آن واحد، كيف يحدث أن يكون الفأل ميمونا فى حالة وشئوما فى أخرى ؟ أليس تقلبا غريبا من الآلهة أن يضمنوا أحشاء ضحية وعيدا بنقمة، وأن يحملوا أخرى بشيرا بنعمة ؟ وهل يقوم بين الآلهة مثل هذا الخلاف — حتى بين الذين تربطهم أواصر القربى — إلى حد أن أحشاء الضحية التى تقدمها قربانا « لأبولو » تحمل أنباء الخير، بينما تكشف الضحية التى تقدمها فى نفس الوقت إلى « ديانا » عن شر مقبل ؟ وإذا كانت الضحية ترتى عفوا وتنشأ مصادفة، فإن من البين الذى لاشك فى أمره، أن الشاهد الذى تتلقاه عن الأحشاء يقوم على ما يحتمل

---

(١) يستخدم « شيشرون » الجناس بالاستعمال الشائع لكلمة Cor بمعنى العقل . قارن ملاحظة قيصر فى مناسبة شبيهة بتلك (Suet. Iul. Caesar 77) وقد أشار فيها إلى أنه لايعتبر شيئا خارقا أن تعوزه القوة المدركة حيواناً متوحشا (لويب) .

أن تأتى به المصادفات . ولـكن ربما قيل : « إن الله هو الذى يشرف على هذا الاختيار ، كما هو الحال فى أمر الأنصبة تماما ، فإن السحب تهيمن عليه الآلهة » فلنتحدث الآن عن الأنصبة :

إيثار رأى الأبيقوريين على رأى الرواقيين :

إنك بمقارنة اختيـار الضحية بالأنصبة لا تـقوّى قضية الأولى ، بينما تضعف قضية الأنصبة بهذه المقارنة ، فإنى إذا أوفدت عبداً إلى «ايكويمايليوم» Aequimaelium فى طلب حمل أضحيه قربانا ، فأحضر إلىّ حملا ذا أحشـاء تناسب مطالب حالتى الخاصة ، فإن هذه لا تـكون مصادفة فيما يلوح لى ، ولـكن إلهاً هو الذى هدى العبد إلى هذا الحمل المعين ! فاذا قلت إن المصادفة فى هذه الحالة كذلك نوع من القرعة يتفق مع الإرادة الالهية ، فإنى أشعر بالأسف لأن أصدقاءنا « الرواقيين » يهيئون « للأبيقوريين » بذلك فرصة عظيمة للسخرية ، لأنك تعلم مدى الاستهزاء الذى يبدونه عند سماع مثل هذا الـكلام .

وهم يستطيعون أن يسخروا فى تلطف أكثر من هذا ، لأن « أبيقور » قد أراد أن يهزأ بالآلهة ويحيطهم بالسخرية ، فمثّلهم فى صورة شفافة تهب الرياح عليهم مخترقة إياهم ، وصوّرهم مقيمين بين عالمين[1] — كما كانوا بين غابتينا[2] — خشية الهلاك . ثم يمعن فى سخريته فيجعل للآلهة أطرافا على نحو

---

(١) فـكان الآلهه يعيشون فى أمان إذا تمزق العالم إربا إربا (لويب) .

(٢) كان المنخفض القائم بين قمتى التل الذى يقوم عليه الـكابتول ويسمى ملجأ أو ملاذاً أى .Inter Duos Lucos وتقول الأسطورة إن فى هذا المكان أقام « رميلوس » ملجأه الذى كان يلوذ به المجرمون . وكانت الغـابات تقوم أول الأمر على قنن الجبال . أنظر Platner, Topography & Monuments of Ancient Rome. ص ٣٠٥ (لويب) . وقد أراد « رميلوس » بعد أن شاد روما أن يغرى الناس بالاقامة فيها فجعلهـا ملاذاً للمجرمين والهاربين من عبيد جيرانه . . . . إلى آخر ما تراه مفصلا فى كتابى قصة الـكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٢٩ وما بعدها طبعة أولى . ثم انظر فيما يتصل بموضوع آلهة أبيقور الـكتاب الأول من « طبيعة الآلهة » لشيشرون ، ولا سيما الفقرات ١٦ — ١٩ حيث يعرض النظرية أحد أتباع الأبيقورية : Velleius وفى الفقرات ٢٦ وما بعدها حيث ينقد النظرية « كوتا » أحد أتباع الأكاديمية (الجديدة) (جارنييه) .

ما لنا من أطراف ، ولكنهم لا يستخدمونها فى عمل ما ، ومن ثم فان «أبيقور» الذى يحطم الآلهة بهذه الطريقة الملتوية المعوجة ، لا يتردد فى تحطيم التكهن بالغيب من أخصر الطرق ، ومهما يكن من شىء فان فى تفكير «أبيقور» اتساقا منطقيا ، أما «الرواقيون» فليس فى آرائهم انسجام ، لأن إله «أبيقور» الذى لا شأن له بنفسه ، ولا بأى إنسان آخر ، لا يسعه أن يخلع على الناس القدرة على التنبؤ بالغيب ، كما أن إله «الرواقين» لا يستطيع أن يمنحهم هذه القدرة ، رغم أنه يتولى حكم الدنيا ، ويقوم بتدبير الخير لبنى الإنسان . فلماذا تورطون أنفسكم — أيها الرواقيون — فى مثل هذه السفسطة التى لا تقوون على إيضاحها أبدا ؟ إن أتباع مدرستكم يتسرعون فى إقامه هذا القياس :

«إذا ثبت وجود الآلهة ، استقام وجود التكهن بالغيب ، ولكن وجود الآلهة ثابت ، وإذن فالتكهن بالغيب قائم» وأدنى إلى المنطق أن يكون القياس على هذا النحو :

«ليس ثمة تكهن بالغيب ، وإذن فليس ثمة آلهة» .

ولاحظ كم تعجلوا ، وضلوا السبيل عندما أعلنوا هذه القضية : «إذا لم يستقم وجود التكهن بالغيب ، استعصى وجود الآلهة» ، أقول تعجلوا ، لأن من البيّن أن التكهن قد تحطم كيانه ، ومع ذلك فإن لزاما علينا أن نسلم بوجود الآلهة .

ب — مهاجمة التنبؤ عن طريق البرق

١٨ — وبتحطيمنا للتنبؤ عن طريق الأحشاء ، نكون قد قضينا على فن العرافة قضاء مبرما ، لأن هذا المصير نفسه ينتظر التنبؤ بالغيب عن طريق البرق ونذر الزجر ، فانك تقول إن المشاهدة التى تتكرر أمداً مديداً تستخدم فى حالة البرق ، وأن العقل والحدس قد جرت العادة باستخدامهما فى نذر الزجر ، ولكن ما هذا الذى انتهت إليه المشاهدات فى حال البرق ؟ لقد قسم أهل «أترووريا» السماء إلى ستة عشر جزءا ، وكان من أيسر الأمور عليهم أن

يضاعفوا الأجزاء الأربعة التي قسمنا نحن — معاشر الرومان — السماء إليها ، ثم يكررون تضعيفه ، فينتهي إلى ستة عشر قسما ، ويخبرون بعد هذا بالقسم الذي هبطت منه الصاعقة . أي فائدة نجنيها من معرفة موضع سقوطها ، ثم ماذا ينبيء عنه هذا ثانيا ؟ إنه لمن الواضح كل الوضوح أن من الدهشة والخوف الذي يثيره البرق والصواعق في نفس الرجل البدائي ، قد نبعت عقيدته في أن هذه الظواهر أنشأها الإله « جوف » Jove القادر على كل شيء ، ولهذا تقول أساطيرنا في فن العرافة :

« إن جوف إذا رعد أو أبرق ، كان من الشطط إجراء الانتخابات » .

وربما كانت الأسباب السياسية التي قضت بذلك ، لأن أسلافنا كانوا يلتمسون الأعذار لالغاء الإنتخابات أحيانا ، فكان البرق في عرفهم نذير سوء في حالة الانتخابات وحدها ، أما في سائر الحالات الأخرى فقد اعتبر البرق عندهم طالعا (فألا) ميمونا متى التمع يسارا[١] . ولكني سأناقش الفأل والطيرة في مكان آخر ، أما الآن فحسبي البرق موضوعا للحديث .

١٩ — وعلى هذا فليس ثمة كلام صدر عن فيلسوف طبيعي أقل قيمة من نبوءات يقولها كاهن على سبيل اليقين ، مستندا إلى شواهد ظنية لا تقوم على يقين ، وما أظن — على التحقيق — بأنك بلغت من سرعة التصديق حدا تعتقد معه أن صاعقة «جوف» قد أنزلها نوع من الشياطين[٢] على جبل « أيتنا » إذ لو لم تكن لديه إلا صاعقة واحدة ، لكان إلقاؤها بين الحين والحين أمرا يثير الدهشة ، ثم إنه لا يستطيع أن يسدى إلى الناس بصواعقه كثيرا من النصائح ، لينبههم بذلك إلى ما ينبغي فعله وما يجب الإمساك عن عمله ، ولكن « الرواقيين » يصفون الصاعقة على هذا النحو :

---

(١) أنظر الفقرة السابعة من الكتاب الأول والتاسعة والثلاثين من الكتاب الثاني .

(٢) Cyclopes جنس خرافي من الشياطين ، كانت صقلية مهده الرئيسي ، ولكل شيطان عين تقع في منتصف جبهته ، وعدد هذه الشياطين كثير .

وصف الصواعق المنذرة عند الرواقية ومناقشته :

« عندما تتصاعد من الأرض أبخرتها الباردة وتشرع في الدوران ، تتحول إلى رياح ، فاذا اقتحمت هذه الرياح سحابه ما ، أخذت (الرياح) في التشتت ، وانتثر الدقيق من أجزائها ، فاذا تم هذا في سرعة بالغة وقوة عنيفة ، حدث الرعد ونشأ البرق . وعندما تتصادم السحب كذلك تنسحب حرارتها في عنف ، وتنشأ الصاعقة عن ذلك »[١]. وعلى هذا فاننا إذا عرفنا أن هذه الظواهر ترجع إلى علل طبيعية وتقع بغير نظام مطرد ، وفي غير وقت معين ، فكيف ننظر إليها باعتبارها شواهد تنبيء عن مقبل الأحداث ؟ إنه لمن الغريب أن يزجرنا « جوبتر » بالصواعق يرسلها في سخاء لغير ما سبب ! فماذا يقصد مثلا من إلقائها في عباب البحار ؟ أو على قنن الجبال الشماء — كما يفعل في غالب الأحوال ؟ ثم خبرني لماذا يلقيها عبثا في رحاب الصحاري المنعزلة عن كل نطاق معمور ؟ ولماذا يرمي بها على شواطيء شعوب لا تلقي لها بالا ؟

مناقشة استشهادات الرواقية والاصرار على تعليلها :

٢٠ — يا للعجب ! ولكنك تقول « إنهم عثروا على رأس التمثال في نهر التيبر »[٢] كما قال العرافون تماما — كأنك افترضت أني ذهبت إلى القول بأن عرافيك مجردون من كل فن[٣] إن موضوع الخلاف بيننا هو أني أنكر وجود التكهن بالغيب ، فان تقسيم السموات على النحو الذي أشرت اليه من قبل[٤] ،

---

(١) يرى الرواقية فيما يروي ديوجانس اللايرتي وجود علاقة بين ظاهرة التبخر الذي ينتج عن حرارة الشمس وبين التيارات الهوائية ، والرياح عندهم تسمى بأسماء مناطق السماء التي تهب منها ، والأصل هو فعل الشمس مع بخار الماء (جارنييه) .

(٢) قارن الفقرة العاشرة من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثاني « لويب » ويلوح أن شيشرون يريد أن يقول إن العيافين كانوا على شيء من الذكاء يمكنهم من معرفة الاتجاه الذي يجب التزامه في البحث عن الرأس ، وفي أي مكان سقط في النهر (جارنييه) .

(٤) قارن الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثاني (لويب) .

وملاحظة ما حدث فى كل قسم منها ، يمكّن العرافين من معرفة المكان الذى تهبط منه الصواعق أو تمضى إليه ، ولكن ليس فى ذلك ما يحتمل أن يكشف لنا عن قيمة الصاعقة فى مجال الغيب المحجب ، بيد أنك تسخر لمهاجمتى أشعارا نظمتها أنا من قبل[١] .

[وقف أبو الآلهة والبشر ذو الرعد السماوى على جبل أوليمبوس الذى يطاول النجم ، وأرسل شهبه ليدمر معابده وآثاره ، ورمى معبد الكابيتول بنيرانه].

وقد مضيت فى شعرى بعد هذا وقلت إن تمثال « ناتّا » Natta وصور الآلهة والقطعة الفنية التى تمثل « روميلوس » و « ريموس » مع الذئبة التى تعهدت تربيتهما[٢] ، قد نزلت بها صاعقة فهوت تلك الصور والتماثيل إلى الأرض جميعاً ، وقد تحققت النبوءات التى استنتجها أهل العرافة من هذه الأحداث بحذافيرها ، وفوق هذا فإنك تستشهد بى كمصدر تستقى عنه هذه الحقيقة المعروفة ، وهى أنه فى نفس الوقت الذى قدم فيه لمجلس الشيوخ الدليل على المؤامرة ، كان تمثال جوبتر الذى تقررت إقامته قبل ذلك بعامين ، يشاد فى الكابيتول .

وكنت تناقشنى قائلا : هل تقنع نفسك بمهاجمة التكهن معلناً خصومتك لى ، رغم ما أسلفت من كتابات ، ورغم مهنتك التى تشغلها ؟ « إنك أخى ولهذا فإنى أحجم عن اتهامك بنفس الإثم الذى تتهمنى به ، ولكن معذرة يا أخى ، ما الذى يثير فى نفسك الضيق من هذه المسألة ؟ » أهى طبيعة الموضوع ؟ أم هو إصرارى على اكتشاف الحقيقه ؟ إنى أتخطى شكواك

---

(١) يذكر هنا بعض الأبيات التى سبق له أن ذكرها بعد الفقرة الحادية عشرة من الكتاب الأول وكنا قد أهملنا ترجمتها لقلة أهميتها كما أشرنا من قبل ، ولكنه ذكرها — فيما رجحنا — اعتزازاً بشعر نظمه ولم يجد من يقدره .

(٢) ترى قصة هذه الذئبة مع « روميلوس وريموس » فى الفصل الذى عقدته عن « نشأة روما ونموها » — كما ترويه الأساطير — فى كتابى : قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة ص ٢٧ وما بعدها من الطبعة الأولى .

من تناقضى ، وألتمس إليك إيضاحاً لموضوع العرافة كله ، ولكنك لجأت الى ملاذ غريب ، فقد تنبأت بأنى سأحرجك عند ما أطلب اليك إبداء العلة فى كل ضرب من ضروب التنبؤ بالغيب ، فوجدت فى ملاذك الكثير لتقوله بصدد هذه الحقيقة :

ما دمت أرى ما ينتهى إليه التكهن بالغيب ، فإنى لا أستفسر عن السبب أو العلة التى أدت إلى ذلك ، والشيء الذى يعنينا من هذا هو : ماذا يسفر عنه التكهن ؟ لا لماذا انتهى إلى ذلك ، كأنى أسلم معك بأحد أمرين : أن التكهن قد أدى إلى نتيجة ما ، أو أنه كان من الجائز لفيلسوف ألا يستفسر عن العلة فى حدوث شيء ما ! » وقد قدمت فى هذه المناسبة كتابى فى « النذر »[١] وبعض نماذج من حشيش « الأرستولوكيا » و « المحمودة » قائلا إنك استطعت أن تعرف فضلهما وتتبين نتيجة فعلهما ، ولكنك أخفقت فى معرفة السبب فى ذلك[٢] .

٢١ — ولكن شرحك هذا ليس فى صميم الموضوع إطلاقاً ، فإن « بيثوس » الرواقى[٣] — وقد أسلفت الإشارة اليه — وصديقنا « بوسيدونيوس » قد تناولا بالبحث الأسباب التى تؤدى إلى الظواهر الجوية ، ولو أنهما لم يكتشفا هذه العلل ، فإن الظواهر نفسها يمكن أن تخضع للمشاهدة وتكون موضع دراسة ، أما فى حالة تمثال « ناتا » ولوحات القوانين النحاسية التى حطمها البرق ، فأية فرصة هناك تُمَكّن من المشاهدة التى تتكرر زماناً مديداً ؟ إنك تقول إن « ناتاس » من الأسرة « البينارية » — الرومانية — وأنها انحدرت عن أصل نبيل ، وعلى هذا كان من المتوقع أن يكون النبلاء مصدراً لخطر داهم . ما أمهر « جوبتر » فى اختلاق الوسائل لزجرنا عن الخطر ! وقلت « إن تمثال الطفل « روميلوس » قد أدركته صاعقة ، فتكهن العرافون

(١) قارن الفقرة الثامنة من الكتاب الأول (لويب) .
(٢) قارن الفقرة العاشرة من الكتاب الأول (لويب) .
(٣) قارن الفقرة الثامنة من الكتاب الأول .

استنادا إلى هذا الحدث ، بأن الخطر سيدهم المدينة التى شادها » . ما أعقل جوبتر فى استخدام الشواهد فى حمل الأنباء الينا ! وتقول كذلك : « إن تمثال « جوبتر » قد أقيم فى نفس الوقت الذى كشفت فيه المؤامرة » وأنت تميل بغير شك إلى أن تردّ هذا الاتفاق فى وقوع الأحداث إلى العناية الإلهية ، أكثر مما تميل إلى إرجاعه إلى محض المصادفة ، وإنى أظن أن الرجل الذى عهد إلى « كوتا » و « توركواتوس » Torquatus فى إقامة التمثال ، لم يرجىء إتمام عمله لفتور فى همته أو لعوز مادى ، ولكن يده لم تتحرك للعمل إلا فى الساعة التى حددها الآلهة المخلدون !

اقرار المصادفة فى مجال التكهن :

ليس بى من شك ميئس بصدد هذه النذر التى أرسلتها الآلهة حقا ، ولكنى أجهل وجودها ، وأود أن أعرف منك وجه الحق فى أمرها . وعندما وقعت أحداث أخرى كتلك التى تكهن بها العرافون ، ولاحظت أنى أعزو اتفاق وقوعها إلى المصادفة ، أسهبت أنت فى الحديث عن اتفاق المصادفات ، فمن ذلك أنك قلت : « إن رمية « فينوس » فى زهرات النرد الأربع قد تعزى إلى المصادفة ، ولكن إذا أسفرت مائة رمية لفينوس ، فإن هذا لا يمكن أن يكون محض مصادفات »[1]. وأنا لا أدرى أولا لماذا يكون هذا مستحيلا ، ولكنى لا أصر على هذا الرأى ، لأن لديك من أمثلة هذا النوع كمّا كبيرا ، ومن ذلك المثال الذى ضربته عن انتشار الألوان ، أو ذلك الذى سقته عن خرطوم الخنزير وغير ذلك من الأمثال كثير ، ثم إنك ذكرت عن «كارنيادس» تلك الأسطورة التى تدور حول رأس الإله « بان » ، كما لو كان التشابه لا يمكن أن تؤدى إليه المصادفات ! وكما لو كانت قطعة الرخام لا تنطوى بالضرورة على رؤوس تشبه الرؤوس التى يبدعها « براكستيليس » Praxiteles [2] لأن

(١) قارن هذا وما يليه من أمثال فى الفقرة الثانية عشرة من الكتاب الأول « لويب » .

(٢) Praxiteles هو مثال يونانى ولد فى أثينا حوالى عام ٣٩٠ ق . م وقد كانت تماثيله التى نحتها لفينوس ذائعة الشهرة فى العصور القديمة .

الروائع الفنية التى أبدعها ، قد صنعها بنحته الرخام ، ولم يضف إليها شيئا ما ، وبعد أن استنفد فى النحت جهودا ، تكشفت ملامح وجه ما ، ومن هذا يرى المرء أن العمل الفنى الذى تم صقله وإعداده ، كان كامنا فى ثنايا قطعة الرخام ، وعلى هذا فإن من الممكن أن تظهر الصورة التى وصفها «كارنيادس» من تلقاء نفسها فى محاجر «شيان» Chian ، ثم قد تكون القصة — من جهة أخرى — من نسيج الخيال ، وهذا بالإضافة إلى إنك كثيرا ما لاحظت السحب وهى تأخذ شكل أسد أو صورة هيطر ، وإذن فمن الممكن أن تحاكى المصادفة الحقيقة ، وهذا هو الذى أنكرت التسليم به الآن[١] .

ح — مهاجمة التكهن بنذر الزجر

٢٢ — قد استوفينا الآن مناقشة التكهن بالغيب عن طريق الأحشاء والبرق ، وبقى علينا أن نناقش نذر الزجر ، إذا كان لابد لنا من أن نعالج العرافة فى مختلف صورها :

الجهل بالعلة مثار الاعتقاد بالغيب :

لقد تحدثت عن بغلة تلد فلوا[٢] ، مثل هذا الحادث يثير العجب لأن وقوعه نادر ، لو أن هذه الحادثة كانت مستحيلة لما وقعت ، وربما قيل بحمق فى مهاجمة نذر الزجر ، إن الشىء المستحيل لا يقع أبدا ، والشىء الممكن لا يثير وقوعه فى النفس دهشة ، فاذا وقعت حادثة جديدة كان الجهل بعلتها مثار دهشتنا ، بينما لا يثير هذا الجهل بالأشياء التى يتكرر وقوعها دهشة ما ، لأن المرء الذى يتعجب من ولادة البغلة ، لا يعرف كيف تلد الفرس ، بل يجهل الولادة عند مختلف الحيوانات بوجه عام ، إن ما يراه كثيرا لا يثير الدهشة فى نفسه ، حتى ولو جهل كيفية وقوعه ، فانْ وقع ذات مرة أمر لم يعهده من

(١) قارن الفقرة الثانية عشرة (فى نهايتها) فى الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن الفقرة السابعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) .

قبل بتاتا ، اعتبره نذير سوء . وإذن فأيهما يكون النذير الزاجر : حمل البغلة أو ولادتها ؟ ربما كان الحمل لا يتفق مع ما ألف الناس فى الطبيعة ، ولكن الولادة تجىء كنتيجة ضرورية للحمل .

نشأة علم العرافة ومناقشتها :

٢٣ — « لعل من نافلة القول أن نقول عن العرافة شيئا أكثر من هذا ، ومع ذلك فلنعرض للبحث فى مصدرها ، وبهذا يسهل علينا أن نحدد قيمتها : يقول الأثر المتواتر إن فلاحا كان يحرث حقلا ذات يوم فى إقليم « تاركوينى » فغاص المحراث أعمق مما ألف أهل الحرث ، ثم ظهر شبح Tages (١) وشرع يتحدث إلى الفلاح الذى كان يقوم بحراثة الأرض ، وتقول الأساطير عن أهل أتروريا ، إن هذا الشبح كان يبدو فى صورة ولد ، ولكنه كان على حكمة نبى ، فأدركت الحيرة هذا الفلاح ، وأصابه الروع من جراء هذا المنظر المخيف ، فصاح يلتمس النجدة ، وأخذ الناس يتجمعون حوله ، حتى تكدس أهل أتروريا فى هذه البقعة فى وقت وجيز ، وعندئذ شرع الشبح يتكلم فى استفاضة إلى مستمعيه (٢) الذين كثر عديدهم ، وكانوا يتلقون بلهفة كل ما كان يقوله واهتموا بتسجيله ، وكان خطابه منصبا على تغير علم العرافة ، ثم اهتدى الناس بعد ذلك إلى معلومات جديدة ، خبروا أمرها فى ضوء القواعد التى عرفوها عنه ، فأضافوا هـــذه الحقائق الجديدة إلى ما توافر لديهم من حديثه عن العرافة .

تلك هى قصة العرافة كما انحدرت الينا عن أهل أتروريا أنفسهم ، وكما دونتها أساطيرهم ، وهذا عندهم هو الأصل الذى نشأ عنه فنهم ، فهل ثمة من حاجة إلى « كارنيادس » أو « أبيقور » ليدحض مثل هذا الهذر ؟ من فى الدنيا

(١) Tages هو حفيد « جوبتر » ولكن بعض المؤرخين يرون أنه وليد قصير القامة نشأ عن كتلة طينية أخرجها محراث فلاح كما يلوح من النص ، وهو أول من علم أهل أتروريا علم التكهن بالغيب والعرافة .

(٢) قارن : Ovid, Met. XV.553 (لويب) .

بلغت به الغباوة إلى حد أن يعتقد أن حرث الأرض يكشف عن إله أو إنسان، لست أدرى ماذا أقول؟ فإن كان إلها فلماذا أخفى نفسه فى جوف الأرض على غير ما تقضى به طبيعته، حتى يكشف عنه ويظهره للناس محراث؟ أما كان يمكن لهذا الإله المزعوم أن يعلن هذا الفن للبشر من مكان أكثر من هذا سموا؟ ولكن أرجو أن تنبئنى، إن كان هذا الشبح رجلا، فكيف أمكن أن يعيش مغطى بالتراب؟ وأخيراً أين تعلم هو نفسه تلك المعلومات التى أفضى بها للأغيار؟ ولكن من المحقق أنى حين أستنفد هذا الوقت الطويل فى دحض هذا الذى يبدو هذراً، أكون أكثر (سخفا) تمرداً على منطق العقل من أولئك الذين آمنوا بهذه الأسطورة.

٢٤ — وفى الحق لقد كانت ملاحظة بديعة قيمة تلك التى لاحظها «كاتو» منذ سنين طويلة عندما قال: «إنى لأعجب من عراف لا يضحك إذا رأى عرافا آخر، إذ كم من النبوءات التى تكهن بها العرافون قد تحققت فعلا؟ وإذا كان بعض هذه النبوءات يصدق، فأى سبب يمكن الاستناد اليه فى التدليل على أن الاتفاق الذى كان بين الحادثة والنبوءة لا يرجع إلى محض المصادفات؟

عندما كان «هانيبال» فى منفاه فى بلاط الملك «بروزياس» أشار على الملك بأن يشعل نار الحرب، ولكن الملك أجابه قائلا: «إنى لا أملك الإقدام على ذلك، لأن الأحشاء قد زجرتنى عنه» فقال له «هانيبال»: «أتثق فى قطع من لحم الثور أكثر مما تثق فى قائد حنكته التجارب»؟[1] وكذلك الحال عندما حذر عراف طائر الصيت قيصر نفسه بألا يعبر أفريقيا قبل بدء الشتاء، ألم يعبرها قيصر؟ ولو أنه أحجم عن ذلك، لمكن قوات العدو من أن تتجمع للقائه فى مكان واحد.

ماذا أقول عن العرافة أكثر من هذا؟ إن من المحقق أنى أستطيع أن

---

(١) عقدت فى كتابى «قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة» فصلا عن «هانيبال قائداً وشريداً» ترى فيه موقف بوزياس — ملك بثينيا — من هانيبال. أنظر ص ٢٠١ وما بعدها من الطبعة الأولى.

أقدم من الأمثلة ما لا يحصيه العد ، لكى أدلل به على أن نبوءات العرافين كانت لاتنتهى إلى نتيجة ، أو أن النتيجة فيها كانت على عكس ماتقول النبوءة . كم من مرة — أيها الآلهة — أخطأ العرافون فى الحرب الأهلية الأخيرة . ؟ أية نبوءة هبط بها الوحى وبعث بها أهل العرافة من روما إلينا — نحن أعضاء حزب بومبى — وأرسلوها إلى بلاد الإغريق . ؟ وكم من التأكيدات قدموها إلى بومبى . ؟ فقد كان « بومبى » يسرف فى الاعتماد على نبوءات الأحشاء ونذر الزجر ، لست أريد أن أعيد إلى الذهن هذه الأحداث ، فليس وراء ذلك جدوى ، ولاسيا وأنك على علم يقين بأمرها[1] ، ومع هذا فأنت تعلم أن النتيجة كانت على وجه التقريب عكس النبوءة دواما ، ولكن حسبنا الآن عن هذا ما أسلفناه ، ولنتحدث عن نذر الزجر :

٢٥ — « لقد سقت كثيرا من الأمثلة اقتبستها من أشعار نظمتها وأنا قنصل ، وأوردت كثيرا غيرها لأحداث وقعت قبل الحرب المارسى[2] ، وكان « سيسنا » قد جمعها من قبل . وذكرت كما كبيرا رواه « كاليستانس » لأحداث وقعت قبل معركة الأسبرطيين المنكودة عند « ليوكترا »[3] ومن المحقق أنى سأتناول هذه الأمثلة مفرقة ، كلا على حدة بحسب ماتدعو الضرورة إلى ذلك ، ولكن فلأعرض الآن لمناقشة نذر الزجر إجمالا :

الاعتقاد فى النذر لا يستقيم مع المنطق :

ما طبيعة هذه الدلالات الخفية ، أو هذه الأنباء السابقة التى يلقيها إلينا الآلهة لكى ينبئونا عن مقبل النكبات ؟ ولماذا — قبل كل شىء — يرى الآلهة الخالدون أن من الخير زجرنا بنذر لا نستطيع فهمها ، دون أن نستعين بمؤولين ؟ ولماذا — من جهة أخرى — يحذرنا الآلهة من أحداث لا نملك

---

(١) نلاحظ أن كونتوس قد رد مقدما على هذا فى الفقرة الثالثة عشرة من الكتاب الأول .

(٢) قارن الفقرة الثالثة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

اتقاء شرها . ؟ إن الانسان نفسه — وهو كائن فان غير مخلد — متى أوتى الإحساس بالواجب ، يكف عن تحذير أصدقائه من المصائب التى توشك أن تقع ، إن كان من المستحيل الهرب من مواجهتها ، فمن ذلك أن الأطباء يعرفون فى كثير من الحالات أن مرضاهم يشرفون على الموت من جراء مرضهم ، ولكنهم لا ينبئون هؤلاء المرضى بذلك أبدا ، لأن التحذير السابق من شر مقبل ، لا مبرر له ، إلا إذا اقترن ببيان الطريق الذى يؤدى إلى اتقاء هذا الشر ، وإذن فكيف أفاد الإسبرطيون من نذر الزجر ومؤوليها منذ زمان طويل .؟ وكيف انتفع بها أصدقاؤنا أتباع «بومبى» بعد هذا الزمان . ؟ إذا كان لا بد من اعتبار هذه الشواهد التى تتحدث عنها كنذر أوحت بها الآلهة ، فلماذا شابها الغموض على هذا النحو ؟ فلو كان من حقنا أن نعرف الأحداث التى توشك أن تقع ، لوجب أن يبدو لنا ذلك فى وضوح وجلاء ، أو إذا كان الآلهة لا يريدون أن يمكنونا من معرفة ذلك ، لما أخبرونا به ، لا جليا ولا خفيا كامنا فى أحجية وألغاز .

٢٦ — وكل ضرب من ضروب الحدس — والتكهن (عن طريق نذر الزجر) إنما يعتمد على الحدس — يستخدم الناس فى أكثر الحالات ذكاءهم فى ممارسته ومزاولته ، وتختلف طرقهم فى ذلك ، بل وتتناقض ، وكما أننا نرى المدعى فى الدعاوى القضائية يستنبط استدلالا ، ويستنبط المحامى للمدعى عليه استدلالا آخر ، وكلا الاستدلالين مستنبط من مجموعة واحدة من الوقائع ، ومع هذا فقد يكون لكل من الاستدلالين وجاهته ، فكذلك الحال فى كل بحث يستند عادة إلى الحدس ، إذ نلاحظ أن الإبهام يشوبه . وفوق هذا فانا نجد فى حالة الأحداث التى تقع على سبيل المصادفة حينا ، وبالطريق المألوف الطبيعى حينا آخر — وقد تنشأ أخطاء بالغة الكثرة من الظواهر الخداعة الباطلة — أن من الطيش البالغ أن نعتبر الآلهة علة مباشرة ، ولا نستفسر عن أسباب مثل هذه الأحداث .

التفسير المنطقى لاستشهادات الرواقية كفيل بدحضها :

إنك تعتقد أن شعراء « بيوتيا » فى « لباديا » قد تنبئوا بانتصار الطيبيين ، استناداً إلى الديكة ، لأن الديكة — فيما تقول — من عادتها أن تلزم الصمت إذا أدركتها الهزيمة ، وتنزع إلى الصياح متى كانت منتصرة[1]. فهل تعتقد حقاً أن « جوبتر » كان يستخدم الكتاكيت فى حمل مثل هذه الرسالة إلى دولة عظيمة كهذه الدولة . ؟ وهل صحيح أن هذا الطير لم يتعود الصياح إلا إذا كان منتصراً .؟ ولكن الديكة قد صاحت فى هذه المرة دون أن تكون منتصرة إذ ذاك ، ولكنك تقول : « إن هذا كان نذيراً زاجراً » إنه نذير بديع حقاً .! إنك تتكلم كما لو كان الصائح سمكة وليس ديكا من عادته أن يصيح .! ولكن خبرنى ، هل ثمة وقت ما — فى ليل أو نهار — لا تكون فيها الديكة عرضة للصياح . ؟ وإذا كان الإحساس السار — أو سمّه المرح إن شئت — ذلك الذى ينشأ عن الانتصار ، هو الذى يحملها على الصياح ، فإن من الممكن على هذا أن يكون للمرح الذى ينشأ عن مصدر آخر نفس هذا الأثر .

ونقول عرضاً إن « ديمقريطس » يقدم شرحاً طيباً قيماً يكشف فيه عن السبب الذى يدفع الديكة الى الصياح قبل مطلع النهار ، فيقول « إن طعامها متى هضم ، خرج من الحوصلة ووزع على الجسم كله ، وفى الوقت الذى تتم فيه هذه العملية ، تكون الديكة قد استوفت حظها من النوم ، فتشرع فى الصياح ، وإذن فهى حتى سكون الليل — كما يقول « أنيوس » — تنطلق حناجرها الشقراء بالصياح ، وترفرف بأجنحتها غير المرئية ، وعلى هذا فإن هذا الطير نزاع إلى الصياح بمحض إرادته ، ولهذا فمن المحتمل أن يدفع إلى الصياح تحت تأثير طبيعته أو على سبيل المصادفة . فكيف قال « كاليستانس » إن الآلهة تنقل النبوءات إلى الناس عن طريق الصياح الذى يصدر عن الديكة .؟

٢٧ — إنك تقول إن البعض قد رفع إلى مجلس الشيوخ أنباء بوجود

(١) قارن الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

مطرة من الدم ، وأن نهر « أتراتوس » قد فاض بالفعل دما ، وأن تماثيل الآلهة قد تصببت عرقا (١) . فهل يمكن أن تتصور أن « طاليس » أو « أنكساجوراس » أو أى فيلسوف طبيعى آخر ، كان من الممكن أن يعتقد فى صحة مثل هذه الأنباء .؟ إن الدم والعرق لا يصدران على وجه التحقيق إلا عن أجسام حية ، وقد يسفر امتزاج الماء ببعض أنواع التراب عن شىء بالغ الشبه فى لونه بالدم ، والملحوظ أن الندى الذى يتكون على ظاهر الأشياء — على نحو ما نرى فوق حوائطنا الطينية عند ما تهب الرياح الجنوبية — يبدو شبيها بالعرق ، ومثل هذه الأحداث التى تبدو للخائف الوجل أيام الحرب مألوفة صحيحة إلى أقصى الحدود ، قلما تلاحظ أيام السلام . ثم إن القصص التى تروى عن نذر الزجر ليست سهلة الاعتقاد فى الفترات التى يشيع فيها الخوف ويفشو الخطر فحسب ، بل إنهـا كثيراً ما تختلق فى جو كله أمن وطمأنينة . ولكن هل بلغت بك السذاجة وعدم التبصر إلى حد أن تظن أن قرض الجرذان لشىء ، يعتبر نذيراً زاجراً ..؟ مع أن الجرذان لا عمل لها فى الحياة إلا قرض ما يصادفها من أشياء ... وتقول : « ولكن العرافين قد أعلنوا كنذير مروع للزجر ، أن الجرذان قد قرضت التروس فى « الأنوفيوم » قبل حرب المارسى » (٢) ، كما لو كان هناك فارق ما ، بين قرض الجرذان للتروس أو للغرابيل — وهى التى لا تكف عن القرض ليلا ونهاراً .. !

وقد وقع هذا النذير نفسه لى ، إذ قرضت الفيران فى بيتى كتابى « جمهورية أفلاطون » منذ عهد قريب ، فيجب أن أمتلىء روعا من أجل الجمهورية الرومانية ..! أو إذا كانت هذه الفيران قد قرضت كتابى الذى وضعه « أبيقور » عن اللذة ، لكان يجب أن أتوقع ارتفاعاً فى أسعار الطعام (٣) .!

---

(١) قارن الفقرة الثانية والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن الفقرة الثالثة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) من عادة شيشرون أن يشير إلى « أبيقور » باعتباره داعية اللذات الحسية ، ولكنه هنا يداعبه فيفرض أن كتابه عن اللذات ينطوى على الرغبة فى إكثار عدد النهمين.

وحصة الندرة كنذير زاجر :

٢٨ — « وهل نرتاع من قصص تلك النذر التي يتكشف عنها مولد حيوان أو إنسان .؟ وحسبنا أن نقول في إيجاز إن كافة نذر الزجر لها تأويل واحد لا ثاني له ، وهو : أن كل ما تكشّف عنه الوجود أياً ما كان نوعه ، يجب أن نلتمس سببه في رحاب الطبيعة ، وليس من الممكن أن يكون على خلاف مع الطبيعة حتى ولو لم يتفق مع تجاربنا في الحياة ، وإذن فاكتشف — إن استطعت — علة كل حدث يثير دهشتك ، فاذا عزّ الاهتداء إلى معرفة العلة ، فكن على يقين بأن ليس ثمة شيء رغم ذلك يمكن أن يقع دون علة تبرر وقوعه . واستخدم مبادىء الفلسفة الطبيعية في إبعاد الخوف الذي قد يساورك من شيء نادر لم تألف ظهوره من قبل ، وبهذا فلن يثير روعك وقوع زلزال ، ولا انشقاق سماء ، ولا قطرات من الحجارة أو الدماء ، ولا سقوط الكواكب أو النجوم ذوات الذنب .

وإذا كان لا بد لي من أن أستفسر من « كريسبوس » عن العلة في كافة الظواهر التي أسلفت ذكرها ، لما قال — هذا الكاتب الممتاز الذي كتب في التكهن بالغيب — إن هذه الأحداث قد وقعت على سبيل المصادفة ، ولكنه كان يجد في قوانين الطبيعة تفسيراً لكل منها ، إذ كان يقول :

« لا معلول بغير علة ، وما لا يمكن حدوثه ، لا يحدث بالفعل ، وإذا حدث شيء كان من الممكن أن يحدث ، لما اعتبر نذيراً زاجراً ، وعلى هذا فليس ثمة شيء اسمه نذير زاجر ، ولكن إذا كان ثمة شيء يعتبر نذير سوء لأنه نادر الظهور ، لكان ينبغي أن يكون الرجل الحكيم نذير سوء ، لأن المرات التي تلد

في الطعام ، وكلما ازداد عدد هؤلاء الأكولين — سواء أكانوا ناسا أم جرذانا — ارتفعت أسعار الطعام فيما يقول مترجم لويب . والعلاقة في المثالين واضحة ، ففي المثال الأول تظهر العلاقة بين جمهورية أفلاطون والجمهورية الرومانية ، وفي الثاني يقول إن كثرة أكل الجرذان التي تطعم ، سيؤدي إلى نقص المواد الغذائية ، فينتهي هذا إلى ارتفاع في أسعارها (لويب) .

فيها البغلة فلواً ، أكثر — فيما أظن — من تلك التى تنتج فيها الطبيعة حكيما ..!!» .

ويقدم « كريسبوس » فى هذا الموضوع القياس التالى : إن الشىء الذى لم يكن فى الإمكان حدوثه ، لا يمكن أن يكون قد وقع ، والشىء الذى كان يمكن وقوعه ، لايعتبر نذيراً زاجراً ، وإذن فليس هناك شىء اسمه نذير زاجر بأى وجه من الوجوه . وهذا تفسره الإجابة الموفقة التى أجابها أحد الكهان ومؤولى نذير الزجر ، فقد طلب اليه رجل أن يفسر له قصة ثعبان باعتبارها نذير سوء ، وقال له إن هذا الثعبان قد ظهر فى بيته ، وقد التف حول اسطوانة خشبية . فقال الكاهن : « ليس هذا نذير سوء ، وقد كان من الممكن أن يكون نذير سوء لو وجدت الاسطوانة الخشبيه ملتفة حول الثعبان ..! فكشفت هذه الإجابه فى وضوح مقنع عن « أن ما يمكن وقوعه لايعتبر نذير سوء أبداً » .

٢٩ — إنك تشير إلى خطاب كتبه « جايوس جراكوس » إلى « ماركوس بومبونيوس » ونص فيه على أن «تباريوس جراكوس » أبا « جايوس » قد أمسك ثعبانين فى بيته ، وأنه جمع العرافين[١] ، ولست أدرى لماذا يكون التشاور فى أمر الثعبانين ولا يكون فى أمر الجراذين أو الفيران . ؟ إنك تعلق على هذا قائلا : « لأنا نرى الجراذين والفيران كل يوم ، وأما الثعابين فانا لا نراها دواما » كما لو كان مدى تكرار الشىء الذى نعلم إمكان وقوعه ، يؤدى إلى فرق فى هذا الصدد . ومع هذا فان الشىء الذى يثير دهشتى هو هذا : إذا كان إطلاق أنثى الثعبان يؤدى إلى هلاك « تباريوس جراكوس » وإطلاق الذكر ينتهى بموت « كورنليا » ، فانى لأدهش لماذا أطلق صراح أحدهما ولم يُبق عليهما معا ؟ لأن « جراكوس » لم ينص فى خطابه على أن العرافين قد قرروا ماذا تكون النتيجة إذا أبقى الثعبانين ولم يطلق سراح أحدهما . ثم إنك تقول : ولنفرض الأمر كذلك ، وأن «جراكوس » قد اختطفه الموت ، هذا أمر مسلم به ، ولكن موته قد نشأ عن مرض بالغ الخطورة ، ولم ينشأ عن إطلاقه سراح

(١) قارن الفقرة السابعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) .

الثعبان — هذا وليس العرافون من نكد الطالع بحيث لا تصدق نبوءاتهم أبدا — حتى على سبيل المصادفات . . !

٣٠ — « وسأعجب لا محالة بهذه القصة المعروفة التى اقتبستها عن هومير ، والتى تدور حول « كافكاس » الذى تنبأ بعدد السنين التى يستغرقها حصار تروادة ، من عدد العصافير — إن صح ذلك(١) — وقد ترجمت فى فترة فراغ ما يقوله « أجاممنون » فى إلياذة « هومير »(٢) عن هذه النبوءة ، ولكن أرجو أن تفبئنى ، بأى قاعدة من قواعد العيافة تستنتج من عدد العصافير أعوام لا شهور ولا أيام . ؟ ثم لماذا يقيم العراف نبوءاته على عصافير صغيرة وهى لا تعتبر من المناظر الشاذة غير المألوفة ، ويهمل ما يدعيه الناس من أن إبليس قد تحول إلى حجر — وإن كان هذا مستحيل الوقوع — ؟ ثم ما حقيقة الأمر فى تلك العصافير التى توحى بعدد السنين . ؟

وإنى لأذكر ملاحظتين بمناسبة القصة التى رويتها عن الثعبان الذى ظهر أمام « سلا » عندما كان يقدم ضحاياه(٣) : أولهما أن « سلا » عندما قدم القرابين وهو يتأهب للمسير للقاء عدوه ، ظهر له ثعبان كان تحت المذبح . وثانى الملحوظتين أن الانتصار الباهر الذى ظفر به « سلا » فى هذا اليوم ، لا يرجع إلى فن العراف ، ولكنه يعزى الى مهارة القائد .

٣١ — ليس فيما يزعمونه فى نذر الزجر التى تدخل فى هذا النوع الذى أسلفناه الآن شىء خليق بالذكر ، ولكن بعض المؤولين قد نقلوا الأحداث بعد وقوعها إلى مجال النبوءة ، فمن ذلك قصتك التى رويتها عن حبوب القمح التى تكدست فى فم « ميداس »(٤) عندما كان طفلا ، وعن النحل الذى

---

(١) قارن الفقرة الثانية والثلاثين من الكتاب الاول (لويب) .

(٢) إنه « عوليسس » Ulysses وليس أجا ممنون — قارن الالياذة جـ ٢ ص ٢٩٩ (لويب وديماريه) .

(٣) قارن الفقرة الثانية والثلاثين من الكتاب الاول (لويب) .

(٤) قارن الفقرة الخامسة والثلاثين من الكتاب الاول (لويب) .

استقر على شفتى « أفلاطون » (١) وهو لا يزال فى المهد صبيا ، إن المعروف أنها تخمينات أكثر منها نبوءات حقيقيـة ، وهذا بالإضافة إلى أن هاتين القصتين ربما كانتا من نسيج الخيال ، فاذا لم تكونا كذلك ، فان تحقق النبوءة كان أمرا عرضيا .

أما عن حادثة « روسكيوس » فربما كان اختلاقا ما يقال من أن ثعبانا قد لف نفسه حوله ، ولكن ليس من الغريب أن يوجد فى مهده ثعبان ، ولا سيما فى « سولونيوم » حيث تتوافر فى البيوت الأماكن المعدة للنار ، فيجذب الدفء كثيرا من الثعابين .

أما عن رأيك فى أن العرافين قد تنبئوا لـ « روسكيوس » بمستقبل فى المجد لا يجارى ، فانه ليبدو غريبا علىّ أن يتنبأ الآلهة المخلدون بمجد لممثل (هزلى) ، ولا يتنبئون بذلك للأفريقى « سبيو » !

وقد جمعت قصصا عن نذر الزجر التى تتصل بفلامينيوس (٢). وقلت « إن حصانه قد كبا وسقط الى الأرض » . هذا أمر غريب ، أليس كذلك ؟ وقلت « إن عَلم الفرقة الأولى قد استعصى اقتلاعه » ، فربما كان حامل العلم قد مكن له حين غرسه ، فلما حاول اقتلاعه جذبه فى رفق ، ثم أية غرابة فى أن « فرس ديونيسيوس » قد نجا من الغرق ، أو أن نحلا كان على عرفه ؟ ومع هذا فقد اعتبر العرافون هذه الحادثة نذير سوء ، لأن « ديونيسيوس » قد تولى الحكم بعد ذلك بزمن وجيز ، الأمر الذى كان محض مصادفة .

وتقول : « إن الأسلحة قد صاتت فى معبد هرقل فى اسبرطه ، وأن الأبواب فى معبد هذا الإله فى طيبه ، انفتحت من تلقاء نفسها ، رغم أنها كانت محكمة الغلق بقضبان ، وأن التروس المعلقة على حوائط هذا المعبد قـد هوت إلى الأرض » (٣) . وإذا لم يكن فى الإمكان أن يحدث شىء من هذا بغير قوة

---

(١) قارن الفقرة الخامسة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن الفقرة الرابعة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن فى هذا وفى المثالين التاليين الفقرة الثالثة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب)

خارجية ، فلماذا تزعم أنها وقعت بتأثير فعل إلهى ، لا على سبيل المصادفة . ؟

٣٢ — « إنك تذكر ظهور تاج من الحشيش البرى على تمثال « ليزاندر » فى دلفى — وقد كان ظهوره فجائياً — فهل حقا ما يقولونه فى ذلك .. ؟ وهل تظن أن تاجا من الحشيش يظهر إلى الوجود قبل أن تتكون بذوره . ؟ إنى أعتقد — فوق هذا — أن هذا الحشيش قد نبت من بذور حملتها الطيور ولم تغرسها يد بشرية ، ثم إن الخيال يصور للانسان كل ما يعلو الرأس فى صورة تاج . وتقول : « إن النجوم الذهبية فى الوقت نفسه قد هوت فى معبد « كاستر » و « بولوكس » فى دلفى ، واختفت حتى لم يعثر عليها أحد » يخيل إلىّ أن الأحرى أن نقول إن هذا عمل لصوص وليس عمل آلهة ..! وإنه لما يثير دهشتى أن أرى مؤرخى الإغريق يسجلون ما قام به قرد « دودونا » من ألعاب مشئومة ، إذ أى شىء أقل غرابة ، من أن يقلب هذا الحيوان القبيح وعاء الأنصبة ويبعثر ما يحويه . ؟ ومع هذا فإن المؤرخين يعلنون أن ليس ثمة نذير وقع للاسبرطيين وكان أكثر من هذا إثارة للرعب . ؟

« ولقد تحدثت كذلك عن النبوءة التى أعلنها رجل من أهل « فيى »[1] وقال فيها : « إذا فاضت بحيرة « ألبانوس » وصبت فى البحر مياهها سقطت روما ، فإن عاقها عن ذلك عائق سقطت فيى » — حسن ، فقد حدث أن انسحب ماء البحيرة ، ولكن خنادق الرى هى التى سحبته ، ولم يكن هذا لإنقاذ « الكابيتول » أو تأمين روما ، بل كان لصالح الأرض المزرعة . وتعقب على هذا قائلا : « وبعد وقوع ذلك بأمد غير طويل ، سمع الناس صوتا يحذرهم ليتخذوا حيطتهم حتى لا تسقط روما فى يد الغاليين ، ولهذا أقاموا مذبحا على الطريق الجديد ، تقديراً لصاحب الصوت « آيوس المتكلم » ولكن لماذا هذا . . ؟ هل نطق هذا « الآيوس المتكلم » وتحدث قبل أن يعرف امرؤ من هو ، فخلع الناس عليه اسم « المتكلم » من أجل ذلك . ؟ ثم هل أدركه الصمت

(١) قارن الفقرة الثالثة والاربعين من الكتاب الاول (لويب) .

وأصابه الخرس بعدأن ظفر بنفوذ وأقيم له مذبح وأصاب شهرة بين الناس ؟ ويمكن أن يقال هذا نفسه عن « جونو » الناصحة (١) إذ أية نبوءة أعلنتها لنا إذا استثنينا نبوءة الخنزيرة الحبلى . ؟

د — مهاجمة التكهن باستنباء الطيور

٢٣— حسبنا هذا عن نذر الزجر ، ولنتحدث عن الفأل والطيرة والأنصبة ، وأقصد بالأنصبة تلك التي يجرى سحبها ، لا التي يعلنها الرءون ، والأصح أن نسميها « وحيا » ، وسأعرض للحديث عن الوحى إذا انتهيت إلى التكهن الطبيعي بالغيب ، ثم ينبغي مع هذا أن أناقش الكلدانيين ، ولكن فلنشرع فى الحديث عن استنباء الطيور :

١— استخفاف شيشرون بالعيافة مع الاشتغال بها :

تقول « إن مهاجمة التكهن باستنباء الطيور شيء عسير على رجل من أهل العيافة » أجل ربما صح هذا عن عياف مارسي ، ولكنه أمر سهل ميسور لعياف روماني ، لاننا معشر الكهان من الرومان ، لسنا من أولئك الذين ينبئون بالمستقبل بملاحظة الطيور وهى تحلق فى الجو ، ونحو ذلك من شواهد ، ومع هذا فإنى أسلم بأن «روميلوس» الذى شاد روما مسترشدا بهدى الطيور ، كان يعتقد بأن العيافة فن مفيد فى معرفة الأشياء التى تقع ، لأن القدماء كانوا يعتنقون كثيرا من الآراء الخاطئة حيال كثير من الموضوعات ، ولكن فن العيافة قد طرأ عليه الكثير من التطورات بفضل ما اهتدينا اليه من تجارب ، وما بلغناه فى ميادين العلم ، أو بمضى هذا الزمان المديد، ولكننا — تمشيا مع رأى الجماهير وحرصا على صالح الجمهورية — قد عملنا على تقوية تقاليد العيافة ونظمها وشعائرها الدينية وقوانينها ، كما رفعنا من شأن ديوان العيافة(٢) .

---

(١) قارن الفقرة الرابعة والاربعين من الكتاب الاول (لويب) .

(٢) كان شيشرون من أهل السياسة الممتازين فى عصره ، ومن شأن السياسة أن تطغى على ما لاصحابها من آراء خاصة ، فهو لا يعتقد فى وجود التكهن بالغيب فى مختلف صوره ، ولكنه كان يتظاهر بالاعتقاد فى صحته ، ويستغله فى تحقيق غايات كما يلوح من هذا النص . وقد أشرنا إلى هذا فى المقدمة وقارن الفقرة الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين من الكتاب الثانى أيضا .

أما القنصلان « بوبليوس كلوديوس » و « لوكيوس جونيوس » اللذان أبحرا على كره من زجر البارح من الطيور ، فقد كانا — فيما أرى — خليقين بما أصابهما من عقاب صارم ، إذ كان عليهما أن يحترما الديانة المرعية ، وما كان ينبغي أن يقفا من تقاليد أجدادهم هذا الموقف الذي يقوم على احتقار لا حياء فيه ، وإذن فقد كان عقاباً عادلا أن يقرر الشعب إدانة الأول ، وأن يجهز الثاني على حياته .

وتقول : «إن « فلامنيوس » قد أبى أن يستجيب لما قضت به الطيور ، فلقي حتفه مع جيشه » . ولكننا نعلم أن « باولوس » قد أصاخ للطير بعد ذلك بعام واحد ، فهل استطاع أن يحتفظ بجيشه أو يبقى على حياته فى معركة « كانى » ؟ فلنسلم بوجود السانح والبارح فى الفأل والطيرة — وذلك ما لا وجود له — فإن من المؤكد أن هذا الذى نستخدمه الآن — سواء أسخرنا فيه الكتاكيت أم اعتمدنا فيه على ملاحظة السموات — لا يعتبر فألا وزجراً بأى معنى من المعانى ، ولكنه مجرد طيف لهما(١) .

اجراءات الحكام فى معرفة الطالع

٣٤ — إنى ألتمس معونتك فى معرفة الطالع يا كونتوس فابيوس . فيجيب المساعد قائلا : « ها أنذا مستعد لمعونتك » كان الحكام فى عهد أجدادنا يستدعون فى مثل هذه المناسبات كاهناً بارعاً فى معرفة الطالع ، أما فى هذه الأيام فإن أى امرىء يصلح لهذا العمل ، مع أن من الضرورى أن يكون المرء بارعاً ماهراً حتى يعرف ما يلائم إجراء التنبؤ ، ونحن نقصد بهذا « خلو الظروف من كل ما يعرقل التنبؤ بالغيب » وتتوقف معرفة ذلك على خبير بفن العيافة ، فإذا قال الحاكم الذى يشرف على الطالع إلى مساعده :

(١) سيبدأ الآن شيشرون بشرح رأيه ، فيذكر تلك الصيغ الباطلة التى يستخدمها الحكام فى معرفة الطالع ميمونا كان أو شئوما — وهو يصور نفسه فى صورة الحاكم الذى يشرف على الطالع ، ويخاطب مساعده من أهل العيافة باسم « كونتوس فابيوس » وهو ليس اسما على مسمى معين معروف ، (وشبيه بهذا أن نسميه زيداً أو بكراً) (لويب) .

« نبئنى متى يبدو أمامك الجو ملائما » أجاب مساعده فى سرعة دون بحث أو تردد أو تلفت : « يلوح أنه ملائم » فيقول الحاكم : « نبئنى متى تشرع الكتاكيت فى أن تطعم » فيجيب هذا قائلا : « إنها تطعم الآن » .

ولكن ما هذه الطيور التى يتبادلان الحديث عنها ، وأين توجد . . ؟ يقال : « إنها دجاج ، وأنها توجد فى قفص ، وأن الشخص الذى أحضرها سمى بالدجاجى نسبة إلى عمله » .

أولئك إذن هم رسل « جوف » . ! فأى فرق هناك بين أن تطعم هذه الطيور أو تمسك عن الطعام . ؟ لا علاقة لشىء من هذا بالطالع إطلاقا ، ولكن الدجاج عند ما تطعم لا بد من أن تتساقط من فمها قطع من الطعام لا محالة ، فإذا سقطت ضربت بالأرض ، وإذن فعند ما تسقط كسرة صغيرة من الطعام من فم فرخة ، يعلن العياف للحاكم المشرف على الطالع ، أن كسرة الطعام قد مست الأرض[١] .

اضمحلال العيافة :

٣٥ — ثم كيف يمكن أن يكون إلهيا ذلك الطالع المصطنع ..؟ إن مثل هذه العادة التى لم يعرف أمرها بين عيافى العصور القديمة ، قد أيدتها سنة قديمة فى كليتنا (ديواننا) ، مؤداها « أن الطائر قد يكشف عن طالع حين تسقط من فمه كسرة الطعام عفوا ، فان من الممكن أن يوجد الطالع متى كان الطائر حراً فى أن يبين عن نفسه خارج قفصه ، فى مثل هذه الحال يمكن أن يسمى الطائر ترجمان « جوف » وتابعه[٢] أما الآن ، وهو داخل قفص مغلق يؤذيه الجوع ، فإنه إن أمسك شرِها بقطعة صغيرة من فضلات الطعام ، وسقط منها جزء من فمه ، اعتبروا هذا طالعاً ميموناً . . ! وهل تظن أن هذه الطريقة هى

---

(١) قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) وقد عرض المؤلف بعد هذا تطور اللفظ فى اللاتينية .

(٢) قارن هومير فى الأوديسا ج ١٥ ص ٥٢٥ (لويب) .

التى كان « روميلوس » يكشف الطالع عن طريقها ؟ وألست تظن أن المشرفين على الطالع كانوا قديماً يكشفون عن الطالع بملاحظة السموات ؟ أما الآن فانهم يستمدون أنباءه من دجاجى يتكفل بالإجابة على ما يطلبون (١)..!

إننا نقول إن البرق متى التمع يسرة كان فألا ميمونا فى كل حالة — إذا استثنينا حالة الانتخاب — ومن المحقق أن هذا الاستثناء كانت تبرره مناسبات سياسية، هى تمكين حكام الدولة من الإشراف على نظام التصويت ، سواء أكان هذا لإصدار أحكام فى قضايا جنائية أو لسن قوانين أو لانتخاب حكام .

ونقول إن القنصلين « فيجلوس » Figulus و « سيبيو » Scipio قد تنحيا عن وظيفتهما عند ما استند أهل العيافة إلى خطاب كتبه « تباريوس جراكوس » ، وقرروا أن هذين القنصلين لم يعينا تبعا لقانون العيافة (٢) . فمنذا الذى ينكر أن العيافة فن ؟ إن ما أنكره هو قيام التكهن بالغيب (٣) ولكنك تقول : « إن العرافين فى وسعهم أن يكشفوا عن الغيب المحجب » وتروى هذه الحادثة التى تقول بأن رئيس المائة الأولى فى الانتخاب كان يحمل نتيجة تصويت أعضائها إلى رئيس المجلس ، فمات فجأة وهو يحمل هذه الأصوات ، فاستند « تباريوس جراكوس » إلى هذا الحادث ، وقدم العرافين إلى مجلس الشيوخ ، فأعلنوا بأن الرئيس قد خالف قانون العيافة (٤) ولسنا نفهم من هذا — أولا — أن العرافين قد قصدوا بالرئيس رئيس المائة الأولى ،

(١) من الواضح أن شيشرون يسخر هنا من فكرة الدجاجى لا من المشرف على معرفة الطالع (لويب) .

(٢) قارن الفقرة السادسة عشرة فى الكتاب الأول (جارنييه) .

(٣) يراد بهذا فيما يلوح أن العيافة فن له قواعده ومبادئه ، ولكن هذا لا يمنع من إنكار صدق العيافة وغيرها من طرق التكهن .

(٤) وردت هذه الحادثة مسهبة فى شيشرون : « طبيعة الآلهة » ج ٢ فى الفصل الرابع ويراد بـ Prerogative Century فريق المائة الذى كان له حق التصويت فى الانتخاب أولا ، وقد كان له رئيس يقوم بجمع أصواته ، وكان يتألف المجلس من المنتخبين الذين حصلوا على أصوات الفرق المئوية ، وكان له رئيس أعلى جرت العادة بأن يكون القنصل الذى كان يتلقى تقارير رؤساء المئات التابعين له (لويب) .

إذ كانت المنية قد أدركت هذا الرئيس ، ولقد كان فى وسعهم — ثانيا — أن يهتدوا إلى ذلك بالحدس دون الاستعانة بالتنبؤ بالغيب ، أو ربما قالوا هذا على سبيل المثال — وليس من الحكمة أن نغفل عن أهمية الاتفاق فى مثل هذه الأحداث — إذ ما الذى يمكن العرافون من أهل أتروريا أن يهتدوا إلى معرفته — سواء ما اتصل بإقامة خيمة العرافة فى مكانها اللائق بها ، أم بملاحظة الترتيبات التى تتعلق بتخوم المدينة . . ؟ وأنا من جانبى أميل إلى الاتفاق مع « جايوس مارسيلوس » فى رأيه ، ولا أميل إلى تأييد الرأى الذى ذهب اليه « أبيوس كلوديوس » فأظن أن قانون العيافة وإن كان قد قام فى أول أمره على عقيدة فى التكهن بالغيب ، فإن الدوافع التى أدت إلى حفظه وصيانته بعد ذلك ، إنما ترجع إلى اعتبارات سياسية .

مهاجمة العيافة عند غير الرومان :

٣٦ — ولكننا سنتناول النقطة الأخيرة بالإسهاب فى أبحاث أخرى ، فلنغفل الآن الحديث عنها ، ولنمض إلى البحث فى فن العيافة كما تمارسه الأمم الأجنبية ، التى تستخدم طرقاً تغلب فيها الخرافة جانب الفن ، إنهم يستخدمون كافة أنواع الطيور على وجه التقريب ، أما نحن معاشر الرومان ، فاننا لا نستخدم إلا القليل منها ، والميمون من الشواهد عندهم قد لا يكون ميمونا فى عرفنا ، وقد كان الملك « ديوتاروس » كثيراً ما يستفسر منى عن النظام الذى نتبعه — نحن الرومان — فى فن العيافة ، وقد كنت أستفسر منه بدورى عن النظام الذى تتبعه أمته بصدد هذا الفن ، أيها الآلهة . ! كم تتباين طرق العيافة بين شعب وشعب . ؟ إنها لتختلف اختلافاً بيناً حتى ليحمل الشاهد عند شعب عكس المعنى الذى يحمله عند شعب آخر ، إنه كان على الدوام يستنبىء الطيور ليعرف السانح والبارح منها ، أما نحن فلا نستخدمها أبداً إلا حين تقضى إرادة الشعب باستخدامها ، وقد كان أسلافنا لا يقدمون على تنفيذ مشروع حربى دون أن يستنبؤا الطيور ليعرفوا فألها وزجرها ، أما

الآن فإن حروبنا يتولاها منذ سنين عديدة مساعدو القناصل ومساعدو الحكام الذين يلون القناصل فى المرتبة، وليس من حق هؤلاء أن يستنبئوا طيرا، بل ليس لديهم طائر يسخرونه فى معرفة الفأل، وهم يعبرون الأنهار دون أن يعرفوا الطالع فيما هم مقبلون عليه، فماذا آل إليه التنبؤ بالغيب عن طريق الطيور؟ إن الذين تولوا حروبنا لا يستخدمونه لأنهم لا يملكون الحق فى استنباء الطيور لمعرفة فألها وزجرها، وماداموا قد كفوا عن استخدامه فى أمر الحروب، فانى أظن أنهم يحتفظون به لاستخدامه فى شئون المدينة وحدها ..

التكهن بأدوات القتال :

أما عن التكهن بأدوات القتال[١] وهو ما كان فى الشئون الحربية إجمالا، فقد كان «ماركوس مارسيلوس» يجهل أمره جهلا قاطعا، وهو الذى شغل القنصلية خمس مرات، وكان فوق هذا قائداً أعلى للجيش، كما كان عرافا دقيقا. وكثيرا ما كان يقول إنه إذا شاء القيام بحركات عسكرية يخشى زجر الطيور فى أمرها، رحل فى محفة مغلقة[٢]. إن طريقته تتفق مع ما ننصح به نحن معاشر العيافين، حين نأمر برفع النير عن الحيوانين اللذين يجران المحراث لمنع الفأل المشئوم[٣]..! فماذا بقى للاله «جوف» ليزجر به محذرا، اللهم إلا أن يمنع من وقوع الطالع، أو يحول بين رؤياه إن وقع؟

(١) كان المفروض أن يكون هذا النوع من التكهن قائماً على الوميض الكهربائى الذى يبدو من رءوس الحراب والسيوف والمزاريق. قارن Seneca. Q.N.i.1, Pliny. H. N. ii. 37, Cic. N.D: ii. 3.9, Livy, XXii.1 Xliii.13 (لويب).

(٢) حتى لا يرى شاهداً زاجرا لا يتفق مع مقصده (لويب).

(٣) كان هذا يقع عندما يوضع النير على عنق زوج من الماشية، فيزبلان فى وقت واحد (لويب).

مناقشة استشهادات الرواقية :

٣٧ — « إن قصتك التي رويتها عن « ديوتاروس » (١) تبدو على تناقض بيّن : « إنه لم يأسف على طالعه الذى تكشف له وهو يهمّ باللحاق ببومبي ، ولقد أدى به هذا الطالع إلى أن يواصل طاعة الشعب الروماني ويفي بصداقته ، ويؤدي واجبه نحوه ، لأنه كان يحرص على سمعته وشرفه ، أكثر مما يحرص على حيازة الملك واقتناص الغنى » وإنى لأقول إن هذا لا يتصل بفأل الطيور وزجرها فى كثير أو قليل ، لأن الغراب لم ينبيء « ديوتاروس » بأنه كان على حق فى تولّى الدفاع عن حرية الشعب الروماني ، وقد كان ينبغي أن يعرف هذا بنفسه ، وفى الحق لقد اهتدى إلى معرفته ، فإن الطيور تنبيء بأن العاقبة ينتظر أن تكون ميمونة أو مشئومة ، أما عن رأيى فى هذا الصدد ، فهو أن « ديوتاروس » قد استنبأ طالع الفضيلة — لا طالع الطيور فى فألها وزجرها — والفضيلة إنما تقضى بألا تسعى إلى اقتناء الثروة إلا بعد أن تستكمل أداء الواجب ، وإذا كانت الطيور قد تكشفت لديوتاروس عن فأل ميمون ، فإنها تكون على وجه التأكيد قد خدعته ، فقد لاذ من المعركة مع « بومبي » فرارا — وهذا موقف له خطره ..! وانفصل عن « بومبي » — وهذا موقف يثير الأسف ، وسرعان ما رأى قيصر ، عدوه وضيفه معا — أي شيء أكثر من هذا مثارا للحزن ، وقد اغتصب منه قيصر وظيفته كحاكم على « تروكوموري » ، وخلعها على رجل خامل الذكر من أذنابه من أهل « برجاموس » ، وانتزع منه أرمينيا — وكانت هبة من مجلس الشيوخ — وتقبل من مضيفه أعظم إكرام ، ثم جرده من كل ما يملك ..! ولكنى بعدت عن الموضوع كثيرا ، وينبغي أن أعود إلى النقطة التى كنا على خلاف فى أمرها : إذا بحثنا هذا الموضوع من ناحية نتائجه — وهذا هو

---

(١) قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) .

الموضوع الذى تستشار الطيور فى أمره — وجدنا أن العاقبة لم تكن ميمونة لديوتاروس بأى معنى من المعانى، وإن بحثنا فيه من ناحية الواجب، لاحظنا أنه كان يلتمس فى هذا الشأن أنباء تتصل بضميره، ولا علاقة لها بفأل الطيور وزجرها.

٣٨ — دع الحديث عن عصا «روميلوس Romulus» فى فن العيافة (١)، تلك التى تقول عنها إن النار فى أشد أوارها، لم تقوَ على إحراقها، ولا تهتم بمسن «آتيوس نافيوس» إلا قليلا، فإن الأساطير لا ينبغى أن يكون لها مكان فى مجال الفلسفة، والأنسب لك كفيلسوف أن تبدأ بالبحث فى طبيعة التنبؤ بالغيب بوجه عام، ثم تعقب على هذا بالبحث فى أصله، ثم تنتهى بالكلام فيما فيه من توافق وعدم تناقض، فما هى إذن طبيعة فن يستمد نبوءاته من طيور تتجول على غير هدى هنا وهناك، ويجعل إقدام الناس على عمل أو إمساكهم عنه، رهنا بتغريد الطيور أو سبحها فى فضاء الجو..؟ ولماذا وهبت بعض الطيور قدرة تمكنها من إعطاء الفأل الميمون إذا طارت يسرة، بينما يعطى غيرها هذا الفأل إن تيامن فى طيرانه..؟ ثم كيف، ومتى، وإلى من نستطيع أن نعزو ابتكار هذا النظام.؟ من الحق أن نقول إن أهل أتروريا يرون أن واضع نظامهم هو ذلك الصبي الذى كشف عنه حرث الأرض، ولكن من الذى وضع هذا النظام عندنا — نحن معاشر الرومان..؟ — أهو «أتوس نافيوس»..؟ ولكن رميلوس وريموس — فيما تقول الأسطورة — كان كلاهما من أهل العيافة، وقد عاشا قبل ذلك بأعوام طوال، فهل نستطيع أن نقول إن البيسيديين والكيليكيين أو أهل فريجيا هم أصحاب الفضل فى ابتكاره.؟ إذن فهو أنت الذى رأيت أن أولئك الذين تجردوا

(١) قارن فى هذا وفى المقال التالى الفقرة السادسة عشرة من الكتاب الأول، وقد ناقش شيشرون الأمثال التى استعارها كونتوس من الأمم الأجنبية فى الفقرتين السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين، وسيشرع الآن فى مناقشة الأحداث الرومانية التى استشهد بها «كونتوس» (لويب).

عن كل علم إنسانى ، هم الذين قاموا بوضع علم إلهى[١] .

٣٩ — وتقول : « ولكن جميع الملوك وكافة الناس وسائر الشعوب يستنبئون الطيور لمعرفة الفأل والطيرة » ، كأنك لا تعرف أن ليس ثمة شىء أكثر عند الناس شيوعا من حاجتهم إلى التفكير ، أو كما لو كنت — أنت نفسك — عند ما ترى فى موضوع رأيا ، تقبل فى ذلك رأى طغام الناس ! كم من رجل تراه يقول بأن اللذة ليست خيراً . ؟ وسواد الناس يراها « الخير الأسمى بالفعل » ، فهل يتخلى الرواقيون عن رأيهم فى اللذة لأن الجمهور لا يدين به . ؟ أو تظن أن الجمهور ينقاد للرواقيين فى كثير جداً من الأمور . ؟ فأى عجب إذن إن سلم ضعاف العقول فى استنباء الطيور وفى سائر ضروب التكهن بالعادات الخرافية التى أسلفت ذكرها ، وأى بدع إذا أعوزتهم القدرة على تمييز وجه الحق فيها . ؟ ثم إنا لا نجد بين أهل العيافة توافقا فى الرأى ولا اتفاقا فى كل الحالات ، وقد قال « أنيوس » مشيراً إلى نظام الرومان فى فن العيافة [إن رعد جوف يلقى بالفأل الميمون يسرة من سماء صافية الأديم][٢].

ولكن « أجاكس »[٣] قد أصاب عند ما شكا فى « هومير » إلى « أشيل » من بعض الأعمال الوحشية التى قام بها أهل ترواده ، فقال على هذا النحو : [إن جوف يرعد يمنة منبئا بنجاحهم] .

ولهذا فإنا نعتبر الشواهد التى تقع يسرة ميمونة ، أما الإغريق والبرابرة فإنهم يعتبرون ما يقع منها يمنة ، ومع هذا فإنى أعلم أننا نطلق على الشواهد الميمونة : الشواهد اليسرى أو شواهد اليد اليسرى ، حتى ولو جرت على

---

(١) فى النص اللاتينى يستخدم شيشرون divimatas مكان divinatis ليصور التبان بين humenitas وليقوى أثر التهكم فى نفس القارىء (لويب) .

(٢) مقتبسة من : Annales, II.5. (لويب) وانظر الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الثانى هذا .

(٣) قارن الألياذة ج ٩ ص ٢٣٦ ، وقد خدعت شيشرون ذاكرته مرة أخرى ، فان الاشارة هنا لابد أن تكون لفوليسس لا لأجاكس (لويب ودعاريه) .

جانبنا الأيمن(١) . وما من شك فى أن أسلافنا قد تأثروا فى اختيارهم للجانب الأيسر ، كما تأثرت الشعوب الأجنبية فى اختيارها للجانب الأيمن ، بتجاربهم ودلالتها على أى الجانبين كان أكثر يمنا فى معظم الحالات . ولـكن ما هذا الجدل . ! إن النظر فى الخلافات القائمة بين الشعوب فى إجاباتها ، والطريقة التى تجرى بها مشاهداتها ، وضروب الطيور التى تسخرها ، والشواهد التى يستخدمها كل منها ، لا يجعلنى فى حاجة إلى أن أؤكد بأن التكهن بالغيب ، ليس إلا مزيجا من قليل من الأخطاء والخرافات ، يقترن بكثير جداً من وجوه الخداع .

٤٠ — وقد عزوت الطيرة والفأل بالفعل إلى هذه الأساطير ، فمن ذلك أنك قلت : « إن « أيميليا » قد أنبأت « باولوس » بأن « بيرزاس » قد أدركتها المنية ، وأن أباها قد اعتبر هذا زجراً(٢) . وذكرت أن « كيكيليا » قالت إنها تخلت عن مقعدها لابنة أختها ، ومضيت فى الحديث عن الجو الملائم للتنبؤ(٣) ، وتكلمت عن المائة الأولى أو طيرة الانتخاب . فى الحق أنى أجد فى هذا براعة وفصاحة تجاوزت الحد حتى انقلبت ضد صاحبها ، إذ هل تستطيع وأنت منصرف إلى وحيك هذا أن تكون من الحرية وطمأنينة العقل ، بحيث تسير بهدى منطقك ، ولا تستمد الرشاد من الخرافات . . ؟ ثم إذا نطق امرؤ بكلمة يبدو لك أنها على اتصال طفيف بما تقوم بعمله أو بما يجرى على لسانك ، فهل تعتقد حقا أن مثل هذه الحادثة تثير فى نفسك خوفا أو مرحا . ؟

---

(١) كان عيافو الرومان إذا أرادوا استنباء الطيور ولوا وجوههم شطر الجنوب ، أما الأغريق فقد كانوا يولون وجوههم شطر الشمال ، وعلى هذا فقد كان يسار الرقيب الرومانى هو يمين اليونانى ، ولـكن بعض شواهد اليد اليمنى كان ميمونا عند الرومان ، ومن أمثلة هذا نعيق الغراب (لويب) وانظر آخر الفقرة الثامنة عشرة من الـكتاب الثانى .

(٢) قارن الفقرة الخامسة والأربعين من الـكتاب الأول (لويب) ويلاحظ أن اسمها كان فى تلك الفقرة « تيرتيا » .

(٣) قارن فى هذا وفى المثال التالى الفقرة الخامسة والأربعين من الـكتاب الأول (لويب) .

عند ما كان « ماركوس كراكوس » يودع جيشه فى « برنديزيوم »[١] ، صاح فى الميناء بائع تين مكرراً صياحه باسم نوع من التين ينذر بالشر رنين اسمه[٢] . . ! لتعتبر هذه إن شئت نذيراً زاجراً يحذر كراكوس قائلا : « حذار من الذهاب » وأنه لو أطاع هذا النذير الزاجر ما هلك ، ولكن إذا سلمنا بالألفاظ التى تجرى على ألسنة الناس عفواً واتفاقا باعتبارها طيرة وزجراً ، لكان الأدنى إلى الصواب أن نعطى بالنا لما يصيبنا حين نكبو أو نقطع رباط حذائنا أو عند ما نعطس ! . .

هـ — مهاجمة التكهن بالأنصبة

٤١ — بقى علينا أن نناقش الأنصبة ونجامة أهل الكلدان ، قبل أن نصل إلى نبوءات الجنة والأحلام ، وهل تظن أنا محتاجون إلى الكلام عن الأنصبة ؟ إنها قريبة الشبه بلعب النرد أو عظام مفصل الأصابع ، فإن الغلبة تكون للمجازفة والحظ ، أكثر مما تكون للروية والحكم السديد ، فمنهاج التكهن عن طريق الأنصبة منهاج زائف ، قد ابتدعه أهله لغير ما غاية ، إلا مجرد التكسب والارتزاق ، أو ليكون أداة لتشجيع الخرافة وشيوع الأخطاء ، ولكن من الخير لنا أن نلتزم الطريقة التى اتبعناها فى مناقشة العرافة ، فنبحث فى الأصل الذى جرى الناس منذ القدم على أن يردوا إليه أمر هذه الأنصبة التى ذاعت ذيوعاً واسع المدى .

---

(١) عندما هم بالرحيل فى تجريدته العسكرية المشئومة التى أرسلها لقتال البارثيين (لويب)

(٢) مثل :"Cannian figs" ولكن من الممكن أن تسمعها الأذن كأنها : Cavene eas أى حذار أن تذهب — وقد كانت هذه الوحدة بين الكلمة وصداها موضوع مناقشة شائقة فى علم الأصوات اللاتينى . قارن : .Moser, Div. ad loc (لويب) وقد ترجمها ديماريه فى نسخته الفرنسية à vendre أى للبيع ووجه الشبه فيما أشار فى تعليقاته يكون مع à attendre أى ينبغى الانتظار ، وترجمتها طبعة جارنييه كما هى وقد فطن بعض مفكرى الاسلام إلى ما فطن اليه شيشرون (انظر فى كتابنا التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام ص ١١٤ — ١١٥ و ١٥٩ — ١٦٠ طبعه أولى) .

نشأة الاعتقاد فى الأنصبة :

نرى فى حوليات « برينسته » Praeneste أن « نوميريوس سوفستيوس » Numerius Soffustius — وقد كان رجلا ممتازاً انحدر عن أصل شريف — قد نبهته النذر فى أحلام تكرر وقوعها ، واصطحبت آخر الأمر بالوعيد ابتغاء أن يشق صخرة من الصوان كانت ملقاة فى مكان بعينه ، وقد أدركه الروع من نذر هذه الرؤى ووعيدها ، فاستجاب لها ومضى إلى تحقيق ما بها على مرأى من مواطنيه الذين كانوا يسخرون منه ، فلما حطم الصخرة تراءت له الأنصبة منقوشة على سنديان بحروف قديمة ، ولا يزال المكان الذى وجدت فيه الصخرة باقيا يتولى الناس حراسته إلى يومنا الحاضر ، متأثرين بشعورهم الدينى نحوه ، وهو لا يبعد كثيراً عن تمثال الطفل « جوبتر » الذى يتمثل جالساً مع « جونو » فى حضن إلهة الحظ[١] مقتربا من ثديها ، ويولى الأمهات هذا المكان أبلغ احترام .

وثمة أثر متواتر يقول إن فى نفس الوقت الذى وجدت فيه الأنصبة ، وفى المكان الذى يقوم الآن فيه تمثال إلهة الحظ ، قد فاض العسل من شجرة زيتون ، فأمر العرافون — الذين تنبؤا بما ينتظر هذه الأنصبة من ذيوع الصيت الذى لن يجارى — بأن يصنع من الشجرة صندوق توضع فيه الأنصبة ، وفى الوقت الحاضر تسحب الأنصبة من وعائها إذا هيمنت إلهة

---

(١) La Fortune إلهة عند الرومان واليونان ، تتعدد صفاتها كإلهة يونانية ، وتمثل القدر بدقة فى يدها ، وتقف على عجلة تمثل المصادفة ، وفى يمناها قرن الخيرات ، وعندئذ تكون رمزا لليسر والرخاء ، وأما عند الرومان فقد كانت تمثل صلعاء من الخلف ، وعمياء وذات أجنحة ، وتضع إحدى رجليها على عجلة تتحرك ، وكانوا يحتفلون بتكريمها فى اليوم الرابع والعشرين من يونيو ، فيتوج البحارة سفنهم بالأزهار ، وكان لها ستة وعشرون معبدا فى روما — أما عند اليونان فكان لها ثمانية معابد — فيما يقول معجم باشيليه وديزوبرى وهى عند شيشرون أم أو مرضعة جوبتر وجونو ، ويقول البعض إنها ابنة جوبتر الكبرى إلى آخر مايرويه مترجم چارنييه كذلك .

الحظ[١] ، فخبرنى كيف يمكن أن تثق فى هذه الأنصبة التى تقوم بمزجها وسحبها يد طفل عند انحناءة من تمثال إلهة الحظ ! وكيف عثروا على هذه الصخرة ؟ ومن الذى قام بقطع شجرة السنديان ؟ ومن صاغ هذه الأنصبة ونقشها بالحروف ؟ يا للعجب ! إن بعض الناس (الرواقيين) يقولون : « إن الله على كل شيء قدير » فاذا كان الأمر كذلك ، فانى أتمنى لو أن الله قد وهب الرواقيين حكمة تبرىء تفكيرهم من الخرافة ، حتى لا يكونوا مثاراً للشفقة والرثاء معا ، وتنتزع منهم الميل إلى الاعتقاد فى كل شيء يسمعونه ..! . على أن هذا النوع من التكهن قد تخلى عنه الناس منذ اليوم ، فان جمال المعبد وقدمه لا يزالان يحفظان الشهرة التى كانت لأنصبة « برينسته » وهذا هو المعروف عند طغام الناس ، إذ أن هذه الأنصبة لا يستنبئها حاكم ولا فرد ذو حيثية ، ولا تستخدم ألبتة فى مكان ما ، وهذا يفسر لنا الكلمة التى يقول . « كليتوماكوس » إن « كارينياوس » كان يقولها دائما ، وهى أنه لم ير فى أى مكان إلهة للحظ أوفر حظا من إلهة الحظ فى « برينسته »[٢] والآن حسبنا هذا عن ذلك الضرب من التكهن بالغيب .

و — مهاجمة علم أحكام النجوم

موقف خصوص من الفلاسفة

٤٢ — ولنمض إلى مناقشة الكلدانيين : إن « يودكسوس » تلميذ أفلاطون وخير أهل النجامة فى عصره — فيما يرى خيرة العلماء[٣] — قد خلف لنا الرأى التالى مكتوبا :

« لا ينبغى أن نولى أهل التنجيم من الكلدانيين أى نوع من الثقة ، عندما

---

(١) إذا كان تمثال الالهة منحنى الرأس أو مبديا إشارة أخرى (لويب) .

(٢) فمن ذلك أن شهرة الأنصبة فى « برينسته » بقيت أطول مما بقى غيرها فى أى مكان آخر (لويب) .

(٣) أحد كبار الرياضيين وعلماء الهيئة القدامى ، وقد عاش من ٤٠٨ تقريبا إلى ٣٥٥ ق . م (جارنييه) .

يدعون بأنهم يتنبؤن بمستقبل الإنسان من موقع النجوم فى يوم ميلاده ، ونلاحظ أن « بانياتيوس » كذلك — وقد كان الرواقى الوحيد الذى أبى التسليم بنبوءات أهل النجامة(١) يذكر « أنكيالوس» — Anchialus و « كساندر» Cassander باعتبارهما أعظم علماء الهيئة فى عصره ، ويقرر أنهما لم يستخدما فنهما أداة للتكهن بالغيب ، رغم أنهما كانا ممتازين فى سائر فروع علم الهيئة . كما أن « سكيلاكس » من أهل « هاليكارناسوس» Hallicarnassus وهو صديق « بانياتيوس » الحميم وأحدعلماء الهيئة الممتازين ، بالإضافة إلى أنه كان يتولى رياسة الحكومة فى مدينته ، قد رفض رفضا جازما طريقة الكلدانيين فى التنبؤ بالمستقبل .

ولكن فلندع جانبا أقوال أولئك الذين نستشهد بهم ، ولنعتمد على منطقنا فى البحث : إن أولئك الذين يتولون الدفاع عن نبوءات يوم الميلاد عند الكلدانيين ، يقولون فى بيان رأيهم :

أصل التنجيم ومناقشته :

إن فى زنار النجوم (٢) الذى يسميه الإغريق بمنطقة البروج ، تكمن قوة معينة من طبيعتها أن كل جزء فى هذا الزنار يحدث فى السموات تغييرات بطريقة تختلف باختلاف موقع النجوم فى إحدى المناطق أو على كثب منها فى وقت معين ، وهذه القوة يتفاوت تأثرها بهذه النجوم التى نسميها شهبا أو كواكب سيارة ، فاذا دخلت هذه الكواكب منطقة زنار النجوم فى وقت اتفق فيه مولد إنسان ما ، أو دخلت منطقة أخرى تتصل بها بعض الاتصال ،

---

(١) كلمة Astrologus تقابل دارس النجوم ، ومن الممكن أن تقال ويراد بها الباحث فى علم الهيئة أو العالم بالتنجيم (أى بأحكام النجوم) (لويب) قارن مايقوله الأستاذ نللينو فى كتابنا « التنبؤ بالغيب » فصل « علم أحكام النجوم » ص ١١٦ وما بعدها .

(٢) يراد به فى الفلك الخطوط المزدانة بالنجوم ، وهى تشبه مناطق تحيط بالمشترى وتوازى خطه الاستوائى .

أو تتفق مع منطقة يوم الميلاد ، فانها تكوّن ما نسميه مثلثا أو مربعا[١] . وما دمنا نرى الاختلاف البين والتغير الواضح فى فصول السنة وفى درجة الحرارة باقتراب النجوم أو بعدها ، وما دمنا نرى بعيوننا أثر الشمس فى إحداث مثل هذه النتائج ، فان الكلدانيين يعتقدون — بناء على هذا — أن ليس من المحتمل فحسب ، بل من المحقق أن حرارة الجو مادامت تنظمها هذه القوة السماوية ، فان الأطفال عند ولادتهم لا بد أن تتأثر بها نفوسهم وأبدانهم ، وأن تتحدد بهذه القوة عقولهم وأخلاقهم وميولهم وحالتهم الجسمانية ومستقبلهم فى الحياة ونصيبهم فى الدنيا .

٤٣ — إن هذا جنون خارج عن نطاق التصور ..! فليس يكفى أن تسمى الرأى « حماقة » متى وجدته مجردا عن كل منطق ، ولكن « ديوجانس » الرواقى يسلم ببعض آراء الكلدانيين فيقول إنهم أوتوا القدرة على التنبؤ إلى الحد الذى يمكنهم من التكهن بميول طفل ، ومعرفة خير الحرف التى تلائم استعداده ، ثم ينكر بعد هذا إنكارا مطلقا سائر ادعاءاتهم فى قوى التنبؤ ، فمن ذلك أنه يقول إن التوائم يتشابهون فى المظهر ، ولكنهم يختلفون عادة فى مجرى الحياة ، وفى الحظ الذى يصادفونه . وقد كان « پروكلز » و« يوريستانس» اللذان توليا حكم الاسبرطيين توأمين ، ولكن نصيبهما من العمر لم يكن واحداً ، لأن حياة الأول كانت أقصر عاما من حياة أخيه ، وكانت أعماله أعظم جلالا[٢] . بل إنى أرى أن صديقنا الفاضل « ديوجانس » باتفاقه مع الكلدانيين ، قد تآمر مع خصومه[٣] ، فوق أن رأيه لا يستقيم مع العقل ، لأن الكلدانيين يقررون أنهم يعتقدون بأن نصيب المرء فى الحياة يتأثر بحالة القمر وقت ميلاده ، ولهذا

---

(١) انظر فى : Moser, Div. ad. loc. هامشا على « المثلث » و « المربع » — قارن : Se xt. Empir. Adv.mathen.V. 39. (لويب) وقد فحص ذلك مترجم طبعة جارنييه .

(٢) يمكن لاشياع الفكرة أن يدفعوا رأى شيشرون فى هذا المقال زاعمين أن التوأمين يولدان متعاقبين لا فى لحظة واحدة .

(٣) Praevaricatis تستعمل فى وصف المحامى الذى يتآمر مع خصوم موكله (لويب) .

فهم يسجلون مايرونه من مشاهدات على النجوم التى تبدو على اتصال بالقمر يوم الميلاد ، ومن ثم يعتمدون فى تكوين أحكامهم على حاسة البصر ، وهى أقل الحواس موضعا للثقة ، بينما ينبغى أن يستندوا إلى العقل والمنطق ، لأن علم الرياضيات الذى كان ينبغى أن يلم به الكلدانيون ، يرينا كيف يقترب القمر من الأرض ، وكيف يوشك أن يمسها فى واقع الأمر ، وكيف يبتعد عن سيار عطارد — وهو أقرب النجوم — وكم يكون بعيداً مع هذا من الزهرة ، وأية مسافة شاسعة تفصله عن الشمس التى يستمد منها الضوء — فيما هو مفروض — أما المسافات الثلاث الباقية فإن تقديرها فوق الحصر وهى : من الشمس إلى المريخ ، ومن المريخ إلى جوبتر ، ومن جوبتر إلى زحل ، ثم هناك المسافة التى تقوم بين زحل وأطراف السماء — وهى مسافة لا نهاية لها — فاذا نظرنا إلى هذه المسافات التى تكاد تخرج عن التحديد ، أى تأثير يمكن أن يتهيأ للكواكب السيارة على القمر أو بالأحرى على الأرض ؟

٤٤ — وكذلك عند ما يقول الكلدانيون — وهم مضطرون إلى هذا القول — إن جميع الذين ولدوا فى يوم واحد فى أى مكان فوق ظهر الأرض المعمورة تحت نجم واحد ، لا بد أن يتشابهوا وأن تتفق حظوظهم فى الحياة ، فأليس من البين أن هؤلاء الذين يتعرضون لتأويل السماء ، هم ممن يجهلون طبيعة السماء جهلا فاضحاً ؟ لأن الأرض مقسمة الآن ، وكما كانت فى الماضى مناصفة ، وآراؤنا محدودة بهذه الدوائر التى يسميها الاغريق . والتى تسميها بكل دقة آفاقاً ، وهذه الآفاق تتغير بغير حد تبعا لموقع المشاهد ، إلا أن شروق النجم وغروبه لا يقع بالضرورة فى وقت واحد لجميع الناس ، ولكن إذا اختلفت قوة النجم التى تؤثر فى السموات من حين إلى حين ، فكيف يكون من الممكن لهذه القوة أن تؤثر بطريقة واحدة فى جميع الأفراد الذين ولدوا فى وقت واحد ، مادامت السموات التى ولدوا تحتها تختلف اختلافا بينا ؟ وتظهر أن النجمة الشعرية فى الواقع فى هذه المناطق التى نعيش.

فى رحابها بعد بدء الصيف (الذى يقع فى ٢٢ يونيه) بأيام عديدة ، ولكنها فيما نعلم تغرب عن سكان الكهوف[1] قبل بدء الصيف . ولكن إذا كان لابد من التسليم الآن بأن تأثيرا نجميا ما ، يقع على الأفراد الذين ولدوا على ظهر الأرض ، فان من الواجب أن نقول بأن جميع الذين ولدوا فى وقت واحد ، قد تتباين طبائعهم وتختلف باختلاف مشاهدات المنجمين للسموات فى يوم الميلاد ، ومن المحقق أن هذه النتيجة لا ترضى أهل النجامة ، لأنهم يصرون على القول بأن كافة من ولدوا فى وقت واحد ، يصادفون — بصرف النظر عن مكان ولادتهم — حظا واحداً .

٤٥ — ولكن أية حماقة يبديها أولئك المنجمون حين يبحثون نتيجة ما يحدث فى السموات من حركات واسعة النطاق ، وتغيرات عظيمة الأثر ، ويدعون بأن الرياح والمناخ والأمطار فى شتى البقاع لا أثر لها عند الميلاد؟ إن هذه الأحوال فى البلاد المتجاورة تختلف من هذه الناحية اختلافا بينا ، حتى أننا كثيراً ما تقع لنا حالة من المناخ فى « توسكولوم » بينما يكون المناخ فى روما على حال أخرى ، وهذا أمر معروف ، ولا سيما عند البحارة الذين يرون ما يطرأ على المناخ من تغير شديد عند ما يدورون بسفنهم حول الرءوس البارزة من اليابسة فى البحر ، وإذن فهل يجدر برجل عاقل أن يستند إلى صفاء السموات حينا واضطرابها حينا آخر ، ويقول إن هذا التغير لا أثر له فى مولد الناس — ومن المحقق أنه معدوم التأثير — ثم يعود فيزعم أن هناك تأثيراً مرجعه إلى قوة خفية لا يدركها المرء بحسه ، بل لا يكاد يتصور أمرها ، وهى ترجع إلى حالة السماء ، تلك الحالة التى تردّ بدورها إلى عمل القمر وأثر النجوم .

ثم أليس من الخطأ الفادح فى الرأى أن يعجز الكلدانيون عن معرفة الأثر الذى تخلفه فى الأبناء نطفة الآباء — وهى عنصر جوهرى فى تكوين

(١) Troglodytes هم سكان الكهوف ، ويقول دعاريه إنهم شعب إفريقى يعيش على كثب من اثيوبيا ويسكن أفراده المغاور .

الذرية ؟ فان من المحقق أن ليس بين الناس من يفوته أن يعرف أن الأطفال يأخذون عن آبائهم ملامحهم وعاداتهم، ويستمدون منهم بوجه عام سلوكهم وحركاتهم ، وما كان هذا يحدث لو أن خصائص الأطفال لا تحددها قوة الوراثة الطبيعية ، بل تهيمن على تحديدها وجوه القمر وحالة السماء ، وكذلك يقال فى أن الأفراد الذين ولدوا فى لحظة واحدة لا يتشابهون فى الأخلاق ولا فى المستقبل ولا فى الحظ الذى ينتظرهم ، وهذه الحقيقة تجعل من البين الواضح أن وقت الولادة لا علاقة له بتحديد مجرى الحياة ، إلا إذا كان من الممكن أن نضطر إلى الاعتقاد بأن ليس ثمة أحد من الناس قد تكوّن فى الرحم جنينا ثم ولد فى نفس الوقت الذى تكوّن وولد فيه « سيبيو » الإفريقى ، إذ هل ثمة إنسان يشبهه ؟ .

٤٦ — ثم من هذا الذى يجهل أو يساوره الشك فى أن كثيراً من الناس الذين ولدوا مصابين بعاهات طبيعية ، قد برئوا منها تمام البرء ، بفعل الطبيعة نفسها حين غيرت مجراها بمبضع الجراح أو بدواء الطبيب ؟ . فمن ذلك أن الذين انعقدت ألسنتهم إلى حد أنهم كانوا لا يقوون على النطق ، قد عادت إليهم طلاقة اللسان بعد أن أعمل فيهم الجراح مبضعه ، وكثيرون غيرهم قد أصلحوا عاهة طبيعية بالمران الحاذق ، وإن فى « ديموستين » لشاهد عدل على ما أقول ، فقد كان فيما يصفه « فاليريوس » لا يقوى على نطق الحرف اليونانى Bho ولكنه تعلم بالجهد المتواصل كيف يلفظه واضحا مفصلا ، فاذا كانت هذه العاهات قد نشأت وتأصلت فى صاحبها بوساطة نجم فى السماء ، فليس من شىء يقوى على تغييرها . وأليست تنتج البلاد التى لا مشابه بينها ناسا مختلفين ؟ . إنه لمن اليسير أن نحدد فى سرعة تلك الفروق العقلية والجسمانية التى تميز الهنود من الفرس وأهل أتيوبيا من سكان سوريا ، إنها فروق بالغة الغرابة والوضوح إلى حد أن العقل لا يقبل التسليم بها ، ولكن من البين أن مولد المرء يتأثر بالبيئة المحلية أكثر مما يتأثر بحالة القمر .

ومن المحقق أن ليس صحيحا ما اقتبسته عن البابليين من أنهم لاحظوا منذ سبعين وأربعمائة ألف عام[١]، ميلاد كل طفل وظروفه التنجيمية، ليتنبئوا بأحداث حياته، وأنهم حققوا هذا بما هدتهم إليه نتائج تجاربهم، إذ لو شاعت عندهم هذه العادة لما هجروها، وهذا بالإضافة إلى أنا لا نكاد نجد كاتبا يزعم أن هذه العادة قائمة عندهم، أو يعرف أنها كانت قائمة بينهم.

٤٧ — إنك تلاحظ أني لم أكرر أدلة «كارنيادس»، ولكني أعدت الاستشهاد بالحجج التي أدلى بها «بانياتيوس» زعيم المدرسة الرواقية، أما الآن فاني أشرع في توجيه الأسئلة التالية التي لم يسبقني اليها أحد: هل ولد جميع الرومان الذين سقطوا في معركة «كاني» في ظروف تنجيمية واحدة؟ ومع هذا فقد لقي الجميع مصيرا واحدا! وهل تظن أن الذين يمتازون بالذكاء والعبقرية، قد ولدوا جميعا في ظروف تنجيمية واحدة؟ وهل ثمة يوم لم يشهد ميلاد ناس لا يحصيهم العد؟ ومع ذلك فإننا لا نصادف «هومير» آخر. ثم إذا كان المهم عندنا أن نعرف تحت أي منظر من مناظر السماء أو مجموعة من نجومها قد ولد كل كائن حي، فإن الظروف نفسها لا بد أن تؤثر في غير الحي من الكائنات كذلك..! فهل صادفك رأي أثار من سخريتك بقدر ما يثير هذا الرأي؟ وإذا صح أن صديقنا الطيب «لوكيوس تارونيوس» من أهل «فيروم» ذلك الذي استوعب علوم الكلدانيين، قد افترض في حسابه أن مولد روما قد وافق عيد «بالس»[٢] — وهو اليوم الذي شاد فيه «روميلوس» مدينته فيما تقول الأسطورة — وأسرف في افتراضه استنادا إلى هذا حتى زعم أن روما قد نشأت عندما كان القمر في برج الميزان، ولم يتردد — اعتمادا على هذا — في التنبؤ بالحظ الذي ينتظر أن يصادف هذه المدينة، فأي هذيان عجيب هذا الذي يقوله..! وهل خضع اليوم الذي نشأت فيه روما لتأثير

(١) قارن الفقرة الثامنة عشرة من الكتاب الأول (لويب).

(٢) كان يحتفل به في الحادي والعشرين من أبريل، وقد كان «بالس» Pales الإله الذي يرعى الرعاة (لويب).

القمر والنجوم . ؟ فلنفرض — إن شئت — أن المهم فى حالة الطفل أن نعرف تحت أى نظام للأجسام السماوية قد تنفس أول نسمة ، فهل ينشأ عن هذا أن النجوم يمكن أن تكون ذات تأثير على الآجر والملاط الذى شيدت المدينة به ؟ ولكن ما الذى يدعونا إلى الإسهاب فى الطعن فى نظرية تتكفل تجاربنا كل يوم بدحضها . ؟ إنى لأذكر الكثير من النبوءات التى قالها الكلدانيون لبومبي وكراسوس ، وحتى لقيصر نفسه — الذى مات أخيرا — وقد تنبئوا فيها بأن هؤلاء لن يستوفوا أنفاسهم إلا متى كبرت بهم السن ، فيموتون فى رحاب بيوتهم ، بعد أن يصيبوا مجدا مخلدا ، وإنه لما يثير الدهشة فى نفسى ، أن أرى فردا ما — ولا سيما فى هذا العصر — يثق فى أولئك الذين تتكفل نتائج تجاربنا اليومية بدحض تكهناتهم .

مهاجمة التكهن الطبيعى :

٤٨ — بقى علينا بعد هذا أن نبحث فى ضربين من ضروب التكهن بالغيب ، وقد أسلفنا القول بأنهما يصدران عن الطبيعة ، ولا تؤدى إليهما طرق صنعية ، وهذان الصنفان هما النبوءات إبان المس ، والرؤيا — أثناء النوم — فلنعرض لبحثهما يا عزيزى كونتوس — إن كان يروقك الحديث فيهما :

أؤكد لك أنى مغتبط لأنى أؤيد كل التأييد تلك الآراء التى أوضحتها كل هذا الإيضاح ، وإذا شئت الصراحة ، فإن كل ما كان لآرائك من أثر هو أنها قوّت من الرأى الذى كنت أعتنقه من قبل ، لأن محاجتى لك قد أقنعتنى بأن رأى الرواقيين فى التنبؤ بالغيب ، تحتويه الخرافة ويستوعبه الوهم ، وقد أثرت فى نفسى أبلغ التأثير استدلالات المشائين ، و « دكياركوس » فى العصور القديمة ثم « كراتيبوس » الذى لا يزال على قيد الحياة[1] ، فهم يقولون

(١) كان « كراتيبوس » أثناء هذه المحاورة (عام ٤٥ ق . م) يحاضر فى أثينا ، وكان من بين تلامذته ماركوس — الابن الوحيد لماركوس شيشرون (لويب) .

إن فى باطن النفس الإنسانية تكمن قوة من نوع ما — وقد أعزوها إلى الوحى — بها تتمكن النفس من أن تكشف المستقبل المحجب ، متى ألهمها مس إلهى ، أو تجردت بالنوم من علائق البدن ، فأضحت حرة تتحرك متى شاءت ، إنى لشديد الرغبة فى أن أعرف رأيك فى هذين الضربين من التكهن الطبيعى بالغيب ، كما أنى تواق لأن أعرف الأدلة التى تستغلها فى دحضها معا .

٤٩ — وبعد هذا الذى أسلفه « كوتتوس » استأنف الحديث قائلا :

إنى أعلم علم اليقين يا عزيزى « كوتتوس » أنك تتردد على الدوام فى التسليم بكافة ضروب التكهن — الصنعى — ولكنك تميل إلى تأييد الضربين اللذين أسلفت الآن ذكرهما : وهما التكهن فى حال الجنة (المس) والتنبؤ أثناء النوم — والمظنون أن كليهما يصدر عن نفس تجردت من قيودها — وإذن فدعنى أبين لك عن رأيى فى هذين الضربين من التكهن ، ولكن فلنبدأ بمناقشة هذا القياس[1] الذى ذكره الرواقيون ، ونادى به صديقنا « كراتيبوس » لنرى مبلغ ما فيه من حق ، إنك أسلفت قياس « كراتيبوس » Cratippus و « ديوجانس » و « أنتيباتر »[2] على هذا النحو :

مذهب الرواقية فى صلة التنبؤ بالآلهة :

« إذا استقام وجود الآلهة من غير أن يكشفوا للانسان عن المستقبل المحجب ، كان هذا دليلا ينهض على أنهم لا يحبون بنى البشر ، أو أنهم هم أنفسهم لا يعرفون ماذا يخفى المستقبل المغيب عنا ، أو أنهم يظنون أن ليس للانسان مصلحة فى معرفة ما ينطوى عليه عالم الغيب ، أو أنهم يظنون أن هذه النذر التى يرسلونها إلى الانسان عن المستقبل ، أمر لا يتفق مع كرامة الآلهة ، أو أنهم — أخيراً — وإن كانوا آلهة فانهم لا يستطيعون أن يقدموا شواهد

---

(١) قارن الفقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) من قادة المدرسة الرواقية ، والمدافعين عن التكهن بالغيب ، قارن الفقرة الثالثة وأما الاستدلالات التالية فقد وردت فى الفقرة السابعة والثلاثين من الكتاب الأول .

معقولة على الحوادث المقبلة ، ولكن ليس صحيحا أن الآلهة لا تحبنا ، لأنهم أصدقاء الجنس الإنسانى ، والمنعمون عليه ، وليس صحيحا أنهم يجهلون ما أصدروا من أوامر وما رسموا من خطط — بشأن المستقبل — وليس صحيحا أن ليس لنا مصلحة فى معرفة ما ينتظر أن يقع لنا ، ما دام العلم يمكننا من اتخاذ الحيطة له ، وليس صحيحا أن الآلهة يظنون أن الكشف عن النذر السابقة لما ينطوى عليه المستقبل ، أمر لا يتفق مع كرامتهم ، إذ ليس ثمة سجية أفضل من أداء الخير للانسانية ، وليس صحيحا أنهم لم يؤتوا القدرة على معرفة المستقبل المغيب عنا ، وإذن فليس صحيحا أن هناك آلهة ، ورغم وجودهم فانهم لا يكشفون للانسان عن شواهد تنبىء عن المستقبل ، ولكن هناك آلهة ، فهم إذن يقدمون مثل هذه الشواهد ، وما داموا يقدمونها فليس صحيحا أن يضنوا علينا بطرق فهمها ، وإلا كانت شواهدهم عديمة المنفعة ، وإذا هم أرشدونا إلى طريق فهمها ، فان إنكار وجود التكهن لا يستقيم ، وإذن فالتكهن قائم موجود » .

مناقشة المذهب الرواقى :

أى ذكاء وقاد تهيأ لهؤلاء الناس . . ! إنهم بهذه الكلمات المعدودة يظنون أنهم قد فرغوا من البرهنة على كل شىء ! بيد أنهم قد سلموا — رغبة فى إقامة قياسهم — بقضايا لا يقبل العقل التسليم بها إطلاقا ، ومع ذلك فان الاستدلال المنطقى لكى يكون صحيحا ، يجب أن يبدأ بمقدمات لا ينالها الشك ، ليصل إلى النتيجة التى تكون مثار الجدل .

٥٠ — وأرجو أن تلاحظ الطريقة البارعة التى التزمها « أبيقور » — الذى اعتدتم أيها الرواقيون أن تصفوه بالبله ، وتنسبوا إليه كثرة الأخطاء — فى البرهنة على ما يطلق عليه اسم : « الكون لانهائى » فانه يقول :

« إن كل شىء محدود لابد أن يكون ذا نهاية » فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر هذا ؟

ثم يقول : « وكل ماله نهاية يمكن أن يرى من نقطة ما ، خارج ذاته » — وهذا أيضا ماينبغى التسليم به — « ولكن الكون لا يرى من نقطة خارج ذاته » — وليس فى وسعنا أن نجادل فى إنكار هذه القضية كذلك .

« وعلى هذا فمادام الكون لاترى له نهاية ، فينبغى أن يكون غير محدود — أى لانهائيا » فأنت ترى من هذا كيف يتقدم « أبيقور » من مقدمات مسلم بها ، حتى يصل إلى القضية المطلوبة ، وهذا مالا نراه فى استدلالاتكم أنتم أيها المناطقة الرواقيون ، لأنكم تعتمدون على مقدمات لا يسلم بصحتها كل إنسان ، وليس هذا فحسب ، بل إنكم تبدءون بمقدمات إن صادفت عند العقل قبولا ، فإنها لاتنتهى — على أقل تقدير — إلى إقرار النتيجة التى تريدون البرهنة عليها ، لأنكم تبدءون بهذا الافتراض :

« إذا استقام وجود الآلهة ، للزم عن هذا التسليم بأنهم يلتزمون الرفق فى تصرفاتهم إزاء الانسان » — فمنذا الذى يسلم لكم بهذا ؟ أيسلم بهذا الرأى « أبيقور » ؟ مع أنه يقول إن الآلهة لا تعبأ بنفسها ولا بغيرها من الناس مثقال ذرة . فهل يسلم به « أتيوس » ؟ الذى يقول فى تأييد واستحسان عام :

[كنت أعتقد على الدوام فى وجود آلهة فى العلا ، ولن أتردد فى إعلان ذلك ، ولكنى أرى أنهم لا يعبأون بما يصيب البشر من أقدار] .

وقد أراد أن يمكن لرأيه ، فأضاف أبياتا أبان فيها عن السبب الذى دفعه إلى اعتناق هذا الرأى ، ولكننا فى غير حاجة إلى تكرار ما قاله ، فقد أسلفت ما فيه الكفاية ، لأبين لك أن أصدقاءك الرواقيين يعتنقون على سبيل اليقين آراء تكون موضعا للشك ومجالا للمناقشة .

٥١ — ويقول الرواقيون فى قياسهم بعد هذا : « إن الآلهة تحيط علما بكل شىء ، لأنهم هم الذين نظموا كافة الأشياء » ، ولكن أية حملة شعواء قد شنها على هذا الرأى العلماء الذين ينكرون القول بأن مثل هذه الأشياء قد نظمها الآلهة المخلدون ؟

ولكن من صالحنا أن نعرف الشيء الذي يوشك أن يقع » بيد أن « دكياركوس » قد وضع مجلدا ضخما يقيم فيه الدليل على أن جهلنا بالمستقبل المغيب عنا خير من معرفتنا بآفاقه .

ويقول الرواقيون كذلك : « إن الكشف عن مجاهل المستقبل لا يتناقض مع كرامة الآلهة » ، بل إنه ليلائم الآلهة — فيما أظن — أن يظهروا فى كل بيت ليعرفوا ماذا يحتاج صاحبه !

« ليس صحيحا أن الآلهة عاجزون عن معرفة المستقبل » ، ولكن قدرتهم على المعرفة ينكرها أولئك الذين يصرحون بأن ما ينكشف عن المستقبل ليس أمراً مؤكداً .

والآن ، ألست ترى بأن الرواقيين يسلمون بمقدمات ظنية تحوطها الشكوك ، ويعتنقونها مفترضين أنها قضايا يقينية مسلم بها عند جميع الناس ؟

وبعد هذا يلقون هذا السهم فى جدلهم : « وإذن فليس صحيحا أن هناك آلهة ، وأنهم مع ذلك لا يكشفون للناس عن شواهد تنبىء عن المستقبل » ، ومن المحقق أن الرواقيين يظنون بهذا أنهم قد فرغوا من بحث هذه المسألة .

« ولكن هناك آلهة » — وحتى هذا لا يسلم به جميع الناس .

« وإذن فهم يكشفون للناس عن شواهد تنبىء عن المستقبل » — وليس من المحتوم أن يكون هذا صحيحا ، لأن من المحتمل أن يضنوا بالكشف عن شواهد المستقبل ، ومع ذلك يكونون آلهة .

« وليس صحيحا أنهم إذا كشفوا هذه الشواهد ضنوا على الناس بطرق تأويلها » — ولكن من المحتمل أن تتوافر لديهم طريقة التأويل ، ومع ذلك لا يطلعون الناس عليها ، إذ لماذا يمكنون من معرفتها أهل أتروريا ولا يمكنون الرومان من ذلك ؟

ثم يقول الرواقيون : « إذا كان الآلهة يرشدون الناس إلى فهم هذه الشواهد ، كان هذا هو التنبؤ بالغيب » ، فلنسلم بهذا — رغم ما فيه من

تناقض — ولكن ما الفائدة إذا كنا لا نفهم هذه الشواهد ؟

ثم ينتهى الرواقيون إلى هذه النتيجة : « إذن فالتكهن بالغيب قائم موجود » . — هب أن هذه هى النتيجة التى انتهوا إليها ، ولكنها مازالت تفتقر إلى برهان ، إذ أن الحقيقة — فيما علمنا الرواقيون أنفسهم — لا يمكن التدليل عليها من مقدمات فاسدة باطلة ، ومن ثم فقد تداعت حججهم بحذافيرها .

٥٢ — فلنتناول الآن الأدلة التى استند إليها صديقنا الحميم « كراتيبوس »(١)، إنه يقول : « إن من المستحيل أن يؤدى المرء وظيفة البصر بغير العيون ، ورغم أن العيون قد تعجز فى بعض الأحيان عن أداء وظيفتها المعينة — فى الإبصار — إلا أن المرء الذى يستخدم عينه ولو مرة واحدة ، فيرى الأشياء على حقيقتها ، يعرف على وجه التحقيق ما هى الرؤية الصحيحة ، وكذلك الحال فى التكهن ، فإن من المستحيل أن يقوم التنبؤ بوظيفته بغير ملكة التكهن بالغيب . ورغم أن المرء الذى أوتى هذه الملكة قد يخطىء أحيانا ، فيصدر نبوءات باطلة غير صحيحة ، إلا أن تنبؤ الكاهن تنبؤا صادقا ولو فى حادثة واحدة ، كفيل بأن يقر وجود التكهن بالغيب ، ويستبعد افتراض المصادفات فى تأويله ، ولكن التكهن قد صدق فى الكثير من الحالات ، وهذا يوجب التسليم بصحته » .

إنه قد أحسن التعبير عن حجته فى لباقة وإيجاز ، ولكنه بعد أن أعلن مرتين فروضا يعوزها البرهان ، ورغم أنه وجدنا كراما فى التسليم بآرائه ، إلا أن من المحتمل ألا يصادف ادعاؤه الأخير قبولا منا ، وصفوة ما نقول :

« إذا كانت العيون تخطىء أحيانا ، فإنها تحسن رؤية الأشياء فى بعض الأحايين ، وهذا يبرر القول بأن قوة الإبصار قائمة بها ، وكذلك الحال فى التكهن ، إذا استطاع امرؤ أن يتنبأ فى بعض الحالات فإننا حتى حين نراه

(١) قارن الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

يخطىء فى تكهناته ، يجب أن نسلم بانه أوتى القدرة على التكهن بالغيب » .

٥٣ — أرجو أن تحدد ياعزيزى « كراتيبوس » وجه التشابه فى هذه القضايا التى تقارن بينها ، إنى أعترف بأنه فى خفاء عنى ، لأن العيون حين ترى الأشياء رؤية صحيحة صادقة ، تستخدم فى ذلك حسا منحته الطبيعة ، أما النفس فإنها إن استطاعت أن ترى المستقبل فى حال الوجد (الجنة أو المس) أو خلال الرؤيا ، فإنها تستند فى ذلك إلى الحظ أو المصادفة ، ويجب أن تسلم بهذا ، إلا إذا كان من الممكن أن تظن أن هؤلاء الذين يعتبرون الرؤيا مجرد أحلام تمر بالخاطر ، وليست شيئاً أكثر من ذلك ، يرون أن الرؤيا متى صدقت كان مردّ صدقها فى كل حالاته إلى شىء غير الحظ ، وقد نسلم بمقدمتيك الكبريين ، إلا أننا لا نسلم بمقدمتك الصغرى .

إن « كراتيبوس » يضع مقدمته الصغرى على هذا النحو : « ولكن هناك أمثلة لا يحصيها العد ، لنبوءات تحققت دون أن يكون للحظ دخل فيها » . وأنا أقول على عكس هذا أن ليس ثمة من هذه الأمثلة ولا حادثة واحدة ، ولكن أنظر كيف تحتد المناقشة ! فما دمت قد أبيت التسليم بالمقدمة الصغرى فإن النتيجة تصبح باطلة .

ولكنه يرد على هذا قائلا : « إن العقل لا يسيغ رفضك التسليم بها ، لأنها بينة الوضوح » — ولماذا عزوت إليها هذا الوضوح ؟

« لأن الكثير من النبوءات يثبت صدقه » — ولكن ما رأيك فى أن ما يثبت بطلانه من هذه النبوءات أكثر من ذلك ؟ أليس يدل هذا الشك نفسه — الذى يعتبر من خصائص الحظ — على أن صدق هذه النبوءات ، مرجعه إلى الحظ لا إلى قانون من قوانين الطبيعة ؟ وألست ترى ياعزيزى « كراتيبوس » — لأنى أوجه الخطاب إليك — أن دليلك هذا إن صح ، فانه ينطوى بالمثل على تأييد لضروب التكهن التى يمارسها العرافون والعيافون والكلدانيون ومؤولو البرق ونذر الزجر والأنصبة ؟ لأنك ستجد فى كل من هذه الأنواع مثالا يشهد بصدق نبوءة واحدة على أقل تقدير . وعلى هذا فاما

أن تسلم بأنها جميعا وسائل للتكهن بالغيب — وهذا ما عنيت بإنكاره وإما أن ينتج عن رفضك التسليم بهذا — فيما أستطيع أن أفهم — ألا يدخ نطاق التنبؤ بالغيب هذان الضربان اللذان أبقيتهما في مجاله . وعلى هذا الاستدلال المنطقي الذي استخدمته لتقرير هذين الضربين اللذين سلمت يمكن استخدامه في إقرار الأنواع الأخرى التي أبيت التسليم بها — التكهن الصنعي .

(١) مهاجمة التنبؤ في حال الجذب

مناقشة نبوءات سيبايل Sibyl المجذوبة :

٥٤ — ولكن أي وزن يمكن أن نقيمه لهذا «المس» الذي تسميه «إ والذي يمكّن المعتوه الذي اختل عقله من أن يدرك ما لا يقوى على إد الرجل الحكيم، والذي يخلع على من فقد العقل البشري عقلا إلهيا (١) معاشر الرومان نوقر أشعار الكاهنة « سيبايل » التي يقال إنها فاهت بها كان يعتريها المس ، وقد تبينت منذ عهد قريب شائعة آمن الناس به يومذاك ، ثم اتضح بطلانها بعد ذلك ، وتقول هذه الشائعة إن مفسري(٢) هذه الأشعار كان على وشك أن يعلن في مجلس الشيوخ أن « الجمهورية تتطلب أن يكون الحاكم الذي يتولى حكمنا بالفعل ملكا با

---

(١) رأى شيشرون على خلاف بين مع النظرية التي صاغها مؤلفو المسيحية وهي الجاهل ذي القلب البريء الصافي على العالم ، وعلو الطفل على الرجل الناضج ، وتفوق العقل على هذا الذي يعتقد أنه أوتي الحكمة (جارنييه) وهذه أيضا نظرية بعض الاسلام ومفكريه . أنظر كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكري الاسلام » ص٤٥ وما ب

(٢) « لوكيوس كوتا » Lucius Cotta وهو أحد الذين كانوا منوطين بهذه الأ. وقد روى القصة « سويتونيوس » Suetonius في « يوليوس قيصر » في الفصل والسبعين ، وكان يشاع أن أشعار الكاهنة « سيبايل » Sibyl تقول بأن « البار Parthians لايمكن قهرهم إلا إذا تولى قتالهم ملك ، وعلى هذا يجب أن يعين قيصر ملـ بلوتارك : قيصر في الفصلين الستين والرابع والستين (لويب وديماريه) .

كذلك ، فاذا كان هذا ما تضمنته كتب الكاهنة (١) ، فإلى أى رجل وإلى أى عصر كانت تشير ؟ إذ كانت فطنة من واضعها أن يحتاط عند القول بأن الأحداث أياً كان نوعها ، قد تنبأ بها الكهان قبل وقوعها ، إذ أنه قد أهمل كل إشارة تعين أشخاصا أو تحدد عصرا ! وقد أشاع الغموض كذلك فى كلامه حتى يمكن التسليم بهذه الأشعار فى مواقف مختلفة وعصور متباينة ! وذلك فوق أن هذه القصيدة ليست أثراً من آثار الجنة — المس — وهذا واضح من طريقة تأليفها ، ولأنها تبين عن عناية فنية أكثر مما تكشف عن تهييج عاطفى ، ويوضحه أكثر من هذا أنها نظمت على نحو القصائد التى تسمى acrostic وهى التى إذا أخذت الحروف الأولى فى أبياتها بانتظام ، كونت كلمة تحمل معنى ، كما نرى مثلا فى أشعار «أنيوس» ، فان الحروف الأولى من أبياتها تكون الكلمات اللاتينية التى تقول : «وضعها كونتوس أنيوس» ومن المحقق أن هذا عمل فكر مركز وليس عمل مخ مهتاج أصابته جنة ، ثم إننا نلاحظ أن كتب الكاهنة « سيبايل » قد نظمت أشعارها بحيث إن كل نبوءة تتضمنها ، تجرى على النحو السالف ، فتحمل الحروف الأولى فى أبياتها موضوع هذه النبوءة الخاصة ، مثل هذا العمل يصدر عن كاتب مدقق لم يصبه مس ولا خبل ، وإذن فلنحرم قراءة « سيبايل » إلا بإذن من مجلس الشيوخ ، كما تقضى بذلك تعاليم أجدادنا ، وحتى تكون أبلغ أثراً فى محو الخرافات منها فى تشجيع انتشارها ، ولنضرع مع الكهان فى ألا تتضمن هذه الكتب فكرة «ملك» لأن مثل هذا

---

(١) قال « أولوجلا » فى حديثه عن هذه الكتب إن عجوزاً اقترحت ذات يوم على « تاركوين الفاخر » أن يبتاع تسعة كتب قدمتها له ، ولما قدم لهذه الكتب ثمنا بخسا قذفت المرأة أمامه بثلاث منها فى النار ، فطلب إليها « تاركوين » أن يعرف ثمن الكتب الستة الباقية ، فطلبت نفس الثمن ، فعاد وعرض عليها ثمنا بخسا ، وعادت هى كذلك إلى قذف ثلاثة كتب أخرى فى النار ، وعندئذ استفسر منها عن ثمن الكتب الثلاثة الباقية ، فأجابت بأن ثمنها هو ثمن التسعة جميعا ، فأدى إصرار هذه المرأة إلى أن يظن تاركوين أن لهذه الكتب قيمة كبيرة فدفع الثمن الذى طلبته . وهذه الكتب الثلاثة هى التى تسمى بكتب « سيبايل » (ديماريه) .

الملك لن تحتمل وجوده الآلهة ولا الناس فى روما .

٥٥ — ولكن كثيراً من الأفراد كثيراً ما ينطقون إذا اعتراهم المس بكثير من النبوءات الصادقة ، كما وقع هذا لكساندرا [١]

فهل تريد أن تكرهنى على الاعتقاد بصحة الخرافات ؟ فلتكن هـذه الخرافات جذابة كما يروقك ، ولتكن قد بلغت الكمال الممكن فى اللغة والفكر والوزن والإيقاع ، ولكن لا ينبغى مع ذلك أن نضع ثقتنا فى هذه الأحداث الخرافية ، أو أن نقتبسها كشاهد يؤيد وجهة نظرنا ، وعلى هذا الأساس لا ينبغى فيما أرى أن نخلع ثقتنا على النبوءات التى قال بها «بوبليكوس»[٢] أياما كان — ولا نسلم بنبوءات منشدى المارسى[٣]، أو نبوءات وحى أبولو المبهم الغامض [٤] ، فان بعضها كان بين الخطأ ، وبعضها الآخر مجرد هذر لامعنى له، وليس بينها نبوءة كانت موضع اعتقاد عند رجل عادى الفكر قصير الباع فى مجال الحكمة .

مناقشة شاهد رواقى :

ولكن يا للعجب ! ما قصة هذا الجذاف الذى كان يعمل فى أسطول «كوبونيوس»[٥] الذى تقول عنه :«ألم يتنبأ بالأحداث التى وقعت بعد ذلك؟» حقيقة قد تنبأ بذلك ، وبنفس الأحداث التى كان كل منا يخشى يومئذ وقوعها ، لأن الأنباء قد ترامت الينا بأن جيوش قيصر وبومبى قد تلاقت فى «تساليا»

(١) قارن الفقرة الثلاثين من الكتاب الأول . وقارن الفقرة التاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) وفيها إشارة إلى تنبؤ كساندرا بحادثة باريس وعودة هيلين .

(٢) قارن الفقرة التاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن الفقرة التاسعة والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

(٤) قارن الفقرة التاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٥) قارن الفقرة الحادية والثلاثين من الكتاب الأول (لويب) .

وقد بدا لنا أن جيوش قيصر كانت أكبر جرأة وأكثر حماقة لأنها كانت تقاتل وطنها، وأنها كانت أعظم قوة لأنها تدربت تدريباً عسكرياً زمناً طويلا. وفوق هذا لم يكن بيننا فرد لا تهوله مغبة المعركة، ولكن خوفنا لم يظهر صريحا سافراً، ولم يكن بحيث يحط من قدر قوم أوتوا رصانة الأخلاق، أما عن ذلك البحار اليونانى فهل ترى غرابة فى أن يفقد عقله وتخونه شجاعته ويفلت منه قياد نفسه، وهو فى سورة خوفه، كما يقع لسواد الناس فى مثل هذه الحالات؟ وقد أعلن وهو فى ثورة عقله وتيه فكره، وقوع هذه الأحداث التى كان هو نفسه فى خوف من وقوعها. فأرجو باسم السماء أن تنبئنى عمن ترجح أنه أوتى القدرة على تأويل أوامر الآلهة الخالدين، أهذا البحار المعتوه مختل العقل، أم أحد أفراد فرقتنا — التى كانت فى البر يومذاك — من كاتو وفارو [١] وكونيوس أو أنا؟

غموض النبوءات وكثرة الاحتمالات فى تفسيرها :

٥٦ — فلنعد الآن إلى حديثنا، لقد وضع «كريسبوس» مجلداً كاملا بنبوءاتك [٢]، وقد كان بعضها — فيما أظن — باطلا، وقد صدق بعضها الآخر على سبيل المصادفة. كما يقع فى الأغلب والأعم فى الحديث العادى المألوف، وكان بعضها من التعقيد والغموض بحيث يحتاج تفسيره إلى مفسر، ويرد الوحى فيها إلى وحى، وكان بعضها مشتركا (يحمل معنيين) بحيث يتطلب رجلا من أهل المنطق ليفسر مغزاها، فمن ذلك أن الوحى عندما كشف عن هذه النبوءة التالية إلى أغنى ملك فى آسيا :

[عندما يجتاز قارون نهر هلايس Halys تتحطم مملكة عظيمة لا محالة]

ظن «قارون»، أنه كان يحطم مملكة عدوه، ظن هذا فى نفس الوقت

---

(١) «ماركوس فارو» M. Varro أعظم أهل عصره من الرومان علما (لويب).

(٢) قارن الفقرة الثالثة والثامنة عشرة والتاسعة والأربعين من الكتاب الأول (لويب).

الذى كان يحطم فيه مملكته ، ولكن من الممكن فى كلا الحالين أن يكون الوحى صادقا . ثم لماذا تضطرنى للاعتقاد بأن « قارون » قد تلقى هذا الوحى ؟ أو لماذا أعتبر « هيرودوت » [1] أصدق من « أنيوس » فى هذا ؟ وهل كان « هيرودوت » أقل مقدرة فى اختلاق القصص التى تدور حول « قارون » من « أنيوس » فى اختراع الحكايات التى قالها عن « بيروس » Pyrrhus ؟ فمن ذلك لا تجد أحدا يثق فيما يقوله أنيوس عند ما ينص على أن وحى أبولو قد كشف إلى بيروس عن النبوءة التالية :

[أى يا ابن « أياكوس » Aeacus ، إنى أتكهن بأنكم يا جنود الرومان ستهزمون][2]

ونلاحظ أن أبولو كان قبل كل شىء لا يتكلم اللاتينية أبداً ، ثم إن الإغريق كانوا يجهلون هذه النبوءة ثانيا ، ثم إن أبولو كان قد كف عن نظم الشعر فى أيام بيروس ثالثا . ونلاحظ أخيراً أن أبناء أياكوس وإن كانوا فيما يقول أنيوس :

[جنسا بليداً اشتهر بشجاعته لا بحكمته]

إلا أن بيروس ربما أوتى من النظر ما يمكنه من أن يفهم أن هذا البيت الغامض المشترك : « ستهزم جنود الرومان » ، لم يكن فى صالحه ولا فى صالح الرومان ، أما عن هذه النبوءة المشتركة (التى تحمل معنيين) ، والتى خدعت « قارون » فإنها قد تخدع « كريسبيوس » مثلا ، وأما الإجابة التى قيلت لبيروس ، فإنها لن تخدع حتى أبيقور !

---

(١) يلخص هيرودوت هذه القصة فى الجزء الأول ص ٥٣ (لويب) .

(٢) من « الحوليات » التى نظمها أنيوس (لويب) وكلمة « ستهزمون » يتغير معناها إن بنيت للمجهول عنه إن بنيت للمعلوم . وفى البناء الأول تدور الدائرة على الرومان . وفى الثانى ينتصرون . . . !

مناقشة نبوءات دلفي :

٥٧ — إلا أن السؤال الجوهرى هو هذا : لماذا لا تقال فى الوقت الحاضر نبوءات دلفى التى سقت لك الأمثلة والشواهد عليها ، ولا يتلقاها أحد منذ زمان مديد ؟ ولماذا ينظر الناس الآن اليها باحتقار بالغ ؟ فاذا وقفنا عند هذه النقطة لنعرف السبب فيها ، أكد المدافعون عن هذه النبوءات أن «مرور الزمان الطويل قد لاشى بالتدريج ميزة المكان الذى صدرعنه هذا البخار الأرضى الذى ألهم الكاهنة « بيثيا » لتنطق بهذه النبوءات » . . ! وربما خطر للمرء أنهم يتحدثون عن نبيذ أو ماء أجاج يقبل التبخر ! مع أن المسألة تنصب على ميزة المكان — تلك الميزة التى لانسميها طبيعية فحسب ، بل إلهية معاً — ثم كيف تبخرت هذه الميزة ؟ إنك تقول : «على مر الزمان الطويل» . ولكن أى زمان هذا الذى أمكنه أن يحطم قوة إلهية ؟ وأى شىء إلهى كهذا البخار الأرضى الذى يلهم النفس بقوة التنبؤ بالمستقبل . مثل هذه القوة لا تدرك الأحداث قبل وقوعها فحسب ، بل تصوغ تكهناتها فى شعر منظوم ؟ ومتى اختفت هذه الميزة ؟ أكان اختفاؤها بعد أن أخذت سرعة التصديق تزايل عقول الناس ؟

ولا بأس من أن نقول عرضا إن « ديموستين » الذى عاش منذ ثلاثمائة عام كان يقول إن كاهنة بيثيا قد حابت فيليب فى نبوءاتها [١] ، أى كانت حليفته بمعنى آخر ، وقد قصد بهذا التعبير أن يقول إن فيليب قد رشاها ، ويمكننا أن نقول استناداً إلى هذا إن نبوءات دلفى لم تخلُ فى غير هذا الحدث من الغش والخداع خلوا تاما ، ولكنى لا أدرى لماذا يبدو فلاسفتك الخرافيون الواهنون على هذا النحو من التناقض البين . ثم إنكم أيها الرواقيون بدلا من أن ترفضوا التسليم بصحة هذه القصص التى لا تقبل التصديق ، آثرتم أن تعتقدوا بأن قوة قد تلاشت بالتدريج حتى انتهت إلى العدم ، مع أن هذه القوة لو وجدت ، لكان من المؤكد أن تظل موجودة قائمة إلى الأبد .

---

(١) قارن : Aeschin 72, 14, Dem. 287. 1. (لويب) .

(ب) مهاجمة الرؤيا الصادقة

مناقشة آراء الفلاسفة :

٥٨ — وشبيه بهذا خطأهم فى موضوع الرؤيا ، وما أبعد المعين الذى استقوا منه دفاعهم عنها ! « إن نفوسنا — فيما تزعم مدرستكم — إلهية ، وقد وفدت إلينا من مصدر خارجى عنا ، والكون يزخر بالنفوس المنسجمة » وعلى هذا فإن النفس البشرية تتنبأ إبان النوم بأحداث المستقبل لأنها إلهية ، وعلى اتصال بغيرها من النفوس المنتشرة فى الكون كله[1]. ولكن « زينو » يظن أن النوم ليس شيئاً أكثر من تقلص ، وكأنه هبوط وإغماء يعترى النفس الإنسانية[2] .

ثم إن فيثاغورس وأفلاطون — وهما من أوثق المصادر فى هذا الصدد — يقترحان علينا إذا رغبنا فى أن تقع لنا رؤيا صادقة ، أن نهيء للنوم أنفسنا باتباع نظام معين فى السلوك والطعام ، فالفيثاغوريون يحرمون أكل البقول — كما لو كانت النفس لا البطن — هى التى تمتلىء بذلك رياحاً ! وأياً ما كان الأمر فإنا لا نصادف — عند فيلسوف ما — كلاما أكثر من هذا تناقضاً .

وإذن فهل تعتقد بأن نفوس النيام تتحرك من تلقاء نفسها أثناء الحلم ؟ أو أنها — كما يظن ديمقريطس — مضطرة إلى الحركة بتأثير أطياف تفد إليها من الخارج ؟[3] وسواء أصحت هذه النظرية أم صدقت النظرية الأولى ، فان الحقيقة التى تظل قائمة هى أن الناس يظنون إبان النوم أن الكثير من

---

(١) أنظر الفقرة الثامنة والأربعين من الكتاب الأول فان كونتوس يعرض فيها هذه الأفكار عن طبيعة النفوس (جارنييه) .

(٢) ويذكر « أرنيم » Arnium فى كتاباته النصوص الرئيسية التى تتصل بالنوم وهى تلخص رأى الرواقيين بأن النوم تراخ فى النفس يزيد من إحساسها . ونجد فى ديوجانس اللايرتى ما شبه هذا الرأى (VII., 158.) (جارنييه) .

(٣) هى أطياف من خارج النفس تجلت فى العقل عن طريق الجسم . قارن شيشرون Acad. فى الكتاب الأول فى الفقرة الخامسة عشرة (لويب) .

باطل الأخيلة حقائق لا يأتيها الشك ، كما تبدو الأشياء الثابتة على الشاطىء متحركة فى عين السائح ، وكما يؤدى بنا الخداع البصرى أحياناً إلى أن نرى عند النظر إلى المصباح لهبين بدلا من لهب واحد . وما حاجتى إلى القول بأن كثيراً من الأشياء التى لا وجود لها ، يراها السكرى أو المعتوهون ومختلو العقول ؟ وإذا كان لابد لنا من أن نسحب ثقتنا من مثل هذه الأخيلة التى تبدو للرجل اليقظان ، فانى لا أفهم لماذا نضع ثقتنا فى أحلام النيام ؟ وقد يبدو لك أن تجادل فيما أسلفناه من خداع البصر ، كما جادلت فى الأحلام من قبل ، وتقول على سبيل المثال إن الأشياء الثابتة عندما تبدو متحركة تنبىء مقدماً عن زلزال أو فرار جيش مفاجىء ، وأن لهب المصباح إذا بدا مزدوجاً ، أنذر بقيام فتنة أو ثورة !

الرؤيا الصادقة وانفاوه المصادفات :

٥٩ — وباستخدام الحدس فيما نراه عند السكيرين والمعتوهين من هذيان يبدو فى صور لا يحصيها العد ، قد نهتدى إلى مايلوح أنه نبوءة صادقة ، إذ منذا الذى يسدد المرمى إلى هدف معين طوال يومه ، ولا تحالفه المصادفة فى إصابته ؟ إننا ننام كل يوم ، ومن النادر أن تمر ليلة لاتقع لنا فيها أحلام ، فهل تعجب إذا تحققت أحلامنا فى بعض الأحايين . ؟ لاشىء يجرى عفواً على غير وتيرة مؤكدة كرمية النرد ، ومع ذلك فليس ثمة فرد يلعب كثيراً إلا ويوفق إلى رمية ڤينوس عرضا فى مرتين أو ثلاث مرات متعاقبة . وإذن فهل أصابتنا الحماقة حتى نميل إلى القول بأنها وقعت بفضل ڤينوس ، ولم تقع على سبيل المصادفة . ؟ وإذا كان لابد لنا من أن نشك فى أمر الأحلام الباطلة

---

(١) إله الطب وهو ابن أبولو وأرسينوى Arsinoé أو كرونيس Coronis ، وقد تولى تربيته كائن وهمى نصفه إنسان ونصفه الآخر فرس ، ومنه تعلم فن العلاج ، كما يقول معجم باشليه وديزوبرى ، أما « سيرابيس Serapis » فانه إله مصر القديمة فى عصر البطالمة والرومان ، وقد أصبح أخيراً « أيسكولابيوس » نفسه .

فى أوقات أخرى ، فانى لا أرى فى النوم ميزة ما ، تجعل من أحلامه الفاسدة رؤيا صادقة . ثم إذا كان نظام الطبيعة من جهة أخرى قد قضى على النيام أن ينفذوا الأحلام التى طافت بخواطرهم ، لوجب أن يشد وثاق الناس على الدوام كلما مضوا إلى سررهم ، لأنهم يرتكبون من الحماقات فى أحلامهم أكثر مما يرتكب أى رجل مجنون . . !

وإذا كان لابد من أن نشك فى الرؤيا التى تتراءى لمختلى العقل — لأنها غير حقيقية — فانى لا أدرى لماذا نثق فى أحلام هى أكثر اضطراباً من هذا بكثير ؟ فهل نثق فيها لأن المجانين لا يقصون هذيانهم لمعبرى الأحلام كما يفعل ذلك أصحاب العقول السليمة ؟

الشك فى منفعة الأحلام :

إنى أوجه إليك هذا السؤال : هب أنى أردت أن أتعلم القراءة والكتابة أو الغناء أو اللعب على العود ، أو أن أتمكن من حل تمرين فى الهندسة أو مسألة فى الطبيعة أو قضية فى المنطق ، هل يجب أن أنتظر حتى أهتدى إلى معرفة هذا فيما يقع لى من أحلام ؟ أم يجب أن أعتمد على ما يتطلبه كل من هذه الفنون أو العلوم من معرفة خاصة بدونها لا يهتدى أحد إلى العلم بها ، ولا إلى التفوق فى ميدانها ؟ كلا ، بل حتى إذا أردت أن أطلق فى الماء سفينة ، لما التزمت فى قيادتها الطريقة التى ينبغى اتباعها فى قيادة السفن كما تبدو فيما يتراءى لى من أحلام ، لأنى إن فعلت ذلك ، لقيت العقاب سراعا . وماذا يكون الرأى فى مريض يلتمس الخلاص من دائه عند معبر الأحلام ، لا عند طبيب يداوى الأجسام ...؟ أو هل تظن أن «أيسكولابيوس» Aesculapius و «سرابيس» Serapis قد أوتيا القدرة على تشخيص العلاج

لأمراضنا الجسمانية(١) عن طريق الأحلام؟(٢) أو هل تظن أن « نبتيون » (٣) لا يستطيع أن يساعد أدلاء السفن بهذه الطريقة نفسها ؟ أو هل تظن أن « مينرفا » (٤) وإن كانت تصف للمريض دواء في حلم يقع له دون معونة يقدمها الطبيب ، فان آلهة الشعر لا تمنح في الرؤيا طريقة العلم بالقراءة والكتابة وسائر الفنون الأخرى . ؟ إذا كانت الرؤيا تحمل العلم بدواء المرض ، فان الفنون السالفة الذكر يمكن أن تعرف بدورها عن هذا الطريق نفسه . ولكن ما دمنا لا نهتدى إلى معرفة هذه الفنون عن طريق الرؤيا ، فان العلاج كذلك لا يشخص في الأحلام . وما دمنا قد دحضنا النظرية التي تقول بأن فن الطب يوهب عن طريق الرؤيا ، فان الأساس الذي قام عليه الاعتقاد في صدق الرؤيا قد تداعى وانهار تماما .

استبعاد الوحي الإلهي من مجال الرؤيا :

٦٠ — ولكن رغم ما نراه من وضوح النتيجة التي انتهينا إليها الآن ، فانا نريد أن نتناول هذا الموضوع ببحث أعمق مما أسلفنا ، ومن المحقق أنك مضطر إلى التسليم بأحد هذه الفروض الثلاثة :

---

(١) هناك علاقة بين الوحي عن طريق الرؤيا وبين هذين الالهين . وبالوحي السالف كان يوصف الدواء لعلاج المرضى (لويب) .

(٢) كان المعتقد في العصور القديمة بوجه عام أن المريض الذي ينام في المعبد يبرأ من مرضه ، وترى أحد أشخاص رواية « بلوتوس » Plutus لأرستوفان ، كان مضطراً لكي يبرأ من مرضه أن ينام في معبد الاله « أيسكولابيوس » وأن « هروديان » Herodien يقول إن الأمبراطور « كراكلا » Caracalla قد سارع إلى « برجان » Pergau بآسيا الصغرى لكي يشفيه الاله السالف (جارنييه) .

(٣) إله البحر عند الرومان وهو ابن « ساتيرن » Saturne وأخو « جوبتر » و « بلوتون » Pluton وفي قصره القائم بقاع البحر كان يحتجز الخيول البحرية التي كانت تجر عربته على سطح الأمواج .

(٤) هي إلهة الرومان في الحكمة والفنون والعلوم والشجاعة والعدل وقد ولدت من مخ « جوبتر » ، وهي عذراء بكل معاني الكلمة وقد عاقبت « بيرزياس » على نظراته الخبيثة بحرمانه من البصر (باشليه وديزوبرى) .

أولها : وجود قوة إلهية تعنى بتدبير خيرنا فتكشف لنا الأنباء عن طريق الرؤيا.

وثانيها : أن معبرى الأحلام يستندون إلى وجود علاقة وتداع طبيعيين بين الأشياء [1]، ويسميهما الإغريق بالمشاركة ، ويعرفون نوع الحلم الذى تتطلبه كل حالة ، كما يعرفون النتيجة التى تتبع كل حلم .

وثالثها : أن كلا هذين الفرضين غير صحيح ، وأن هناك مجموعة من القواعد المتسقة (المنطقية) التى تقوم على ملاحظات استغرقت زمنا طويلا، وبهذه القواعد تعرف النتيجة فى كل حلم .

وعلى هذا ينبغى أن نفهم — قبل كل شىء — أن ليس ثمة قوة إلهية تخلق الرؤيا ، إنه لمن البين الواضح أن ليس شىء من هذه الرؤيا التى تتراءى فى الأحلام ، يصدر عن إرادة إلهية ، لأنها لو كانت كذلك لتدخل الآلهة لصالحنا ، بحيث تمكننا الأحلام من كشف المستقبل . ولكن كم من الناس يعطى للأحلام باله ؟ أو يفهم مغزاها أو يذكر فحواها .؟ ثم كم من الناس لا يوليها احتراما،ويعتبر الاعتقادفى صحتها خرافة عقل ضعيف عليل!..! ثم لماذا ينقل الإله حين يدبر خير الجنس الإنسانى نذره عن طريق الرؤيا التى يعتبرها الناس غير خليقة بالتقدير ، فيضنون عليها بالاهتمام ، ويبخلون حتى بتذكرها ؟ لأن من المستحيل أن يجهل الإله نظرة الناس إلى الأحلام بوجه عام ، والإقدام على عمل لا حاجة للناس به ولا مبرر له ، أمر لا يليق بإله ، ولا يتفق حتى مع إنسان دأبه التفكير السليم ، وعلى هذا فان الناس إذا كانوا لا يعبأون بأكثر الأحلام ، ويستخفون بأمرها ، فان الإله إما أن يكون على جهل بهذه الحقيقة ، أو أنه يعمل عملا غير مجدٍ حين ينقل الأنباء

---

(١) يعتقد الرواقية أن بين أجزاء العالم علاقات خفية مردها إلى نفس واحد يتغلغل فيها ويهبها الحياة ، وكثيرا مايعبر مؤلفو الرواقية عن هذه الفكرة فيقولون إن العالم واحد وجميع أجزائه متصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا بحيث لاتحدث حركة ما ، إلا ويكون الكل علتها . (جارنييه) .

عن طريقها ، ولكن كلا الفرضين لا يتفق مع طبيعة الإله ، ولهذا يجب التسليم بأن الله لا ينقل عن طريق الرؤيا أنباء .

٦١ — وإنى لأوجه إليك هذا السؤال كذلك : إذا كان الله يهبنا هذه الرؤيا كنذر سابقة للأحداث ، فلماذا لا يمنحها لنا ونحن أيقاظ بدلا من أن يهبها لنا ونحن نيام ؟ إذ أن نفوسنا سواء أكانت فى حالة النوم تدفعها للعمل قوة خارجية وغريبة عنا ، أم كانت تتحرك بذاتها ، أم كان ثمة سبب آخر يجعلنا نتخيل أثناء الحلم أنا نرى أو نسمع أو نؤدى أعمالا معينة ، فهما كان هذا السبب ، فليس ثمة من حرج فى أن يظل قائما إذا وهبت لنا الرؤيا إبان اليقظة . وإذا كان الآلهة قد أرسلوا إلينا نذراً إبان نومنا وقصدوا بها خدمتنا ، فان من الممكن أن يرسلوها الينا ونحن أيقاظ ، ولا سيما وأن الأشياء التى تبدو لنا أثناء اليقظة ، تكون أكثر تميزا وأدعى إلى الثقة والاطمئنان من تلك التى تتراءى لنا فى الأحلام — كما يقول كريسبوس فى دحضه لآراء أتباع الأكاديمية . وعلى هذا يكون الأكثر تمشيا مع حب الآلهة لخيرنا ، أن يهبوا لنا هذه الرؤيا واضحة إبان يقظتنا ، لا أن يرسلوها إلينا فى أحلامنا محجبة يستعصى على العقل فهمها ، ولكن الآلهة لا تفعل ذلك ، ولهذا وجب أن نرفض التسليم بأن الرؤيا إلهية . ثم ما حاجتنا إلى طريقة معوجة غير مستقيمة تضطرنا إلى استخدام معبرين للأحلام ، بدلا من الطريقة الواضحة المباشرة التى لا تكلفنا هذا العناء ؟ وإن صح أن الإله يهيء الخير لصالحنا ، فقد كان الأنسب أن يقول : « افعل هذا » — « لا تقدم على ذاك » ، ذلك خير من أن يوحى إلينا بأحلام أثناء اليقظة أو إبان النوم .

٦٢ — ثم هل يجرؤ امرؤ على أن يدعى أن الرؤيا تصدق دواما . . ؟ إن « أنيوس » يقول : « إن بعض الأحلام صادق ، وليست كلها كذلك بالضرورة » ولكن كيف نميز بين الصادق منها والباطل ؟ . ما آية الأحلام الباطلة وما آية الرؤيا الصادقة ؟

إرجاع الأحلام إلى طبيعة النفس :

وإذا كانت الرؤيا الصادقة من وحى الآلهة ، فمن أين تصدر الأحلام الباطلة ؟ إن من المحقق أن الله إذا كان يوحى بالباطل من الأحلام كذلك ، فأى شىء يكون أدعى للشك وأبعد عن الثقة من الله ؟ ثم أى شىء أكثر حماقة من أن تثير نفوس الناس بأحلام باطلة وكاذبة ؟ ولكن إذا كانت الرؤيا الصادقة من وحى الآلهة ، أما الأحلام الباطلة التى لا تحمل معنى فتصدر عن الطبيعة ، فأى ضرب من الهوى أدى إلى القول بأن الله قد أوحى بالأولى ، وأن الطبيعة قد صاغت الأخرى ، بدلا من أن يقال إن الله قد أوصى بهما معاً — وهذا ماتأبى مدرستك الرواقية التسليم به — أو أن الطبيعة قد صاغتهما معاً ؟ وما دمت تنكر أن يكون الله هو الموحى بهما معاً ، فعليك أن تسلم بأن الطبيعة قد صاغتهما جميعاً ، وأنا أقصد « بالطبيعة » فى هذه المناسبة ، تلك القوة التى من أجلها لا تستطيع النفس أن تكون ثابتة مجردة من الحركة بعيدة عن النشاط . ثم إن النفس متى أعجزها إعياء الجسم عن استخدام الأطراف والحواس ، جنحت إلى إنشاء أحلام مختلفة باطلة لا تدعو إلى الثقة ، تصدر عما يسميه أرسطو(١) « بالآثار العالقة مما ينشأ عن أعمال النفس وخواطرها إبان اليقظة» ، وهذه الآثار إذا أثيرت أنتجت فى بعض الأحايين نماذج للأحلام غريبة . فاذا كان بعض هذه الأحلام صادقاً ، وبعضها الآخر كاذباً ، فانى تواق لمعرفة الآية التى تميز أحدها عن الآخر ، فاذا لم تكن ثمة آية تيسر هذا التمييز ، فلماذا نعير معبريك سمعاً أو نعطى لهم بالا . ؟ أما إذا قامت هذه الآية المميزة ، فإنى أكون تواقا لأن ينبئنى أصحابها عن حقيقتها ، ولكنهم لا يجدون جوابا إذا استفسرت منهم وعز عليهم الجواب .

٦٣ — والآن نتساءل عما هو أكثر احتمالا : هل نقول إن الآلهة

---

(١) الاشارة هنا إلى شرح أرسطو فى بحثه : De Insomniis فى الفصل الثالث (جارنييه ولويب) وانظر مذهب أرسطو فى الرؤيا فى كتابنا « الأحلام » فى كثير من الصفحات .

المخلدين الذين يمتازون بالسمو والتفوق الذى لا يجارى ، لا يحومون على الدوام حول أسرة الناس فحسب ، بل يدورون حول القش المتواضع الذى يرقد عليه الفقراء أنى كانوا ، حتى إذا سمعوا شخيراً يدوّى ، بعثوا إلى صاحبه برؤيا مبهمة ملتوية تفزعه فى نومه ، فيحملها فى الصباح إلى خبير بالأحلام ليحل ألغازها ؟ أو نقول إن الطبيعة قد هيأت أقدارها بحيث إن النفس فى نشاطها الدائم ترى فى نومها أطيافا ما رأته والجسم يقظان ؟ أيهما أكثر اتساقا مع الفلسفة ؟ أن تفسر هذه الأخيلة بالنظريات الخرافية التى تصدر عن المسنات من النساء اللائى يتنبأن بحظوظ الناس ، أم تفسرها تفسيرا يقوم على كشف عللها الطبيعية ؟ ولكن ، حتى إذا كان فى الإمكان أن نستمد من الأحلام استدلالات يوثق فى أمرها [(١)] ، فان هذا لا يقع لأولئك الذين يتظاهرون بأنهم أوتوا هذه المقدرة ، لأن طائفة المعبرين تضم أقل الناس عمقاً فى التفكير وأبعدهم غوراً فى الجهالة ، ومع هذا فان أصدقاءك الرواقيين يؤكدون بأن الإنسان لا يستطيع أن يكون كاهناً إلا إذا كان حكيما !

مناقشة قيام فن التعبير :

ويصف « كريسبوس » التنبؤ بالغيب فى هذه الألفاظ : « إنه القدرة على أن ترى الشواهد التى يكشفها الآلهة للناس نذيراً بما يقع ، مع إمكان فهمها والقدرة على تأويلها [(٢)] . ويمضى فى حديثه قائلا : « ومهمة التكهن هى الكشف سلفاً عن ميول الآلهة نحو الناس ، والطريقة التى بها تظهر هذه الميول ، والوسيلة التى بها يكسب الناس عطف الآلهة ، ويتقون شرورهم التى توشك أن تنزل بهم » .

---

(١) يبدو هنا أن شيشرون يتنبأ بنظرية علمية للأحلام كان مقدرا لها أن تنتظر طويلا ، وهى لم تستقر حتى فى أيامنا الراهنة استقرارا نهائيا ، بالرغم مما أثير حول هذا الموضوع من أبحاث كثيرة هامة (جارنييه) .

(٢) يشير إلى الفقرة الثانية والثلاثين والثالثة والثلاثين من الكتاب الأول وفيهما يعرض كونتوس نظرية الرواقيين فى التنبؤ بالغيب باعتباره فن تفسير النذر التى يقدمها الآلهة للناس باسم العناية بهم (جارنييه) .

ويحد هذا الفيلسوف نفسه تعبير الأحلام على هذا النحو : « إنه القدرة على فهم الرؤيا التى توحى بها الآلهة إلى الناس إبان النوم ، مع إمكان تأويلها » فان صح مايقول ، فهل يكفى لهذا مجرد الفطنة العادية ، أو هل لاتحتاج على الأحرى إلى الذكاء الغلاب والعلم الكامل كمالا مطلقاً ؟ أما أنا فإنى لم أصادف مثل هذا الرجل (الذى تهيأت له هذه الصفات) .

٦٤ — وحتى إذا سلمت برأيك فى قيام التكهن بالغيب — وهذا ما لا ينتظر أن يكون بتاتاً — فإنه ينبغى أن نكون على يقين بأن من المستحيل أن نعثر على كاهن . وإذن فماذا يقصد الآلهة بما يوحون به من رؤيا فى أحلامنا لانملك نحن القدرة على فهمها ، ولا نستطيع أن نجد امرأ يؤولها لنا ؟ إذا كان الآلهة يرسلون فى أحلامنا هذه الرسائل التى لا تقبل الفهم ولا تخضع للتفسير ، فإنهم بهذا يشبهون القرطاجيين والأسبان إذا اضطروا إلى مخاطبة مجلس شيوخنا بلغة بلادهم ، دون الاستعانة بمترجم يفسرها لأعضاء المجلس . ثم أى خير نرجوه من وراء هذه الأحلام الغامضة المبهمة ؟ من المحقق أن الآلهة يطمعون لا محالة فى أن نفهم النصيحة التى يسدونها إلينا خدمة لنا ، ولكنك ترد على هذا قائلا : « ألا يلتبس علينا شعر الشعراء ومذاهب الفلاسفة الطبيعيين ؟ » . فى الحق إنها لكذلك : فمن ذلك أن « ايوفريون » Euphrion [1] غامض كل الغموض ، ولكن « هومير » ليس على هذا الإبهام ، فأيهما أشعر من الآخر ؟ وهرقليطس مسرف فى الغموض [2] ، وديمقريطس ليس كذلك على أقل تقدير . فهل يمكن أن نعقد بينهما مقارنة ؟ بيد أنك تسدى إلى النصيحة خدمة لى فى كلمات لا أقوى على فهمها ، فلماذا النصيحة إطلاقا ؟ إن

---

(١) كان شاعرا يونانيا فى القرن الثالث قبل المسيح واشتهر بالرثاء ، ويضعه كليمان الاسكندرى Clément d'Alexandrie فى تصنيفه من هذه الوجهة مع كلياكوس Callimaque وليكوفرن Lycophron وهما من الكتاب المعقدين فى كتاباتهم ويتعب فى شرحها أهل اللغة (لويب وجارنييه) .

(٢) كان هرقليطس يسمى « الغامض » قارن شيشرون : De fin 11. 5. 15. (لويب)

هذا شبيه بالطبيب الذى يأمر المريض أن يتعاطى « شيئاً نبت من الأرض ولا دم فيه ، وهو يزحف حاملا مسكنه على ظهره » بدلا من أن يقول باللغة الدارجة المألوفة «قوقع» .. ! ويتحدث أمفيون فى رواية وضعها باكوفيوس(١) إلى الأثينين عن كائن من ذوات الأربع قصير القامة ، خشن خجول بطىء حاد البصر ، دقيق الرأس تشبه رقبته عنق الثعبان ، إذا نزعت منه أحشاؤه وحرم الحياة ، لبث يردد إلى الأبد أغنية شجية .. !

ولما كان المعنى الذى يحمله هذا التعبير غامضاً مسرفاً فى الغموض فقد أجابه الأثينيون قائلين : « أوضح فيما تقول وإلا استعصى علينا أن نفهمك » وعندئذ وصف هذا الكائن فى كلمة واحدة فقال : سلحفاة .. ! أما كان فى وسعك أن تقول هذا أولا أيها اللاعب على القيثارة ؟

مناقشة استشهادات الرواقية :

٦٥ — روى كرايسبوس فى كتابه عن الأحلام قصة رجل التمس مشورة كاهن فى حلم رأى فيه بيضة معلقة فى السرير فى غرفة نومه فقال له : « تحت سريرك كنز مغيب فى جوف الأرض » ولما حفر الرجل تحت سريره عثر على كمّ من الذهب تحوطه فضة ، فأرسل إلى الكاهن كمّا من الفضة ظنه مناسباً ، فقال له الكاهن بعد : ألا يصيبنى شىء من مح البيض ؟ وقصد بالمح الذهب ، وبالفضة بياض البيض ، فهل لم يظهر البيض فى حلم إنسان آخر ؟ فإذا كان قد تراءى فى حلم ما ، فلماذا يعثر على الكنز هذا الرجل وحـــده — أياً من كان — لأن البيضة قد تراءت فى حلمه ؟ وكم فى الدنيا من المعوزين الفقراء يستحقون معونة الآلهة، ولكن الرؤيا لم ترشدهم إلى طريق الكشف عن الكنز ، ثم لماذا آثر الآلهة مع هذا الرجل ذلك التلميح الغامض المبهم الذى يصور بعض التشابه الموهوم بين البيض والكنز ، ولم يصرح الآلهة بذلك فى

(١) الأبيات مقتبسة من كتابه « أنتيوب » Antiope وتجرى فى مناقشة دارت بين أمفيون Amphion وأخيه « زيتوس » Zethus (لويب) .

جلاء سافر كما وقع فى رؤيا سيمونيدس [١] عند مازجرته الآلهة عن الإبحار على ظهر سفينة ؟ وصفوة القول فى هذا أن الرسائل التى تتراءى فى الأحلام مشوبة بالغموض والإبهام، لا تتفق مع كرامة الآلهة بتاتاً .

٦٦ — فلنتناول الرؤيا التى يشيع فيها الوضوح، وتنصب على موضوعها فى غير التواء ، كرؤيا الرجل الذى أجهز عليه مدير الفندق فى ميغارا [٢]، أو رؤيا «سيمونيدس» الذى تلقى من الرجل الذى دفنه إنذاراً يزجره عن الإبحار ، ورؤيا الإسكندر ، ويدهشنى يا عزيزى كونتوس إنك مررت بها دون أن تعيرها اهتماما ، فقد أصاب سهم مسموم فى إحدى المعارك « بطلميوس » Ptolemeaus صديق الإسكندر الحميم ، وأشرف على الهلاك متأثراً بجراحه ، وعانى مرارة النزع الأليم ، وبينما كان الإسكندر جالساً على كثب من صديقه غشيه نوم عاجل ، وعندئذ رأى رؤيا — فيما تقول القصة — ظهر فيها ثعبان أمه « أوليمبياس » الأليف يحمل فى فمه جذعا ، ودله فى نفس الوقت على اسم مكان يقوم على كثب من المكان الذى يقال إن الجذع قد نما فيه ، وأنبأه الثعبان بأن هذا الجذع كان له من الفضل العظيم ما عجل بعلاج بطلميوس ، وما أن استيقظ الإسكندر حتى قص رؤياه على أصدقائه وأرسل الرسل فى طلب الجذع . وقيل إن الجذع عندما عثروا عليه لم يصلح لعلاج بطلميوس وحده ، بل استغل فى علاج الكثيرين من الجنود الذين أصابتهم الجروح التى نشأت عن هذا النوع من السهام المسمومة . . !

لقد استعرت من تاريخ الرؤيا بمجموعة أحلام حملت الينا أنباءها ، فمن ذلك أنك تحدثت عن أم « فالاريس » و « كايروس الأكبر » [٣] والرؤيا التى وقعت

---

(١) قارن الفقرة السادسة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن الفقرة السادسة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن فى هذا وفى مثال كايروس الثانى الفقرة الثانية والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .

لأم « ديونيسيوس » (١)، ورؤيا هملكار (٢)، وهانيبال القرطاجيين ورؤيا « بوبليوس دكيوس » . وذكرت الرؤيا التى أثارت الاهتمام ، وترامت للعبد الذى كان أول راقص فى الألعاب النذرية (٣) ثم رؤيا « جايوس جراكوس » ، وتلك التى رأتها حديثا « كيكيليا » (٤) ، أخت « بلابريكوس » ولكن هذه أحلام ناس من شعوب أجنبية عنا (٥) ولهذا فانا لا نعرف من أمرها شيئا ، وربما كان بعضها محض اختلاق ، إذ أى مؤلف عرض للكلام عنها ؟ وماذا لدينا لنقوله عن أحلامنا .. ؟ وعن رؤياك التى رويتها عنى ، وعن جوادى الذى خرج من النهر وظهر على الشاطىء (٦)، وعن رؤياى التى رأيت فيها « ماريوس » وقد أقبل بأكاليله التى صاغها من الأشجار ، وأمرنى بالمضى إلى معبد الذكرى الذى يحمل اسمه (٧) .

إرجاع الأحلام الى مكنونات النفس :

٦٧ — كل الأحلام يا عزيزى كونتوس لها تفسير واحد ، فهيا باسم السماء حتى لا تتغلب خرافاتنا وعنادنا على هذا التأويل . أى « ماريوس » هذا الذى تظن أنى رأيته فى حلمى ؟ أحسب أنى رأيت « صورته » أو « طيفه » هذا على الأقل هو ما يظنه ديمقريطس (٨) . ومن أين جاء طيفه ؟ ربما كان من رأيه أن

(١) قارن الفقرة التاسعة عشرة من الكتاب الأول (لويب) .

(٢) قارن فى هذا وفى المثالين التاليين الفقرة الثالثة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .

(٣) قارن فى هذا وفى المثال التالى الفقرة الخامسة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .

(٤) قارن الفقرة الثالثة والأربعين من الكتاب الأول (لويب) .

(٥) هكذا فسر Kühner, Giese, Moser الكلمتين haec externa : فيما يشير مترجم لويب ، وقد ترجمها (دعاريه) أحلام أجانب .

(٦) قارن الفقرة السابعة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .

(٧) قارن الفقرة السابعة والعشرين من الكتاب الأول (لويب) .

(٨) يبدو أن المراد بالمناقشة التى تدور هنا هو النظرية الأبيقورية فى الادراك الحسى المتصل بحاسة البصر كما عرضها « لوكريس » Lucrèce لا نظرية ديمقريطس كما يشير النص (جارنييه) .

«الأطياف» تصدر عن الأجسام المادية ، أو تنشأ عن أشكال موجودة بالفعل » وإذن فقد صدر الطيف الذى رأيته عن جسم «ماريوس» ولكن «ديمقريطس» يقول : « كلا بل صدر عن جسمه الذى كان له فيما مضى » . ولهذا فقد كان طيف «ماريوس» يطاردنى إلى سهول «أتينا» ؟ » يا للعجب . ! ولكن الكون زاخر بالأطياف » ، وليس فى الإمكان أن نتصور الأشياء إلا عن طريق أطيافها التى تفد إلى العقل من الخارج . وإذن فهل هذه الأطياف التى تتحدث عنها مطيعة تستجيب إلى إشارتنا ، إلى حد أنها تخف إلينا فى اللحظة التى نستدعيها فيها . ؟ وهل يصدق هذا على أشباح الأشياء التى لا وجود لها ؟ إذ ما عسى أن يكون هناك من أشياء وهمية لا حقيقة لها ولم نسمع بها إلى حد أن يتعذر علينا أن نكوّن عنها صورة عقلية ؟ بل قد نكوّن (صور) أشياء لم نرها إطلاقا ، كمواقع المدن ووجوه الأشخاص ، وعلى هذا فانى أرى — تمشياً مع نظريتك — أنى إذا فكرت فى أسوار بابل ، أو خطر لى وجه «هومير» ، ظهر فى مخى طيف ما مر بخاطرى ، ولهذا فان من الميسور لنا أن نعرف كل شىء نبتغى معرفته ، ما دمنا لا نجد شيئا نعجز عن التفكير فى أمره ، وعلى هذا فليس ثمة طيف يتسلل من الخارج إلى نفوسنا أثناء النوم ، كما أنه لا وجود لأطياف تسبح فى الهواء إطلاقا ، وفى الحق إنى لم أصادف أحداً من الناس يتحدث بمثل هذا الاتزان الذى يبدو فى حديث ديمقريطس :

« إن النفس (البشرية) لها من قوتها وطبيعتها ما يجعلها نشيطة إبان اليقظة ، لا لأن مثيراً خارجيا يحملها على ذلك ، بل بسبب ما فطرت عليه من قدرة على الحركة الذاتية والسرعة التى لا يتصورها العقل[1] . وعندما تؤازر النفس أعضاء الجسم وحواسه الخمس ، تعظم قوى إدراكها الحسى وينشط تفكيرها

---

(١) هذا الرأى نفسه الذى شرحه شيشرون أيضا فى (C. M. 21. 78 Tusc. 1. 43.) قد سلم به قدماء الفلاسفة بوجه عام .

ويقوى فيهما وتزداد الثقة بها ، ولكن عندما يعوزها هذا العون الخفى (١) ويتبلد الجسم إبان النوم ، تتحرك النفس بذاتها ، وهكذا تهفو الرؤيا حولها ، وتمارس النفس نشاطها ، ويلوح أنها تسمع الأصوات وترى الكثير من الأشياء . وفى وسعك أن تكون على يقين من أن النفس عندما يدركها الضعف ويصيبها الارتخاء ، ترى مثل هذه الصور ، وتسمع مثل هذه الأصوات بطرق يشيع فيها الاضطراب ، وتتمثل فى صور شتى . ونلاحظ — بوجه خاص — أن آثار ما يجرى فى يقظتنا من أعمال ، وما يطوف بعقلنا من خواطر ، تتحرك فى باطن النفس وتتنقل ، فمن ذلك أنى حين كنت فى المنفى كان « ماريوس » لا يكاد يفارق خاطرى ، فقد كنت أذكر الشجاعة والجلد العظيم الذى اعتصم به فى تحمل ما أصابه من بلايا شديدة الوطأة ، وهذا — فيما أظن — هو الذى من أجله كان « ماريوس » يطوف بخاطرى كلما عقد الكرى أجفانى .

٦٨ — أما عن رؤياك فانها قد وقعت لك عند ما كنت مهموما بالتفكير فى أمرى (٢) ، ثم تراءت لك حين خرجت من النهر فجأة ، فان فى نفس كل منا تكمن « آثار من خواطر اليقظة » ولكن هذه الآثار قد طرأت على صورتها الأصلية زيادات وإضافات ، كما ترى فى رؤياى عن معبد الذكرى لماريوس ، ورؤياك التى تبدى فيها الجواد الذى كنت أمتطى صهوته ، وقد غاص فى الماء ثم طفا وعاد إلى الظهور ، ولكن أتحسب من الممكن لعجوز

---

(١) إن الفكرة التى يعرضها شيشرون هنا فكرة شائقة للغاية ، ومن الممكن القول بأنها تشبه أحدث النظريات فى هذا الصدد ، وخلاصتها أن اضطرارنا إلى أن نعمل أثناء اليقظة عملا معيناً ، أو نواجه بعض المسائل بطريقة خاصة ، يضع هذا لخيالنا نطاقا معينا لا يتجاوزه ، وليس فى وسعنا أن نسترسل مع خيالنا غير مكترثين لما نسميه بالحقيقة ، إلا إذا استهدفنا لكل أنواع المخاطر ، لأن مصلحتنا التى تفرض علينا العناية بجسمنا وحفظه فى حال سليمة ، والتى تقضى باستخدام أعضائنا لسد حاجاتنا ، تقضى بأن نحذر من عواقب الاسترسال فى الخيال ، وتقوم بدور هام فى إدراكاتنا الحسية ، أما فى أثناء النوم فاننا لا نعبأ بالحس وحقائقه ، ونسترسل مع الخيال أنى ذهب ، وهنا ندع الكلمة للأستاذ برجسون (چارنييه) .

(٢) حين كان شيشرون فى منفاه (لوبب) .

شمطاء قد بلغت من الخبل الحد الذى يجعلها تؤمن بالأحلام ، أن تستمر فى إيمانها هـذا ، متى ثبت لها أحيانا — لحسن الحظ أو المصادفة — أن هذه الأحلام باطلة ؟

ولـكن فلنعرض للحديث عن رؤيا الاسكندر عن الثعبان الذى تكلم ، قد تكون القصة صحيحة ، وقد تكون مختلقة من بدايتها إلى نهايتها ، وفى كلتا الحالين لا تعتبر هذه القصة شيئاً معجزاً ، لأن الإسكندر لم يسمع صوت الثعبان وهو يتكلم ، ولـكن ظن وهما أنه سمعه ، وقد خال — وهذا أعظم الأمور مثاراً للغرابة ، أن الثعبان قد تكلم وهو يحمل الجذع فى فمه ..! ولـكن ليس من شىء غريب على الإنسان حين يكون فى حلم . ! ثم إذا كانت هذه الرؤيا الصادقة المليئة بالحياة والمعانى ، قد وقعت للإسكندر ، فانى أميل إلى توجيه هذا السؤال إليك : لماذا لم ير رؤيا شبيهة بها بعد ؟ ولماذا يرى الآخرون فى منامهم كثيراً من أشباه هذه الرؤيا ؟

أما عن أحلامى فإنى إذا استثنيت الرؤيا التى رأيت فيها ماريوس ، لا أجد فى ذاكرتى حلماً أستطيع استعادته ، ففكر إذن ، كم من ليلة فى حياتى الطويلة قد قضيتها عبثاً !! وهذا فوق أنى قد أوقفت فى الوقت الراهن دراساتى الليلية نظراً إلى اضطراب شئونى العامة ، وأضفت ، على عكس ما ألفت من قبل ، فترات قصيرة المدى أنام فيها بعد الظهر ، ولـكنى رغم كل هذا الوقت الذى أقضيه نائما ، لم أتلق فى الرؤيا نبوءة واحدة — أجل ، ولا نبوءة واحدة على التحقيق تنصب على الأحداث الجسام التى تدور الآن رحاها (١) . وفى الحق إنى — فيما يخيل إلىّ — لم أر رؤيا إلا حينما كان الحكام فى السوق العامة ، ومجلس الشيوخ فى داره .

الشك فى قيام علاقة طبيعية بين نبوءات الرؤيا وحقائق الأشياء :

٦٩ — ومن حيث إننا وصلنا الآن إلى القسم الثانى من موضوعنا الراهن ،

(١) يشير إلى الشغب والاضطراب الذى أعقب مصرع قيصر (اويب) .

هل ثمة مثل هذه العلاقة الطبيعية (١) وهى أن العثور على كنز نتيجة لازمة لظهور بيضة فى رؤيا؟ من المحقق أن الأطباء يعرفون ـ استناداً إلى أعراض معينة — بداية المرض ويدركون استفحاله ، والمظنون أنهم يستطيعون أن يعتمدوا على بعض ضروب الأحلام (٢) فى الاهتداء إلى دلالات معينة ، كتلك التى تنبىء عن صحة المريض ، أو عما إذا كان الجسم مليئاً بالسوائل أو فارغ منها ، ولكن أية علاقة طبيعية تلك التى تربط بين الرؤيا من ناحية ، والكنوز وتراث الأجداد والمصلحة العامة والانتصار فى الميادين ومايشبه هذا من أمور كثيرة من ناحية أخرى؟

يقال إن أحد الناس قد قذف حصى أثناء حلم تخلله جماع ، وأنا أستطيع فى مثل هذه الحالة أن أتبين العلاقة التى تربط بين الحلم ونتيجته ، لأن الرؤيا التى تمثلت للنائم كانت بحيث تجعل من البين أن ما وقع له ، مردّه إلى أسباب طبيعة لا إلى هذيان يطوف بخاطره (٣) .

ولكن بأى قانون من قوانين الطبيعة تلقى « سيمونيدس » هذه الرؤيا التى أمرته بأن يبحر .؟ أو ما هى العلاقة التى تقوم بين قوانين الطبيعة وبين حلم « الكبيادس » الذى بدا فيه قبيل مماته بقليل — فيما يقول التاريخ — مكتسيا

---

(١) التى تقوم بين الأحلام والأشياء كما تظهر فى الرؤيا . قارن الفقرة الرابعة عشرة من الكتاب الثانى (لويب) .

(٢) كان الطب القديم يسلم بالأحلام التكهنية التى تحذر الحالم من المرض الذى قد يتعرض له بعد قليل من الزمن ، وكان أبقراط Hippocrate يقول إن النفس تتنبأ بالحالات المرضية التى تعترى الجسم . وكان جالينوس Galien يؤكد أن الحلم يكشف لنا عن استعداد المرء للتعرض لصنف معين من الأمراض . وفى اعتقادنا أن الطب الحديث لايستبعد هذه الفكرة ، وهو يقصرها على حالات معينة فى نطاق ضيق (جارنييه) . أنظر شرح هذه الفكرة فى كتابنا « الأحلام » ص ٦٨ و١٤٣ و ٥٣ — ٥٤ و ٧٣ — ٧٤ وفى كتابنا « التنبؤ بالغيب » ص ٨٨ .

(٣) تسلم الترجمة بتفسير Hottinger De Div. p. 541. والمراد هنا أن الحلم السالف كان نتيجة وليس سببا فيما تقول لويب ، وهو رأى اتفق عليه جمهرة المحدثين من علماء النفس ، وإن كان رجال الدين من المسلمين قد ذهبوا إلى أنه من الشيطان .

رداء خليلته ، ولما قتل أخيراً وطرحت فى الشارع جثته ، وسجيت من غير أن تقر فى مثواها ، وأغفل الناس أمرها إلى حد كبير ، غطت هذه الخليلة جثته بردائها ؟ فهل تقول إن هذه الرؤيا ترجع إلى أسباب طبيعية تتصل بالقضاء الذى اعتراه ، أو تقول إن المصادفة كانت سببا أدى الى ظهور الشبح والحادثة التى تلته معاً ؟

اختلاف المعبرين فى تأويل الرؤيا الواحدة :

٧٠ — ثم أليس صحيحا أن حدس معبرى الأحلام أدلّ على فطنة أصحابه ، منه على قيام علاقة بين الأحلام وقوانين الطبيعة ؟ ونقول على سبيل المثال إن عداءً رأى فى منامه أنه يتأهب للاشتراك فى الألعاب الأولمبية ، وأنه كان يركب مركبة تجرها أربعة خيول ، فمضى فى الصباح الى معبر أحلام ليستشيره فى أمر هذه الرؤيا ، فقال له المعبر : « إن الفوز حليفك ، فان هذا أمر تشير اليه سرعة الخيول وقوتها » . فذهب الى « أنتيفون »(١) ، فقال له : « إنك خاسر لا محالة ، ألست ترى أربعة تعدو أمامك ؟ » .

فلنر عداء آخر — فان كتب « كريسبوس » و « أنتيباتر » حافلة بمثل هذه الأحلام — فلنعد إلى الحديث عن العداء : أنبأ عداء معبر أحلام بأنه رأى فى منامه أنه تحول إلى نسر ، فقال له المعبر : « النصر ينتظرك ، فليس أسرع من النسر بين الطيور » فاستشار هذا العداء « أنتيفون » كذلك ، فقال له : « ألست ترى أيها الساذج أنك ستبوء بالخسران ؟ فان هذا الطائر يطارد على الدوام غيره من الطيور ويسوقه أمامه ، ويتخلف على الدوام عنها جميعا » .

وقد كانت إحدى الزوجات تتوق إلى أن ترزق طفلا ، وساورها الشك فى حملها ، فرأت فى منامها أن رحمها قد ختم عليه ، ولما قصت رؤياها على معبر

(١) كان كاهنا معاصراً لسقراط ، وقد تخصص فى تعبير الرؤيا . وكان فى هذا الميدان حجة غير منازع . وظل على هذا حتى زمن بطلميوس الأول Ptolémée Soter إذ ظهر طبيب يسمى « هيروفايل » Hierophile فابتكر آراء جديدة . (جارنييه) .

أحلام . قال لها : « إن الحمل مستحيل والرحم مختوم عليه » ولكن معبراً آخر قد قال لها : « إنك حامل ، إذ ليس من المألوف أن يختم على الشيء الفارغ » !

وإذن فما هو الفن الذى تهيأ لمعبرى الأحلام ؟ وهل تراه أكثر من أداة يستخدم فيها المرء ذكاءه فى خداع غيره من الناس ؟ وهذه الأمثلة التى أسلفتها — بالإضافة إلى ماقدمه الرواقيون من أمثلة لاعديد لها — لاتبرهن على شيء أياً ما كان ، إلا على حذق أولئك الذين يستندون إلى دقيق المشابهات ، لكى يستنتجوا منها نتائج تختلف من حين إلى حين ، إن هناك دلالات معينة يراها الأطباء فى حالة النبض وترداد النفس وغير ذلك من أعراض جمة ، يستندون إليها فى التنبؤ بالمرض . وعند ما يرى أدلاء السفن سمك الأخطبوط يثب فى البحر ، أو الدلافين تلوذ بنفسها إلى ميناء ، يعتقدون بأن زوبعة توشك أن تثور . يرى المرء فى مثل هذه الحالات آيات يمكن ردها إلى الأسباب الطبيعية ، وتفسيرها تفسيرا عقلياً ، وليس يصدق هذا ألبتة على الأحلام التى أسلفنا الحديث عنها منذ حين (١) .

الشك فى قيام التعبير على المشاهدة العملية :

٧١ — الآن قد بلغنا فى بحث الأحلام النقطة الأخيرة (٢) ، التى استبقيناها للمناقشة ، والتى تجادل الآن فيها قائلا :

« ظهر فن التعبير بعد ملاحظة الأحلام مدة طويلة من الزمان ، وتسجيل النتائج التى أدت إليها هذه الملاحظات » . أحقاً هذا ؟ وإذن فمن الممكن — فيما يلوح لى — أن « نلاحظ الأحلام » ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن هذا ؟ فإن الأحلام تتنوع تنوعاً لاحد له ، والمرء لايستطيع بتاتاً أن يتصور شيئا — بالغا ما بلغ تناقضه وتعقده وشذوذه — لايحلم المرء

(١) لعل هذا هو الذى حمل بعض مفكرى الاسلام على أن يردوا تأويل الأحلام إلى الفتح الإلهى مع الفطنة والذكاء — قارن كتابنا « الأحلام » ص ١٧٨ .

(٢) أى من النقط الثلاث التى ذكرناها فى الفقرة الستين من الكتاب الثانى (لوبب) .

به ، فكيف إذن يكون من الممكن لنا أن تتذكر هذه الرؤى التى لا يحصيها العـــد ، والتى تتغير على الدوام أبدا ، أو أن نلاحظ النتائج التى تعقبها ونسجلها ؟ لقد سجل علماء الهيئة حركات الكواكب السيارة ، فكشفوا بذلك عما للنجوم من مسالك منظمة — لم يفكروا فيها من قبل — ولكن نبغى — إن استطعت الى ذلك سبيلا — ما هو الطريق المنظم الذى تلتزمه الأحلام فى جريانها ، وما هى العلاقة المنسقة التى تقوم بين الأحلام والحوادث التى تعقبها ؟ وبأية وسيلة يمكن التمييز بين الرؤيا الصادقة والحلم الباطل ؟ ما دام الحلم الواحد يستتبع عند شخص نتائج بعينها ، وعند شخص آخر يستلزم نتائج أخرى ؟ وما دمنـــا نرى أن الحلم الواحد الذى يقع لفرد واحد لا يستتبع على الدوام نتيجة واحدة ؟ وقد جرت العادة ألا نصدق كذابا حتى حين يقول صدقا ، ولكن الشىء الذى يثير دهشتى هو أن حلما واحدا إذا صدق ، فان أصدقاءك الرواقيين يثقون بقيمة هـذا الحلم فى مجال التكهن بالغيب ، رغم أنه حلم واحد من عدة أحلام ، أو هم بالأحرى يعتمدون على رؤيا صادقة واحدة فى إقرار أحلام باطلة أخرى لا يحصيها العد.

قيام التعبير على الحدس يبرر الشك فى نتائجه :

وإذن فاذا لم يكن الله هو الذى خلق الأحلام ، وإذا لم تكن ثمة علاقة بينها وبين قوانين الطبيعة ، ثم إذا لم يكن من الممكن أن يقام فن التكهن بالغيب عن طريق الملاحظة ، فانا لا نستطيع تبعاً لهذا أن نثق فى الرؤيا إطلاقا ، وإن هذا ليزداد وضوحا بوجه خاص إذا لاحظنا أن هؤلاء الذين تتراءى لهم ، ولا يستطيعون أن يستنبطوا منها نبوءات ، وأن هؤلاء الذين يؤولونها يعتمدون على الحدس ولا يستندون الى الطبيعة ، وأن المصادفة قد انتهت بعد أجيال لا يكاد يحصيها العد ، الى معجزات أبعث على الدهشة وأعظم إثارة للعجب من تلك التى انتهت اليها الأحلام ، وألا شىء — آخر الأمر — أكثر مدعاة

للشك والقلق من الحدث الذى قد لا يؤدى إلى نتائج تتغير فحسب ، بل قد يؤدى فى بعض الأحيان إلى نتائج متناقضة .

رفض التسليم بأساليب التكهن باعتبارها خرافة :

٧٢ — وإذن فلنرفض التسليم بالأحلام كطريقة من طرق التنبؤ بالغيب ، كما رفضنا التسليم بغيرها من طرق ، ولنقل فى صراحة : إن الخرافة التى ذاعت بين الشعوب ذيوعا واسع المدى ، قد استغلت الضعف الإنسانى وهيمنت على أكثر العقول البشرية . وقد أبنت عن هذا الرأى فى البحث الذى وضعته حول «طبيعة الآلهة» (١)، وجعلت التدليل على صحته الغرض الرئيسى من بحثنا الراهن، فأكبر الظن أنى أؤدى خدمة جليلة لنفسى ولأهل وطنى معا، إذا استطعت أن أجتث الخرافة من جذورها ، ولكنى أريد أن تفهم فى وضوح وتميز أن القضاء على الخرافة ليس تحطيما لكيان الدين ، لأنى أعتبر من الحكمة أن نحتفظ برسوم أجدادنا ، وأن نتمسك بشعائرهم الدينية وطقوسهم المقدسة ، فإن النظام الذى يتبدى فى رحاب السماء ، والجمال الذى يشيع فى فضاء الكون ، يضطرنى إلى الاعتراف بوجود كائن أبدى يسمو فوق شتى الكائنات ، ويستحق من بنى البشر التقدير والإكرام .

ومن ثم فإن واجبنا كما يقضى بأن نبسط نفوذ الدين الصحيح الذى

---

(١) فى الفقرة الثامنة والعشرين من الكتاب الثانى من « طبيعة الآلهة » لشيشرون يميز أحد المتحدثين وهو يتكلم عن إلهيات الرواقيين بين الخرافة التى تعتبر ضعفا وبين الدين الذى يجعل المرء خليقا بالتقدير والثواب . ولكن شيشرون يميل هنا الى القول برأى يشبه الرأى الذى يعبر عنه « كوتا » Cotta فى الكتاب الثالث من « طبيعة الآلهة » وشيشرون فوق أنه « شاك » Sceptique فانه يخدم العرف الجارى المألوف ، وهو يؤكد عقب هذا وجود كائن علوى يدين له الناس بالاعجاب والاجلال ، مستندا فى رأيه هذا الى الدليل الذى قيل عن العلل الغائية أو العلل الآلهية الطبيعية (جارنييه) .

يتصل بمعرفة الطبيعة اتصالا وثيقا (١) ، فإنه يقضى كذلك بأن نقتلع جذوع الخرافة اقتلاعا ، فانك إن أبيت التسليم بالخرافة ، جدت في إثرك ولاحقتك وتبعتك أنى كنت ، إنها تصحبك حين تنصت إلى رئى أو تستجيب إلى فأل أو تقدم القرابين لإله ، أو تراقب سبح الطيور في سمائها ، أو تلتمس مشورة نجام أو عراف ، أو ترى السماء ترعد أو تبرق أو ترسل الصواعق ، أو حين يقع ما يسمونه خارقا ، ولما كان بعض هذه الشواهد يكاد يظهر بالضرورة دواما ، فان المرء الذى يؤمن بها لا يضمن لنفسه دوام استقرار العقل وهدوئه .

إن النوم ملاذ من كل هم ونصب ، ولكنه صار بالفعل مصدرا للهموم والمخاوف . وفي الحق لقد كان من الممكن أن نستخف بالأحلام ونستهين بأمرها ، ولا نوليها مثل هذا الاهتمام ، لو أن الفلاسفة لم يشملوها برعايتهم ، ولست أقصد صغار الفلاسفة ، ولكنى أقصد أولئك الذين وهبوا الذكاء الوقاد ، وأوتوا القدرة على أن يدركوا النتائج المنطقية التى تترتب على هذا أو لا تترتب عليه ، أولئك الذين يكادون يعتبرون معصومين من النقص والخطأ ، وفي الحق لو أن « كارنيادس » لم يقاوم غطرستهم ، لكان من المحتمل أن يقر في أذهان الناس فى هذا العصر أنهم وحدهم الفلاسفة ، ولما كنت قد خصصت

---

(١) إن الفكرة التى يعبر عنها شيشرون هنا وهى اتفاق الدين مع المعرفة العلمية غير واضحة الى حد ما ، لأننا لانعرف على وجه الدقة تلك المعتقدات التى كان يعتنقها المؤلف ، الا أننا نستطيع أن نقول اجمالا انها تشبه ما كان يسمى فى القرن الثامن عشر وفى كثير من كتب الفلسفة : الدين الطبيعى وهو الذى لايقر الوحى ، ومن المؤكد أن المذهب الطبيعى الالهى Déisme عند الانجليز قد أفاد كثيراً من شيشرون ، وذلك منذ عهد هربارت شربورى الذى يرجع بكتابه De Veritate prout distiuguatur de revelatione الى عام ١٦٢٤ . ونرى بيانات شائقة تتصل بهذا الموضوع فى كتاب Zielinski وهو Cicero inn Wandel der Jahrhunderto ولسنا نجهل الاعجاب الذى كان يبديه فولتير لشيشرون ، وفولتير من أتباع المذهب الطبعى الالهى عند الانجليز (جارنييه) .

هؤلاء بمعظم ما أثرت من جدل عنيف، فإنى أصرح بأن هذا لا يرجع إلى أنى أنطوى لهم على نوع من الاحتقار، بل مرده على عكس هذا إلى أنى أراهم يذودون عن آرائهم بأعظم دقة وأكبر مهارة، وذلك فوق أن من خواص أهل الأكاديمية، ألا يقدموا للناس نتائج اهتدوا اليها، بل يستصوبون النتائج التى تلوح لهم أدنى ما تكون إلى الحق، ويقارنون بين الأدلة ويعلنون كل ما يمكن أن يقال فى تأييد الرأى دون أن يؤكدوا رأيا لهم، ويتركون للسامع مطلق الحرية فى إبداء رأيه وإصدار حكمه، وهذه الطريقة نفسها — ونقول عرضا إنا ورثناها عن سقراط — هى التى أنوى التزامها فى مناقشاتنا المقبلة، ما استطعت إلى ذلك سبيلا — إن كان هذا يروقك يا عزيزى كوتتوس».

فقال كوتتوس: «ليس أحب إلىّ من ذلك».

وبهذا انتهى الحديث بيننا فنهضنا؟

كتب للمؤلف

ا — ترجمة :

١ — علم الغيب فى العالم القديم : قامت بنشره مكتبة الآداب عام ١٩٤٦
(وقد قدمت الترجمة مع التعليق عليها ملحقا لرسالة الدكتوراه (الأحلام) التى جازت الامتحان بمرتبة الشرف الممتازة) .

٢ — تراث الاسلام : لجنة الجامعيين لنشر العلم عام ١٩٣٦
(ترجم فيه المؤلف الجزء الذى وضعه ا. جيوم عن « الفلسفة والألهيات »)

٣ — تاريخ علم الأخلاق : وضعه هنرى سدجويك أستاذ الفلسفة الخلقية فى جامعة كامبردج — وستصدر الترجمة العربية فى جزءين قريباً

ب — تأليفاً :

٤ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الاسلام : صدرت فى سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية عام ١٩٤٥

٥ — الأحلام — دراسة مقارنة . قامت بنشره مكتبة الآداب عام ١٩٤٥
(رسالة الدكتوراه المشار إليها سالفا)

٦ — الشعرانى — إمام التصوف فى عصره : صدر فى سلسلة أعلام الاسلام عام ١٩٤٥

٧ — قصة الكفاح بين روما وقرطاجنه : لجنة الجامعيين لنشر العلم عام ١٩٣٦ ، وقامت باعادة طبعه مكتبة الآداب وظهرت الطبعة الثانية عام ١٩٤٦

٨ — التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى : تحت الطبع بمكتبة الآداب
(بحث جاز امتحان الماجستير بمرتبة الشرف)

٩ — قصة النزاع بين الدين والفلسفة : يطبع قريباً